

القائمة القصيرة لجائزة Restless Books لكتابة المهاجرين الجدد

ياسر السيد

الإسكندرية التي تضيع منك

ترجمة: عبد الرحيم يوسف

مخصص

سيف
SEFSafa PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSafa.NET

الإسكندرية التي تضيع منك

عبد الرحيم يوسف

عبد الرحيم يوسف/ شاعر ومترجم مصري من مواليد الإسكندرية في عام ١٩٧٥ .
تخرج من كلية التربية قسم اللغة الإنجليزية بجامعة الإسكندرية في ١٩٩٧ وعمل
مدرسا لمدة عشرين عاما. صدرت له سبعة دواوين بالعامية المصرية وعشرون كتابا
مترجما، وحصل على جائزة الدولة التشجيعية في الآداب فرع ترجمة الأعمال الفكرية
لعام ٢٠١٦ عن ترجمته لكتاب (ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة) لبرنارد
ماندفيل الذي صدر عن دار صفصافة عام ٢٠١٤ .

إهداء

لذكرى والدي الحبيب

ولإسكندرية التي تركها وراءه

“كمن هو على أهبة الاستعداد من قديم، كشجاع جريء، ودّعها... ودّع الإسكندرية، الإسكندرية التي تضيع منك إلى الأبد.”

قسطنطين كفافيس، عندما تخلت الآلهة عن أنطونيو،

ترجمة: نعيم عطية

“الماضي لا يموت أبداً. إنه ليس حتى بماضٍ.”

وليام فوكنر، قداس لراهبة

الحاج

صعد الرجل إلى الحافلة بينما كان تامر نائما، وانزلق في المقعد الخالي خلفه.

“يا بني..” ناداه عند نقطة استراحة في مدينة جوبلين بولاية ميزوري، مربتا على كتف تامر. طَبْ- طَبْ طَبْ. “يا بني. هل تمنع في إحضار كوب من الكوكا لي؟”

لم يرد تامر -غَبَّشَ النطق الممطوط الكلمات وأحالتها إلى همهمة غامضة- لكنه ألقى نظرة فقط من فوق كتفه، وابتسم، وهز كتفيه، وتظاهر بالعودة للسقوط في النوم. بيد أن الرجل كان لحوحا بالفعل، وعندما بدأ التريبت من جديد، التفت تامر ليوواجهه.

لَوَّحَ الرجل بورقة من فئة الخمسة دولارات في وجه تامر. كان يقول: «اشتر لنفسك كوكا أيضا. هيا. هيا. على حسابي.»

أخيرا قال تامر: «كوكا؟»

“نعم. كما تعرف. كوكا كولا. اشتر لنفسك واحدة أيضا.”

تناول تامر ورقة الخمسة دولارات ودفع جسده لينهض من مقعده.

قال الرجل: “أحب تلجا إضافيا في كوبي.. من فضلك.”

التاسعة مساء. وحيث أن الحافلة كانت قد غادرت الطريق السريع وقامت بانعطافة حادة إلى طريق فرعي يؤدي إلى نقطة الاستراحة، لم يعد بوسع تامر أن يرى الطريق السريع. ومع ذلك كان ما زال بإمكانه سماع ضجته، تلك الأصوات المهوشة للسيارات المندفعة من بعيد، فوق كتلة كبيرة من الأسفلت وعبر مساحة أكبر مما كان يمكنه أن يتصور على الإطلاق. شيء أشبه بالطريق بين الإسكندرية والقاهرة؛ شريط رفيع من الضوء، وامتداد من الصحراء على كلا الجانبين. لكن هذا كان أوسع وأضخم، حتى أنه شعر بالضالة خارج الحافلة، وخشي أن يتركوه وراءهم. كانت السماء دامسة السواد، وعلى البعد بدا خيال ظل معتم للأشجار. أشجار في كل مكان، أشبه بجدارية مرسومة بقلم الفحم تمسها بالكاد الهالة الصفراء لأعمدة الإنارة في منطقة صف السيارات، أو الضوء المنبعث من نقطة الاستراحة نفسها - وكلاهما عاجزان عن الإضاءة.

لم يستطع تامر أن يتحاشى النظر إلى الوراء، ورأى أن اثنين آخرين من المسافرين قد نزلا أيضا، وكانا يسيران وراءه إلى نقطة الاستراحة. جعله هذا يطمئن قليلا. وما إن دخل الاستراحة، حتى توجه تامر رأسا إلى المقصف. فاح المكان برائحة الدهن ولحم الخنزير المقدد. لحم الخنزير المقدد! كانت تلك رائحة جديدة عليه. عبير ثري وجذاب، قابله لأول مرة وهو يتجول في بوسطن؛ حيث قضى أيامه القليلة الأولى في الولايات المتحدة مقيما في بيت العم لطفى.

“1? What kin I do ya for hon” قالت امرأة ترتدي ثوب عمل أخضر باهتا. اسمها بيتسي؛ وفقا للبطاقة المثبتة على صدرها. كانت امرأة ضخمة في الأربعينات أو الخمسينات من عمرها وثمة انتفاخ حول وسطها حيث كانت مريبتها مربوطة. لم ترفع عينيها عما كانت مشغولة به أيًا كان، ولم

يكن تامر واثقا تمام الثقة من أنه فهمها تماما. وعندما لم يُجب تطلعت إليه نافذة الصبر وقالت: «ماذا يمكنني أن أتى لك به يا عزيزي؟» كان لها وجه مجدور، وبه تجاعيد عميقة تجلت عندما حدقت فيه مغمضة عينيها نصف إغماضة. شعرها الخفيف، الأشيب الفضي، كان مشدودا إلى الوراء ومربوطا في ذيل حصان طويل، تقريبا كما تفعل فتاة صغيرة، وهو ما بدا متناقضا معها.

قال تامر بحرص: «كوكا كولا بالتلج.»

تأملته بيتسي للحظة، وأمالت رأسها إلى جانب. وأخيرا قالت وهي تغوص بمغرفة معدنية في ماكينة التلج: «بالتأكيد يا عزيزي، لدينا الكثير من التلج.»

كان بيت العم لطفي خارج بوسطن بناء صغير مدمجا. على طراز "كيب كود"² كما قال لتامر وهما يقتربان منه بالسيارة الفولفو الزرقاء، قاطعين شارع اصطفت على جانبيه الأشجار وانتهى إلى زقاق، في وسطه قام بيت مثلث الشكل، أبيض مسقوف بحصوات رمادية، وساحة أمامية صغيرة، ومساحة من العشب المجزوز حديثا يشطرها ممر مكسو بالحصى يؤدي إلى الباب الأمامي. لم تكن لدى تامر أي فكرة عن ماهية طراز «كيب كود»، لكنه أوما برأسه موافقا.

"الساحة الخلفية كبيرة. ضخمة." قال العم لطفي على سبيل التفسير أو الاعتذار، هذا ما لم يكن بوسع تامر أن يحدده. «نحن بالضبط أمام محمية طبيعية. في الحقيقة يمكنك أن تسير من الساحة الخلفية مباشرة إلى داخل غابة الشجر. جميلة. لا شيء يشبهها في مصر كلها، والله!»

كرر تامر إيماءة موافقته وقال: «لطيف جدا يا عمي. مبروك. أنا فعلا سعيد من أجلك.»

ضحك العم وقال: «أمريكا..»

كان العم لطفي أقرب أصدقاء والده منذ أيام مدرسة سان مارك بالإسكندرية. وكان لطفي وخالد، والد تامر، قد وطدا صداقتهما كاتنين من الطلاب المسلمين القلائل الملتحقين بتلك المدرسة الفرنسية الكاثوليكية. ودامت علاقتهما عبر العقود العديدة التي تلت ذلك. حتى بعد أن هاجر لطفي إلى الولايات المتحدة، ظل خالد ولطفي على اتصال. وعندما قبل تامر في برنامج دراسة هندسة البترول في جامعة أوكلاهوما، أصر لطفي على أن يقضي بضعة أسابيع في بوسطن.

قابله لطفي في مطار لوجان، وحياه بحماس يليق بابن غاب زما طويلا، وأمطره بوابل من الأسئلة عن البلد القديم والأسرة والاضطرابات وكيف تسير أحوال الناس العادية، وماذا يحدث بحق الله مع الأمن. كان مدكوك الجسد وله كرش، وشعره الأسود الخفيف مفرد فوق قمة رأس صلعاء. كان يتحدث الإنجليزية بلكنة أمريكية متكلفة تماما، مذكرا تامر بأخريين من العائلة والأصدقاء الذين كانوا يعودون من دراستهم في بريطانيا بتحوُّر مشوّه مشابه. لكن فيما عدا تعليق لتامر عن صيف بوسطن الذي يتركه «³sweating like a pig» وصيحته قائلا «⁴stay cool, man» للسائس الأفر وأمريكي الغافي في مهجعه، التزم لطفي أغلب الوقت بالعربية.

وبينما كانا منطلقين على طول الطريق 90 السريع، كان تامر يتطلع إلى المتاهة المباغثة من الحديد

والخرسانية، بينما كان لطفي يشير مسميا المعالم الشهيرة بعبارات توضيحية قصيرة ومفاجئة: «هذا يُسمى نهر تشارلز. انظر هذا - ذلك منتزه فنواي بارك. أنت تعرف لعبة البيسبول بالفعل. البيسبول؟ نحن نمر إلى جوار كامبريدج هنا. أنت تعرف MIT⁵، صحيح؟ سمعتَ بهذا المكان من قبل؟ مشهور جدا!» ثم غادرا الطريق السريع، وانطلقا في طريق ترابيلو. الشوارع منظمة ونظيفة. أشجار ومروج مشدبة. أعمدة إنارة شغالة. إشارات مرور تتوقف عندها السيارات بالفعل. أمريكا التي رآها في الأفلام، وبالتالي في الخيال.

أعلن لطفي: «صنعت لك بامبلا وجبة مصرية مطبوخة في البيت!» ورفع أصابعه المضمومة إلى شفثيه وقبلها بصوت عال. «ملوخية، محشي، بامية!»

كانت بامبلا من قرية وايت ريفر جنكشن، في ولاية فيرمونت. وكان لطفي قد قابلها في حفل تخرج في جامعة بوسطن. تساءل تامر: «وأي تعلمت كل هذا؟»

نظر إليه لطفي بدهشة ساخرة: «إنها متزوجة من مصري!» أعلنها وهو يديق على صدره، مطلقا نوبة قصيرة من السعال.

استقبلتهما بامبلا عند الباب. امرأة في أوائل الخمسينات من عمرها، ذات جرم كبير، وترتدي ثوبا أزرق فضفاضا بدا أثقل من اللازم على تلك الحرارة العالية، وحجابا أخضر باهتا. لها عينان بلون البندق غائرتان أعلى وجنتين مرمريتين ممتلئتين.

أدهش مظهرها تامر، حيث بدا بطريقة ما متعارضا مع الروح المتحررة التي لطالما نسبها والده للطفي. أن تكون زوجته الأمريكية مرتدية زي مسلمة تقليدية في استقباله داخل بيتها المشيد على طراز «كيب كود» الأمريكي أمر بدا كبدعة من نوع ما.

«السلام عليكم أستاذ تامر..» حيته بالعربية بلكنة مصرية.. متكلفة مثل إنجليزية لطفي الأمريكية.

مد تامر يده ليصافحها، لكنها اكتفت بالابتسام له وأبقت يديها مضمومتين أمامها.

كانت هناك حركة ما خلفها، وتحت بامبلا جانبا.

قالت: «هذه نادبة..»

وأضاف لطفي: «ابنتي..»

لوحث نادبة لتامر تلويحة روتينية وقالت: «هاي..»

كانت في العشرين من عمرها أو نحو ذلك، كما حدس تامر، ذات شعر بني غامق تتخلله خطوط حمراء وخضراء. ارتدت صديريّة صفراء فاقعة تكشف حجابها الحاجز، وبنظالا من الجينز الأزرق المهترئ. حكّت باطن إحدى سمانتيها بقدم في حذاء رياضي كستنائي.

مرة أخرى مد تامر يده، وهذه المرة قوبل بمصافحة رخوة. صلصل رسغا نادبة بأساور من الفولاذ، وتدلّى من شحمتي أذنيها قرطان معدنيان هلاليان. برز قرط أنف بلوري أسود على نحو واضح من

فتحة أنفها اليسرى، وبدا الجلد حوله مسلوخا وملتهبا. لم يكن تامر قد قابل مخلوقة كهذه من قبل.

قال لطفي: «نادية ستلتحق بالكلية في غضون شهر قليلة. لقد أخذت عامين أجازة بعد المدرسة الثانوية، لكن الآن كل الأمور مستقرة وهي على استعداد لأن تعمل بجد وكدح.» تحدث بالإنجليزية، وثمة ابتسامة قلقة ترفرف عبر وجهه وهو يردد ناظره بين ناديه وبامبلا.

قالت بامبلا: «ينبغي أن ترشد تامر إلى حجرته يا لطفي.»

«طبعاً. أكيد. كم أنا أحمق..» صاح لطفي وقد بدا عليه بعض الارتياح. «يا تامر، من هنا.»

«تامر، هناك سجادة صلاة في المكتب المقابل للفراش. الدرج الثاني.» قالت بامبلا.

أوما تامر. «شكراً يا طنط..» قال، رغم أنه لم يصل بانتظام منذ سنين.

على مائدة الطعام وجّه تامر سؤالاً لنادية حول ما تخطط لدراسته.

«العلاج الجنسي..» قالت وهي تتطلع إليه بسرعة من فوق طبقها المليء بالكشري والمحشي.

«نادية!» صاحت بامبلا.

ألقي لطفي أدوات مائدته بجلجلة، ورفع يديه بحدة، وافتعل ضحكة مكتومة.. «جاءتني فرصة للعمل في السعودية منذ سنين عديدة. تذكرني هذا يا بامبلا. كان ينبغي أن أنتهزها!» قال وهو يهز إصبعه نحو ابنته، فيما كان ما يزال يضحك ضحكته المكتومة، ثم تمتم بشيء بصوت غير مسموع. بدا أنه يكلم نفسه لدقيقة أو اثنتين.

قالت بامبلا بهدوء وبابتسامة متكلفة: «ستدرس ناديه تصميم الجرافيك، في واحدة من كلياتنا بالمنطقة.»

«إما هذا أو ننطلق إلى السعودية!» زعق لطفي، وصوته يتعالى بالعربية. غمز بعينه إلى تامر، وهز إصبعه مرة أخرى نحو ناديه ولسبب ما نحو زوجته.

كان تامر يعرف من قصص والده أن لطفي لم يكن قط رجلاً متديناً. ولا كان أبوه كذلك في هذه المسألة. لقد دخنا الحشيش، وراكما مخزونا من ويسكي (جوني ووكر) طوال مرحلة الدراسة الثانوية في سان مارك وبعد ذلك في جامعة الإسكندرية. وعندما كان تامر في العاشرة من عمره، فرت أمه -زينب- مع أستاذ أمريكي زائر لدراسات الشرق الأوسط كانت قد قابلته في سيمينار بالإسكندرية. لم يتسرب أي شك لخالد حول أي شيء، فهو لم يلتق الرجل قط. وهكذا ذهبت زينب ذات يوم، ربما إلى مكان يُدعى سانت لويس في ميزوري من حيث أتى الأستاذ، ولم يرها تامر أو خالد ولا سمعا شيئاً منها مرة أخرى. في الليلة السابقة على رحيلها السري تسللت زينب إلى فراش تامر واندست إلى جواره وجذبته إليها. ابتعد على نحو غريزي، مذعورا من هذه الحميمية المفاجئة، لكنها كانت قد احتضنته بقوة.

همست أمه له: «لحظة واحدة. مجرد لحظة واحدة..»

وهكذا رقد ساكنا، شاعرا بصدرها يرتفع وينخفض محتكا بظهره، وهو يعد الدقائق في صمت. وقبل أن تخرج من فراشه، دسّت صورة فوتوغرافية لها صورة جواز سفر ملونة- في راحة يده المفتوحة.

تركت رسالة قصيرة على مائدة المطبخ. كتبت فيها: روجي تتوق لأن تكون حرة. في الصباح التالي اندفع خالد يجوب الشقة نائرا مثل وحش بريّ جريح، وهو يجأر بأعلى صوته: روحها! روحها الملعونة! أقصد على الأقل أن تختلق أمرا أفضل من هذا! وبعد ذلك ألصق الرسالة على الحائط أعلى المرحاض حتى يتسنى له أن ينظر إليها وهو يتبول، حازقا في عناء، لكن دفع البول كان يخرج في انحناء واهنة ليضرب قاعدة المرحاض مثل انفجارات مكتومة. استمر هذا لبضعة أشهر حتى أتى يوم لاحظ فيه تامر أن الرسالة اختفت.

لم يكن واثقا مما جعله يتذكر هذا الوقت بعينه الآن تحديدا، وهو جالس إلى مائدة العشاء مع لطفى وأسرته. بامبلا، في حجابها المنفوخ، لم تبدُ كشخص على وشك الهروب مع أي أحد في أي وقت قريب، ولا كذلك بدا على لطفى؛ الذي بدا لتامر في حالة من الحيرة الشديدة وهو يتقحص زوجته وابنته الجالستين في ناحيتين متواجهتين من المائدة، بشوكات وسكاكين معلقة في الهواء للحظة أعلى طبقيهما، وكأنهما على وشك القتال.

نام تامر في حجرة المكتب. ثمة أريكة تُفرد لتصير فراشا أعدت بالفعل من أجله، ومكتب من خشب البلوط الأسود، بضع جرائد مصفوفة بنظام على جانب، وأباجورة بغطاء أخضر على الجانب الآخر، وكرسی دوّار به فجوة دائمة من أثر مؤخرة أحدهم على المقعد. بامتداد حائط واحد كانت هناك صور شخصية للأسرة - نادية وهي طفلة، بامبلا ولطفى يمسان معا بنادية أمام مجمع سكني، بعض الصور المغبشة لبامبلا ولطفى قرب الأهرامات، وفي الخلفية تلوح الجمال. جرى تامر بعينه على الصور سريعا. كان مرهقا من رحلته وأراد أن يغتس أسفل الأغطية.

ثمة طريقة على الباب وانفتح ببطء. «كله تمام؟» تساءل لطفى.

رد تامر: «تمام، شكرا يا عمي. أشكرك.»

“نورت بوسطن..” قال لطفى بابتسامة واسعة.

في تلك الليلة، حلم تامر بالإسكندرية، بكورنيشها المتلوي كالثعبان بمحاذاة البحر، برائحة البحر في الصباح الباكر من شرفة الشقة التي عاش بها مع والده، بعبق القهوة وروائح الطبخ المنبعثة من أكشاك الطعام التي اصطفت على جانب الطريق المترب بالأسفل، بحرارة الضحى الراشحة الضبابية، بصيحات بائع الروبابيكا على عربته التي يجرها حمار، وهو ينادي على بضاعته. تلك الضوضاء التي لا تكل ولا تمل. مقارنة بهذا -بالشوارع الهادئة، وكل بيت حصن حصين، والساحة الخلفية تؤدي إلى البرية والعزلة- افتقد تامر الإسكندرية على نحو شديد. تاق لدفنها المريح وسط الفوضى. لماذا غادرها أصلا؟ أصابته نوبة دعر، وارتفع وجيب النبض في جبينه. ربما صورة لطفى وحيدا وغريبا هي ما أثارت هذا. ثمة فراغ، خواء كان يدفعه عنه بجنون، شاعرا بذلك الغياب الأجوف في مضيفه وزوجته الغربية وابنته الأغر، والبيت الذي يقع على حافة العتمة.

لم يكن والده راغبا في رحيله، بعد أن فقد زوجة وصار خائفا من فقد ابنه الوحيد. لكن تامر كان يحلم سرا بالرحيل. تخيل أمه في مكان آخر. فيما وراء البحار. أراد أن يتبعها، لكنه تراجع بعد ذلك. واختار طريقا يحف بمسارها. على الخريطة كانت مدينة نورمان بولاية أوكلاهوما تقع إلى اليسار من سانت لويس تلك، إلى الجنوب قليلا، فركة كعب على طريق يدعى 44-1 أصبح شيئا يدعى ويل روجرز تيرنبايك، ومرورا بأماكن تدعى فورت ليونارد وود، سبرينجفيلد، جوبلين، ميامي، أواسو، تولسا، إدموند، بروكين أرو، كليرمور. تخيلها في هذا المكان، سانت لويس تلك. هذا إن كانت هناك أصلا. تخيل شارعا منعزلا، اصطفت به الأشجار، شيء خارج من فيلم أو صورة من الإنترنت. شارع نظيف، رصيف كنسته الريح، وهي واقفة على مدخل بيت من الطوب الأحمر، والضوء الناعم القادم من حجرة المعيشة ينير مدخل البيت، ملقيا ظلالات على جدران الردهة. يراها وهي تلوح لآخرين، لأطفالها الآخرين، داعية إياهم إلى الدخول، إلى الأمان.

في الصباح التالي دق لطفي مرة أخرى على باب تامر. قال لطفي: «Rise and shine»، وهي عبارة لم يفهما تامر.

«لسه بالبيجاما! لسه!» زعق عندما فتح تامر الباب. «لا. لا. لن يجدي هذا إطلاقا. نحن لسنا بتوقيت مصر الناعس! هذه أمريكا!»

أجابه تامر: «لحظة واحدة يا عمي. أنا آسف جدا!»

«Rise and Shine!» زعق لطفي مرة أخرى.

حلق تامر ذقنه وأخذ دشا ورش على وجهه كولونيا ثلاث خمسات المصرية التي كان يشتريها دائما من محل زكريا على الناصية غير بعيد عن بيته في شارع بورسعيد. وغير ملبسه ليرتدي البنطلون الجينز المقطع الذي اشتراه من مول سان استيفانو جراند بلازا في الإسكندرية، والقميص السماوي طويل الكمين من كارفور على ضواحي المدينة.

«هذا أفضل..» قال لطفي وهو يتقحصه في الردهة. «لدينا يوم كبير. يجب أن ترى بوسطن قبل أن ترحل. وإلا لن يسامحني أبوك أبدا.»

قال تامر: «هذا ليس ضروريا يا عمي. أنا أكثر من سعيد بقضاء الأيام القليلة القادمة هنا. معك ومع طنط.»

لم تكن طنط ظاهرة في أي مكان.

هتف لطفي: «آه من فضلك! هل أنت مدرك إلى أين أنت ذاهب؟ إنهم يشنقون الناس الذين يحملون اسمك هناك.» وتوقف ليرى التعبير الذي ارتسم على وجه تامر. «أنا أبالغ. قليلا. بالإضافة إلى ذلك، يمكنني على الأقل أن أريك بعض التاريخ الأمريكي المحلي. وبالمناسبة، هل لديك أي زجاجات إضافية من كولونيا ثلاث خمسات؟ لقد افتقدت هذه الرائحة كثيرا!»

كان العم لطفي ممتلئًا بالطاقة والإثارة في رحلتها بالسيارة. «بامبلا ليست على ما يرام اليوم، لكن نادية ستقابلنا في ساحة هارفارد - أرادت أن تكون سيارتها في متناولها. سنتناول الإفطار هناك، ثم نتجول قليلاً، وبعد ذلك نذهب إلى سوق فانيل هول ونتجول هناك، بعدها نتناول الغداء، ثم سنرى إلى أين نذهب غير ذلك!»

«أشكرك يا عمي..» قال تامر. «أنا آسف لمرض طنط. كل تمنياتي الخالصة بشفائها.»

«لا شيء خطير يا فتى. لا شيء خطير على الإطلاق. لكن من الطيب جداً أن أراك يا بني! كم أفتقد أباك العزيز. أبوك العزيز، الغالي!» قال لطفي وهما ينعطفان مغادرين طريق ترابيلو إلى شارع ميل ستريت.

قابلتهما نادية عند (مقهى الجزائر) لتناول القهوة العربية والكرواسون. تابعها لطفي وتامر وهي تعبر شارع براتل نحوهما. كانت ترتدي ثوبا صيفيا قصيرا، لونه بني وبه نقوش من الورد الصفراء، ساقاها شاحبتان في ضوء النهار، وقدها عاريتان في صندل بشرائط جلدية تقاطعت فوق قصبتي ساقها. أشاح بعينيه خوفاً من أن يلاحظ لطفي نظرتة الفاحصة. كان هواء الصباح دافئاً، وثمة ضباب خفيف يخيم على الساحة، وعلى الرصيف الخارجي سرب من الحمام.

انزلت نادية في مقعد إلى جوار تامر، في مواجهة أبيها.

قالت: «صباح الخير يا سادة. إذاً يا تامر - هل هناك أي شيء يشبه هذا هناك في الوطن؟»

«لا تكوني سخيصة يا نادية.» هتف لطفي.

هزت نادية كتفيها وقالت: «لم أذهب إلى هناك قط..»

قال تامر بضحكة مكتومة: «الكثير من المقاهي. لكن هذا..» وأشار بذراعيه في اتجاه الشارع. «لا. كل هذا يبدو مختلفاً جداً. أحدث. أنضر. أنظف.»

قال لطفي: «حسنٌ، بوسطن في مثل عمرنا تقريباً. ثلاثة آلاف عام في مواجهة بضع مئات.»

أشارت نادية: «يقول أبي إنك ستستقل الحافلة إلى أوكلاهوما. هذا غريب بعض الشيء، ألا تعتقد ذلك؟ توجد مطارات في أوكلاهوما.»

«إنها فرصة لمشاهدة البلد يا نادية..» قال لطفي موبخاً.

«نعم..» قال تامر. «جاءتني هذه الفكرة وأنا هناك في الإسكندرية. إنها فرصة. قبل أن تبدأ الدراسة.»

قالت نادية: «سترى البلد بالفعل. حظ طيب في هذا.»

«أنا لا أرى مشكلة يا نادية..» رد عليها لطفي بحسم.

«لا مشاكل - مجرد شاب عربي في نيف وعشرين من عمره في حافلة عبر قلب أمريكا، يستمتع بوقته مع الدهماء. لا مشاكل على الإطلاق.»

«الدهماء؟» كرر تامر مترددا.

«هذا ليس دقيقا ولا لطيفا يا نادية..» قال لطفي موبخا والتفت إلى تامر. «إنها بلد جميلة وناس لطفاء وطيبون جدا في كل مكان.»

هزت نادية كتفها، ومدت يدها وقطعت لقمة من كرواسون تامر وألقت بها في فمها. «هل يمكنني على الأقل أن أحصل على بعض القهوة؟» قالتها بفم ممتلئ.

بعد الإفطار تمشوا في أرجاء ساحة هارفارد، مروراً بمتاجر الكتب والبارات والمطاعم ودور السينما. كان هناك كثير من الناس في الخارج، لكن بالنسبة لتامر بدا المكان نصف مهجور. لا شيء يقارن بالأرصعة والأزقة التي غادرها من قريب. غاب النفير الدائم لأبواق السيارات، والخليط الملتاث من الإنسان والحيوان من المطالبين بالحق في الأسفلت المضعضع والأرصعة المهترئة. هنا يبدو كل شيء في مكانه. ثمة شعور بالنظام والترتيب وجده محببا وفي نفس الوقت مخدرا بشكل غريب.

كان لطفي متلهفا لأن يريه جامعة هارفارد. «أشهر جامعة في أمريكا. الأشهر!»

دخلوا حديقة هارفارد يارد وألقت نادية بنفسها على أقرب دكة خارج مبنى من الطوب الأحمر المزخرف، يطل على مساحة ممتدة من العشب الأخضر.

«أشهر دكة جامعة..» قالت ساخرة من أبيها. «وفي هذه الناحية أشهر كلية للقانون..» قالت وهي تشير شمالا. «وبعدها بقليل أشهر متحف جامعي.»

كتم تامر ضحكته. وتطلع إلى نادية متواطئا.

قال لطفي: «نادية، أنت تسخفين من نفسك..»

فردت عليه: «بحق الله سيذهب هذا الفتى إلى هارفارد السهول² بحالها!»

مر أمامهم زوج من الشباب. ارتدت الفتاة شورتا أبيض وصديرية صفراء. أما الفتى فكان يرتدي بنظالا لونه بيج وقميصا أزرق بكمين طويلين. كان كلاهما يحمل حقيبة ظهر مكتوب عليها «هارفارد». ابتسمت الفتاة ولوحت لهم في مرورها مع الشاب.

«يا للجمال!» قالت نادية. ابتسمت ابتسامة مشرقة ولوحت لهما بدورها. ثم هتقت نحوهما مشيرة إلى نفسها: «كلية بانكر هيل المحلية..»

بدأت الفتاة متحيرة للحظة قبل أن تسرع في سيرها مع زميلها.

انفجر تامر ضاحكا.

نهض لطفي بصعوبة من فوق الدكة وقال: «ينبغي أن ننطلق..»

كانت محطتهما التالية (بيت بول ريفير)⁸، بواجهته الرمداء التي تعطيه مظهرا كئيبا على نحو فريد.

كان لطفي قد حكى له قصة ريفير، ورحلته على ظهر الحصان إلى مدينة ليكسينجتون ليحذر صامويل آدمز وجون هانكوك.

لم تكن لدى تامر إلا معرفة أولية جدا بالتاريخ الاستعماري الأمريكي، لكنه أنصت عن عمد إلى رواية لطفي التاريخية المنشطية باهتمام مبالغ فيه.

قالت نادية: «لقد سقط من فوق حصانه مرتين..»

«لم يسقط من فوق حصانه يا نادية..» قاطعها لطفي بحدة.

هزت نادية كتفيها وردت بحسم: «سام آدم الآن اسم بييرة، وجون هانكوك شركة تأمين على الحياة.»

قال تامر: «لقد أبلوا بلاء حسنا في الحفاظ على البيت..»

قال لطفي متأملاً: «إنه ليس بالأهرامات يا ولدي. ليس بالأهرامات إلى شوط بعيد.»

قالت نادية: «لكن ماذا عن بضع آلاف من السنين..»

«لكن من الطيب ذلك الاهتمام الذي أولوه إياه. الاهتمام حتى بهذا. في مصر يُترك الكثير من التاريخ ليتداعى. ليختفي..» قال تامر.

كان لطفي عازماً أن يري تامر أكبر قدر ممكن من بوسطن في يوم واحد. معلم بانكر هيل الأثري، وكنيسة أولد نورث، وموقع مذبحه بوسطن في شارع ستيت ستريت أمام مجلس الولاية القديم.

أطرق تامر محققاً في دائرة الحصى التي كانت علامة على الموقع وسأل: «كم قُتل من الناس؟»

بدا لطفي غير متأكد، وقال: «مئات على ما أعتقد. قتل البريطانيون المئات.»

«في الحقيقة خمسة..» قالت نادية وهي ترفع يداً مفتوحة. كانت تقرأ من نشرة التقطتها من خارج مجلس الولاية.

قال لطفي: «المذبحه مذبحه في النهاية..»

قرب العصر، بدت السماء زرقاء شفافة، وسرى في الجو قليل من البرودة، وقال لطفي: «ينبغي أن أتصل ببيامبلا وأرى ما هي خططنا للعشاء.»

تدخلت نادية: «سأخذ تامر إلى العشاء الليلة. استمتعا أنت وماما بوقتكما.»

اختارت نادية مطعماً مكسيكياً على رصيف رويوز وورف يطل على ميناء بوسطن. وقالت: «رخيص. طعام معقول. والأهم - لو تعبنا من الحديث معنا يمكننا التحديق في الماء.»

تقاوضت مع المضيضة على مائدة صغيرة في الركن قرب النافذة بدلاً من المائدة المقترحة بين المقاعد. سار تامر خلف نادية واستقر على مقعده في مواجهتها. في الخارج كانت هناك مساحة للجلوس، خالية وفي شبه عتمة، والمظلات المثبتة مغلقة. خلف هذا تماماً كانت هناك لمحة من حافة

الماء عند الطرف القصي من رصيف الميناء.

“أتشرب؟” وجهت نادية سؤالها لتامر بعد أن ألقت لهما النادلة بقائمتي الطعام - وهما ورقتان مزدوجتان مغلفتان، ولزجتان قليلا.

هز تامر كتفيه. كان والده يفضل السكوتش المشتري من منطقة الأسواق الحرة في مطار الإسكندرية. كان خالد يشرب من حين لآخر، وزادت وتيرة شربه في العام الأول أو العامين الأولين من بعد رحيل والدة تامر.

“زجاجتان من بيرة كورونا..” قالت نادية للنادلة عند عودتها. “أيضا، جواك وصلصة وشيبسي..” وتطلعت إلى تامر: “أنت تحب الجواكامولي، صحيح؟”

تردد تامر قبل أن يقول: «نعم..»

“هل يمكن أن أرى بطاقتك الشخصية يا آنسة؟” قالت النادلة لنادية. كانت امرأة في منتصف عمرها ذات شعر أسود هائش ومربوط في كعكة سائبة. ربتت بيدها على مقدمة زيها الموحد البني وهي تنتظر نادية التي كانت تبحث في محفظتها عن رخصة قيادتها.

ناولتها نادية البطاقة. تطلعت المرأة إليها لحظة ثم إلى نادية، وبعد ذلك أعادتها إليها.

“ما هذا؟” تساءل تامر بعد أن غادرت النادلة.

“بطاقة مزورة..” قالت نادية، وهي تحك الجلد المحيط بقرط أنفها. “أنا أصغر من 21 ببضع شهور..” وتوقفت قليلا، ثم أضافت من باب التفسير: “يجب أن تكون في الحادية والعشرين من عمرك هنا لمجرد أن تطلب زجاجة بيرة حقيرة!”

أوما تامر برأسه: «والشي الآخر. هذا الجواك؟»

“الجواكامولي؟” وبدأت نادية في الضحك. “أفوكادو. إنه فاكهة. ستعجبك.”

وأعجبته. وكذلك الصلصة والشيبسي، والتشيميتشانجا² التي طلبتها له.

قال تامر: «والتاك.. متدينة إلى حد كبير. لقد دُهشت قليلا.»

دارت نادية بحدقتيها، وقالت: «هي ابنة قس لوثري للعجب!! تخيل! تتزوج عربيا مسلما. تُغضب أمها وأباها، رغم أن الرجل الذي تزوجته علماني بقدر ما يمكنك أن تتخيل. ثم تأتي أحداث 9/11 وكل ما حدث من وقتها. وكأنه شيء يجب إثباته لكليهما. حسنٌ، على الأقل لها. بابا يسير في الحياة خاليا من الشعور بالذنب.»

لعبت نادية بملعقتها في طبقها من سلطة التاكو. «والتاك.» قالت وهي تتطلع إلى تامر. «سمعت أنها هربت منذ سنوات مع أستاذ أمريكي ما.»

“من أخبرك بهذا؟” تساءل تامر.

“بابا. لم يعرف أكثر من هذا..” هزت كتفها. “هل هذا صحيح؟”

أوما تامر برأسه وقال: «نعم، هذا صحيح. كنت في العاشرة عندما رحلت.»

«هل تعرف أين هي؟»

«ليس بالضبط. لا. لم أتحدث إليها من وقتها.»

«ليس بالضبط؟» قالت نادية، وقد رفعت حاجبا.

«ربما. مكان يدعى سان لويس. سمعت أنه كان من سان لويس تلك.»

بدا أن نادية تتفكر في هذا لوهلة. جذبت شعرة شاردة من تلك المصبوغة بالأحمر، ولفتها حول خاتم

عريض، ثم فكتها، مرة بعد مرة. «إممم. ربما ستمر بها تماما في طريقك إلى هيك سنترال.»

«وما هذا؟» تساءل تامر.

«ولا يهملك. كنت أفكر فقط في مسار الحافلة المحتمل.»

لم يقل تامر شيئا. لم يكن متأكدا من مقدار رغبته في مكاشفة نادية وإخبارها كيف كان قد رسم خريطة الرحلة كلها بالفعل، وحفظ في ذاكرته الأسماء وتتابع كل البلدات الواقعة بين سان لويس ونورمان.

«هل تريد أن تراها؟ هل يمكنك حتى أن تتعرف عليها؟» قالت نادية مفتحة أفكاره. بدت نغمة صوتها فجأة أكثر حدة بعض الشيء، وكأن لها حافة قاطعة.

«لا أعرف. أعتقد أنني كنت لأتعرف عليها. لكني لا أعرف إن كنت أريد رؤيتها.» وسكت عن حقيقة أنه حمل نسخة من صورة جواز سفر أمه معه لسنوات. درسها من كل زاوية، وفي كل تنويعات الضوء.

أومأت نادية برأسها. أراحت كوعها على المائدة، واستقرت ذقنها على يديها المضمومتين. «هل تعتقد أنك ستحب المكان هنا يا تامر؟ هل أنت سعيد لأنك أتيت؟»

أجابها تامر: «أعتقد هذا. أعتقد هذا حقا.» وتوقف قليلا. «غير أنني ليلة أمس أصبت بنوبة دعر قصيرة. كان المكان هادئا بشدة. المنطقة. صامتة. وهناك الغابات في الخلف. كان الأمر سخيفا ومر قبل أن أنتبه إليه.»

ذلك المساء كانت هناك طريقة رقيقة على باب حجرة نومه، وبعد ذلك انفتح الباب ببطء عن نادية، وقد ارتسم ظل جسدها في النور المتدفق من الصالة في الخارج.

تطلع إليها تامر في صمت من فراشه فوق الأريكة. كانت ترتدي بنطلون بيجامة خفيفة بنقوش من المربعات، وتيشيرت أحمر على صدره شعار كلية بانكر هيل المحلية مكتوبا بحروف سوداء غامقة.

قالت: «هاي.. مما وصفته اليوم تصورت أنك لن تمنع الصحبة.» وقبل أن يتمكن من الرد أغلقت الباب خلفها، وسقطت الحجرة وسط الظلال.

مال تامر نحو المنضدة المجاورة للفراش كي ينير الأباجورة فوقها، لكن نادية أوقفته. «لا. لا بأس..» قالت. «من الأفضل أنها مظلمة.»

“نادية. أنا آسف. أعتقد أنك أسأت فهمي.” حاول تامر أن ينهض، لكن نادية وضعت يدا على كتفه وبرقة، ودون جهد، أبقتة جالسا.

قالت: «لا أعتقد هذا يا تامر. لا أعتقد أنني أسأت فهم أي شيء.»

زحفت إلى جواره. وضغطت وجهها في وجهه. وأحس تامر بأثر قرط أنفها في وجنته. هب من شعرها شذا الشامبو، وكانت أنفاسها أكثر حدة وجفافا.

“أعرف أنك تريد هذا..” همست في أذنه. “في الثالثة والعشرين من عمرك ولعلك لم تكن قط مع امرأة.”

ظل تامر ساكنا في الفراش.

“أنا على حق، أليس كذلك؟” تهكمت بضحكة رقيقة. “أعرف أنني على حق. الكل هناك صغار أكثر من اللازم وهائجون أكثر من اللازم.”

لم يكن تامر يتابعها بشكل كامل، لكنه لم يجد ما يكفي من الوقت ليتفكر في سؤالها بينما انزلت يدها المنقلة بالأساور فوق بطنه، ثم زحفت أصابعها تحت وسطه وصار في قبضتها الصغيرة المحكمة. شعر بنفسه وهو ينبض في كفها بينما هي تحرك رسغها. دفع رأسه إلى الوراء على الوسادة، وثمة أفكار قلقة عابرة حول أين كان، وماذا يفعل، وكل هذه المعادن التي ترتديها بهذا القرب من لحمه. كان بمقدوره أن يسمع جلجلة أساورها، وهي تغدو أسرع، وأكثر إلحاحا، والضغط يتناوب عليه ثقيلًا وخفيفًا. ثم ارتفعت رأسه مرة أخرى من فوق الوسادة، وانضغطت في تجويف عنق نادية، وسمع نفسه يتأوه طويلا وعاليا وبقوة.

لمست نادية وجنته بشفتيها. ومسحت يدها في بنطلون بيجامتها.

“لقد أيقظت الجميع الآن..” قالت ساخرة. ثم نهضت وسارت إلى الباب. “على الرحب والسعة..” قالت وهي تخطو خارجا.

في الظلام، وحيدا، منهكا، كان بوسع تامر أن يسمع أصواتا في الصالة بالخارج. مكتومة في البداية ثم ارتفعت صائحة. قفز من الفراش وألصق أذنه بالباب. تمكن من تمييز صوت نادية الغاضب الساخر. ثم صوت بامبلا الأكثر انخفاضا، الملح، المستجوب، وأخيرا نادى زوجها، وتبع هذا انصفاق باب أبعد هناك في الصالة. ثم خيم الصمت على البيت.

ظل تامر قرب الباب لما بدا وكأنه أبد، متوقعا أن ينفث منقجرا في أي لحظة. كان قلبه يدق بجنون، مسببا الألم في صدره. شعر بالغثيان من الخوف والذنب. وأخيرا سقط من جديد على الأريكة وحاول أن يهدئ الأفكار المعذبة المتسارعة في عقله. سيرحل غدا. نعم. سيكون هذا هو الحل الأفضل. لن يكون هناك جدال من العم لظفي وبالتأكيد ليس من جانب طنط بامبلا. لقد جلب العار إلى بيتهما وأسرتهم، لكنهم سيتركون جميعا كل شيء مسكوتا عنه فيما بينهم، وسيركب الحافلة ويتوجه غربا.

جذب الأغطية فوق رأسه وأجبر عينيه على الانغلاق.

نام تامر قليلا، واستيقظ قبل انبلاج الفجر، سحب حقيبة سفره إلى البهو الأمامي ثم جلس إلى مائدة المطبخ. كان البيت ساكنا. لم تكن لديه أي خطة غير أن يجلس حيث كان إلى أن يستيقظ أحدهم ويطلب منه أن يتصل له بسيارة أجرة تقله إلى موقف الأوتوبيس. كان لديه ما يكفي من المال، وسيصرف في طريقة لتعديل موعد تذكركه، وسيدفع أي تعويض إن كان هناك. وربما لا. ربما ليس الأمر مثل تذاكر الطيران. ربما يمكنه فقط أن يغير تاريخ الرحيل دون أي متاعب. لم يكن مهتما في الحقيقة، كان يعلم أنه يركز فقط على المشاكل التي يمكنه حلها لئلا يبقى الأفكار الأخرى محاصرة.

دخل العم لطفي المطبخ متعثرا بعد لحظات قليلة. بدا متفاجئا من رؤية تامر هناك. كان ما زال في منامته، المخططة بالأبيض والأسود مثل زي السجن، وشعره الذي يكسو نصف رأسه مائل إلى جانب واحد، والبقعة الصلعاء تومض في نور المطبخ.

قال: «سمعت شيئا..» وأشاح بنظره بعيدا عن تامر، وسار نحو الحوض مطلا فيه بلا هدف، وظهره إلى تامر.

“سأرحل يا عمي.” قال تامر.

“نعم. سيكون هذا أفضل..” قال بجمود. “بامبلا..”

“لا بأس يا عمي. سأرحل.”

خبط لطفي براحته على النضد الجرانيتي في صفة مدوية جعلت تامر يقفز.

“Bloody Hell!” هتف لطفي بلكنة بريطانية متكلفة بدت خرقاء تماما مثل طريقة نطقه الأمريكية الأولى. التفت ليواجه تامر، الذي كان بوسعه رؤية الرجل العجوز على وشك البكاء.

“فقط اتصل لي بتاكسي يا عمي..” قال تامر.

“سأفلك إلى محطة الأوتوبيس اللعينة..” أعلنت نادبة، وهي تدخل عليهما. كانت ترتدي بنطالا من الجينز وتيشيرت، وشعرها -البنّي والأحمر والأخضر- مشدود إلى الورا ليكشف جبهتها. “فلنخرج من هنا.”

نهض تامر. فكر في معانقة عمه، لكنه بدلا من ذلك تبع نادبة خارجا من الباب الأمامي. نظر خلفه إلى بيت عمه المشيد على طراز «كيب كود» لمرّة أخيرة بينما كانت نادبة تُخرج سيارتها الفورد فيبيستا الحمراء من الممر الخاص بالسيارات والمؤدي إلى البيت، وظن أنه رأى حركة واهية لستار وراة نافذة أمامية، ولمحة من وجه بامبلا المستدير يطل لثانية فقط، ثم يختفي.

كانت رحلة قصيرة سلسلة إلى بوسطن في صباح يوم أحد مبكر. صفت نادبة السيارة في معبر

أتلانتيك آفينيو خارج محطة الحافلات، وخرجت معه من السيارة بينما كان يُنزل حقيبتيّ سفره من صندوق السيارة، وبعد ذلك تبعته إلى المحطة.

قالت له نادية بابتسامة عابثة: «ثايا كون ديوس¹⁰..» كانت تقف عند مدخل محطة الأوتوبيس. وظهرها لخط أفق المدينة بمبانيها العالية، والهواء معدني وبارد. والنور المتكسر ظل مجروح من الزرقة.

قال تامر: «ماذا يعني هذا؟»

هزت نادية كتفيها. بدت ضئيلة في النور الهزيل، وبشعرها المخطط وثقوب أقرط وجهها كانت أشبه بثائرة مجنونة في مواجهة طغيان الحديد الصلب والزجاج خلفها. «شيء أنا متأكدة أن والديّ، أمي تحديداً، كانا ليقولاه لو أنهما يتحدثان الإسبانية. ومع ذلك فأنا أحب وقعها. هي نوع من الوداع مع الإشارة حتى إلى الرب. لكنك بالتأكيد ستقابل من هذا الكثير حيث أنت ذاهب.»

أوماً تامر، متردداً. «أنا آسف يا نادية..» بدأ يتكلم، لكنها خطت نحوه، ورفعت يدها كما لو كانت ستصفعه، ثم قبضت على قفاه وجذبت وجهه إلى الأمام نحو وجهها. انزلق لسانها داخل فمه. استقر هناك للحظة عند سقف فمه مثل شيء أفعواني وبارد ومتوانٍ قبل أن ينسحب.

“عندما تصل إلى سان لويس، استمر فقط في طريقك.” هزت كتفيها وأضافت: “هذا هو رأيي البسيط.”

ثم رحلت.

نعود إلى الحافلة في جوبلين، حيث ناول تامر كوب الكوكا للرجل وباقي نقوده.

“أشكرك يا بني..” قال الرجل. “جزيل الشكر والتقدير. اسمي جال-ثين.” ثم أمال رأسه: “واسمك؟” لوح تامر، وابتسم وانزلق عائداً إلى مقعده، محاولاً أن يخفي ضيقه.

أمل تامر ألا يزعجه جال-ثين، أي كان، بقية الرحلة. ستكون لديه بضع ساعات من الاستراحة في مدينة تلسا قبل أن يستقل توصيلة إلى نورمان. تساءل بينه وبين نفسه إن كان هذا الرجل سيهبط في تلسا أيضاً. في الضوء الأصفر داخل الحافلة، قدّر تامر أنه في الأربعينات من عمره، وثمة قبعة بيبسول بيضاء مبقعة مكتوبة على مقدمتها حروف كلمة Cononco بلون أزرق، تستقر فوق وجهه مدبوغ لوحته الشمس، تبهت سمرته فجأة عند تقاحة آدم بارزة بشكل عجيب.

مال تامر برأسه إلى الوراء وأراح عينيه. كانت نوبات القلق التي عانى منها في بيت العم لطفي في أشد حالات حدتها بينما كان الضوء يخبو، والحافلة تشق طرقاً سريعة مظلمة، والأنوار المتناثرة للسيارات المارة أشبه بمجموعات من النجوم في فضاء يبعث على الدوار. وعبر التلال المتدرجة لأوهايو وإنديانا، التي تشق الأراضي المنبسطة لجنوبي إلينوي المعروفة باسم (لينل إيجيبيت)، شاهد

الليل المخيم وهو يجمع ثم يخفي في النهاية منظرًا طبيعيًا فسيحًا وجبارًا. مع الاتجاه غربًا، رأى كثافة العالم بادية في التغيير؛ الفضاء بين المدن والبلدات والقرى الصغيرة ينمو ويمتد كأنه شيء محروم تمامًا من المكان والإنسان.

قرأ اللوحات الإعلانية بامتداد الطريق السريع، التي تعلن عن الطعام والشراب، والملابس والعربات. وبعد ذلك عند نقطة معينة في الجغرافيا المتقلبة، وكأنها تصعد من النسيج الخلاقي للأرض، لتنادي على بضاعتها: الرب والمسيح. تقول واحدة: يسوع هو الحافظ. وتقول أخرى: لم يفت الأوان. (تُب وستجو). (المسيح هو الحل). (يسوع هو السيد). (الجحيم حق).

عشوائيتها، ومنظرها الملبط والغريب، جعلتا تامر يتذكر أذان الصلاة في الإسكندرية. كيف لخمس مرات يوميًا يمكن لأي شخص أن يكون مؤذنًا. وما كان ذات يوم نداء وحيدًا للمؤمنين من مسجد مركزي، غدا الآن نشازًا يصم الأذان من مكبرات صوت على أسطح العمارات. أصوات تجارٍ في الهواء شديد الحرارة، متنافسة فيما يبدو بحثًا عن الخلاص. أو الغلبة.

نزل في محطة الأوتوبيس في سان لويس. كان قد تخيل أنه سيمر بهذا المكان كما مر بأمكان أخرى كثيرة دونما شيء أكثر من لمحة عابرة للمدينة. مجرد امتداد غير متميز من الخرسانة والمعدن، من الكباري والطرق السريعة. تكسد لحظي سرعان ما يبتلعه حتماً الفضاء الغالب.

سألوح من النافذة. سألوح لها وأنا أعبر. سأعرف إن كانت هنا. سأحس بها إلى جوارِي. وسيكون هذا إحساسًا طيبًا بما فيه الكفاية.

في المحطة، فكر في الاتصال بناادية، فكر في الاتصال بهاتف بيت عمه مع الاحتمال البعيد بأن ترفع نادية السماعة. سيقول لها: أنا هنا. سأمر مرور الكرام كما اقترحت. لكنه بدلًا من ذلك غير خطئه واختار التوقف لوقت أطول. أعجبه المحطة - (بوابة مركز مواصلات سان لويس). نقطة التقاء لحركة كبيرة جدا - قطارات وحافلات وسكة نقل خفيف؛ نهر من الناس كلهم في مكان واحد. راحة الأصوات والضوء والنشاط. أراد أن يجلس في مكان ثابت ويستوعب الأمر. وبالرغم من أنفه بدأ يتخيل زينب، أمه، هنا. ربما في طريقها إلى مكان آخر، أو منتظرة لاستقبال زوجها البروفيسور الأمريكي في عودته من رحلة ما. كانت متوسطة الطول، ذات شعر بني طويل يتذكر أنها كانت تلمه في كعكة عندما تدخل المطبخ في الصباح مرتدية الروب، وفي غير ذلك كانت تفرده. أظافرها ملونة دائما بامتياز. بشرة زيتونية. وحمرة بلون القهوة بالحليب في صدغها الأيسر، كانت تحاول إخفاءها بشعرها. أنفها أعرض من اللازم قليلا وبارزة بالنسبة لعظام وجنتيها العالية، وبالنسبة للنحت الرقيق لفكها وشفتيها، لكن كم كان تذكره لها طيبًا على نحو غريب - مقدمة، مندفعة، سريعة الغضب.

تخيل أنه لمحها، جسد وحيد يخرج من وسط الزحام، يضيئه للحظة شعاع من نور الشمس مال هابطًا من النوافذ العالية للمحطة، كما لو أنه يوميًا إليه في لحظة نبوية مرتبكة. وهرع في أثر الجسد بينما يخطو عبر الأبواب الزجاجية الأوتوماتيكية خارجًا من المحطة. وقف يرمش في ضوء الشمس الساطع، متطلعًا إلى المعبر فوق الشارع الخامس عشر، حيث تتعطف المرأة الآن عند الناصية، ناظرة خلفها إليه في توتر، وهو يشيح بناظريه بعيدًا عنها، شاعرًا بانكشاف حماقته.

عاد إلى داخل المحطة، منتظرًا توصيلته، وجلس يشاهد قناة إخبارية في شاشة كبيرة في صالة

الانتظار. كان الصوت مكتوماً، لكنه تمكن من قراءة شريط الأخبار، وتعرف على المشاهد التي قطعت نصف الطريق حول العالم، تدفق اللاجئين في منطقة حرب عربية أخرى، المعلقين وهم يناقشون داعش، والإرهاب، والمزيد من اللاجئين وسط أطلال مدينة، رجل يجثو في امتداد صحراوي قاحل مرتدياً بذلة برتقالية، النتيجة النهائية لمباراة ببسبول تمر سريعاً أسفله.

عندما وصلت حافلته أخيراً، كان تامر الأول في الطابور.

كانت الساعة قد تجاوزت بالكاد السادسة صباحاً عندما دخلت الحافلة إلى محطة تلسا، وهي بناء مذكوك أبيض وأزرق يبدو وكأنه كان محطة خدمات ذات يوم. نزل تامر، وانتظر في طابور نزول حقيبته سفره من مقصورة الأمتعة. رفع عينيه ناظراً داخل الحافلة ولاحظ أن جالسين فقط هو من بقي في مقعده. رآه جالسين، وابتسم له ابتسامة ملتوية ورفع إليه إبهاميه. أوماً تامر برأسه إليه إيماءة تحية مقتضبة. ميز حقيبته، ثم خطا مسرعاً إلى المحطة. كانت أمامه ثلاث ساعات أخرى قبل الشوط الأخير من رحلته إلى نورمان.

وبينما كان يصعد المنحدر المائل إلى داخل المحطة، نظر وراءه ورأى سائق الحافلة يساعد جالسين في هبوط الدرجات المنحدرة للحافلة إلى الرصيف الخرساني. ظل السائق أسفل جالسين بدرجة، ماداً يده وممسكاً به من تحت إبطه الأيسر ليثبتته. وعلى الدرجة الأخيرة أحاط بذراعه خصر جالسين في نصف عناق وكأنه يرفعه بعض الشيء فوق البر.

للحظة وقف جالسين غير ثابت على الرصيف، ثم صافح السائق وسار الهوينى بمشية مضطربة منحرفة، حيث يندفع فخذ إلى الأمام وبعده الفخذ الآخر، نحو الحشد الصغير من المسافرين المتجمهرين حول مقصورة الأمتعة. تطلع قليلاً إلى المنحدر ولاحظ تامر وهو يراقبه. توقف فجأة، متأرجحاً على قدميه للحظة ولوح بيده. لوح له تامر بدوره، ثم التقت ومر عبر غيمة من الهوام المحتشدة خارج الباب الزجاجي للمحطة. وجد مقعداً قرب النافذة الأمامية يطل على ضوء النيون الأزرق المرتعش لمتجر سندات كفالة عليه لافتة تقول: لو قاعد الخازوق، اتصل بينا يا ذوق، وخلفه بنايات واطئة بامتداد شارع مظلم ساكن.

بعد قليل رأى جالسين يشق طريقه نحوه، وهو يرفع مع كل خطوة جانباً من جسده ثم الآخر. كان يحمل حقيبته خضراء من قماش واق للمطر فوق أحد كتفيه، ألقى بها بنتأقل عند قدم المنضدة البلاستيكية التي كان تامر يجلس إليها.

“أخيراً هنا!” هتف بصوت عالٍ. “هل تمنع لو انضممت إليك؟”

“لا..” قال تامر بأدب، رغم أنه كان يفضل لو جلس وحده. كانت المحطة الآن مهجورة إلى حد كبير، ولا يوجد أحد حتى وراء نضد التذاكر، وكان هناك الكثير من المقاعد الفارغة في الصالة الصغيرة.

أوماً جالسين برأسه وألقى بجسده في مقعد قبالة تامر. مال المقعد إلى الخلف متقللاً من ثقل جالسين المفاجئ، وللحظة قصيرة ظن تامر أن المقعد سيقع بالجالس عليه. لكنه ثبت في وضعه بعد ذلك، ولوى جالسين فخذه حوله واستقر فيه. خلع قبعته، ومرر يده فوق شعره البني الملبد، ثم أعاد

القبعة مكانها، وابتسم لتامر.

تساءل جالـثين: "إذا إلى أين أنت متوجه يا بني؟"

ولم يكن أمام تامر غير أن يجيب: «نورمان..»

أوما جالـثين شاردا. كانت له عينان زرقاوان صافيتان، أكثر زرقة يمكن لتامر أن يتذكر رؤيتها، وفي تناقض مدهش مع وجهه المدبوغ. «ماذا في نورمان؟»

"الجامعة.. أجابه تامر. "أنا أدرس هناك."

هتف جالـثين: "طيب تخيل! أنا أيضا متوجه إلى جامعة. لكنها هنا. هنا في تلسا. ماذا تدرس يا بني؟"

"هندسة البترول.. " قال تامر.

أوما جالـثين، وهو يحك قفاه. «من أين أنت على أي حال؟ لديك لكنة في كلامك لا يمكنني التعرف عليها؟»

أجابه تامر: «من مصر، أنا هنا للدراسة. للدراسة العليا.»

"مصر!" هتف جالـثين. "يا خبر! لم ألتق قط أحدا من مصر! كيف هذا!"

ضحك تامر ومد يده ليصافح يد جالـثين الممدودة بحماس.

"إذا كيف يسير الأمر؟" قال جالـثين بجدية. «ذات يوم قلت لنفسك فجأة: اللعنة! فلاغير مكاني وأجرب صحبة السونرز¹¹؟»

"كانت فرصة.. أجابه تامر، وهو غير متأكد تماما من فهمه لما يشير إليه جالـثين.

"نعم. أعتقد هذا. ليس لديك عشيرة هنا؟" تساءل جالـثين، وعندما نظر إليه تامر متحيرا أضاف: «أسرة؟»

سكت تامر قليلا. وفي النهاية رد: «لا..»

"حسنٌ، أظن أنني أقوم بالانتقال أنا أيضا. قررت أخيرا أن أنقذ نفسي." قال جالـثين، ثم توقف وتأمل تامر. «أنت مسيحي، صحيح؟»

تذكر تامر العم لطفى ونادية واعتزته موجة من القلق. هز رأسه وقال: «لا.»

"إذا ماذا تكون، إذا لم تمنع في سؤالي؟" قال جالـثين متوجسا.

أجابه تامر: «مسلم.»

هز جالـثين رأسه متعجبا. «حسنٌ، ستحق عليّ اللعنة. لم ألتق قط واحدا من هؤلاء أيضا! لا بد أنها علامة. لا بد أنها علامة من الرب. عرفت بطريقة ما أن مقصودا لنا أن نتواصل في اللحظة التي رأيتك فيها! لا أقصد أن أجعلك تغير دينك. لا شيء من هذا القبيل. فقط متعة التعرف عليك هي كل

شيء. هذا اللقاء.»

لم يقل تامر شيئاً. اعتدل في جلسته. وأشاح بعينه بعيداً عن جالـثين نحو الشارع في الخارج، حيث كان النور الآن يتخلله.

قال جالـثين: «حسنٌ، يمكنك أن تلاحظ أنني كسيح. لكني لم أكن هكذا دائماً، لعلمك. ولن أكون هكذا إلى الأبد كذلك.»

نظر إليه تامر مجدداً بفضول، وحاول ألا يترك الشك يزحف إلى تعبير وجهه.

«كما قلت، أنا هنا لأتخذ نفسي. كي أبرأ. هناك قس مبارك في هذه المنطقة. لديه مدرسة أيضاً. يتكلم الرب من خلاله. يمكن شفاء أي مرض، أي علة، أي داء يصيب الجسد أو الروح. كل ما يتطلبه الأمر هو الإيمان. الإيمان بالرب وبكلمته. المؤمن سيبرأ يا صديقي.» فقد صوته انضباطاً رسمياً معينا بينما يتابع حديثه: «رأيت هذا بعيني هاتين. بعيني هاتين! في التليفزيون.»

وأما تامر برأسه صامتاً، وقد قرر ألا يقول شيئاً، وألقى نظرة سريعة على الساعة فوق الحائط.

«لم أكن دائماً هكذا..» كرر جالـثين. «تهشمت منذ عامين تقريباً. سقطت من فوق جرّاري. دهسني. تهشم كل شيء - الحوض، الساقان، المثانة، وأشياء أخرى لا يمكن الحديث عنها. نقلوني بالطائرة من مدينة ثيلثا، وأجروا لي عمليات كثيرة لا يمكنني حتى أن أبدأ في حكيها لك. أعادوا تجمعي بأفضل ما استطاعوا، بارك الله فيهم. لكنهم تركوني هكذا. نصف رجل.» أطرق جالـثين، وربت على ساقيه - اليسرى أولاً ثم اليمنى. «لم أكن بخير لوقت طويل. لم يكن رأسي بخير. تعرف ما أقصد يا بني. فقدت كل شيء. زوجتي. أسرتي.»

قال تامر: «أنا آسف حقاً لسماع هذا يا جالـثين..» وكان بالفعل آسفاً من أجل هذا الرجل المكسور الجالس قبالة.

«شكراً يا بني..» قال جالـثين بابتسامة شاكرة. «أضعت طريقي لفترة. أضعت الرب. لكن الرب لم يضيعني. لا يا سيدي. والآن عدت. عدت إلى أحضانه. أشعر بحبه أقرب إليّ مما كان أبداً من قبل. والآن أجيء بقلب مفتوح وعقل مفتوح وأنا مستعد. أنا مستعد لتلقي بركة اليبدين ولأكون جسداً وروحاً سليمين. لأكون سليماً أخيراً.»

تساءل تامر: «إذاً تلك هي وجهتك؟ أنت ذاهب هكذا إلى هذا المكان وسيقومون بشفائك.»

«هذا صحيح. سأتصل بهم هنا بعد قليل. وأحدد موعداً.»

قال تامر: «موعد؟»

«تمام!» عند هذا دفع جالـثين جسده ناهضاً من مقعده ووقف لحظة، حتى استعاد توازنه. «من الأفضل أن أذهب لأنعش نفسي قليلاً!»

عندما خرج من حمّام المحطة بعد عشرين دقيقة من السلام والهدوء، كان حليق الذقن نظيفاً، وقد ابتل شعره البني المترب ومشطه إلى الورا فوق قمة رأسه الناحلة وانبسبت خطوطه ملتصقة بصدغيه.

كان قد غير قميصه الكاروهات إلى قميص جينز بنفس الزرقة الباهتة لبنطلونه الرانجلرز. وكان قد مسح حذاءه البالي ونظف أعلاه، وإن بقيت فضلات مبتلة متشبثة بحواف النعل. ألقى لتامر بابتسامة كبيرة، وأسقط حقيبته ذات القماش الواقي من المطر على منضدتهما، وشق طريقه مترنحا إلى صف هواتف العملة على جدار المحطة القريب.

أسقط عملة في الشق وراجع قavanaugh ورق جذبها من جيب قميصه، وضغط الأرقام. احتضن السماعة في شق رقبتة، وألقى نظرة وراهه إلى تامر رافعا إبهاميه إلى أعلى.

هتف: «إنه يرن..»

أوما تامر له برأسه: «حسنٌ. هذا حسن.»

«نعم يا مدام!» صاح جالـثين فجأة في السماعة. ثم أدار ظهره لتامر واحدودب ظهره قليلا، ولم يستطع تامر إلا أن يتبين شذرات مما كان يقوله.

«تمام. تمام... أكيد... سأنتظر... أكيد... المكتب ما زال مغلقا... طيب إذا... تمام... سيكون هذا عظيما... بارك الله فيك.»

التفت جالـثين إلى تامر مرة أخرى ووضع يده فوق السماعة. «المكتب ما زال مغلقا لكنها توصلني برقم آخر..» قال لتامر. «سيدة لطيفة جدا ومتعاونة جدا جدا. حبوبة فعلا.»

وبعد ذلك عاد للانكباب فوق الهاتف زاعقا: «نعم، نعم. أشكرك. خدمة المصلي الأولى. لديّ العنوان. بالتأكيد معي. لم أرفع مؤخرتي البائسة كل الطريق من ثيلـثا، بشمال داكوتا دون عنوان. هاها. تمام. أنا آسف يا مدام. لم أقصد الإساءة. بارك الرب فيك يا مدام. بارك الرب فيك.»

أغلق جالـثين الخط وعاد يجر جر قدميه إلى مقعده عند الطاولة. «حسنٌ، هذا هو الأمر كما أظن. أنا بحاجة لأن أكون هناك قبل الثامنة صباحا. قالت إن محطة أوتوبيس داخلية هناك في آخر الطريق ستأخذني إلى هناك مباشرة.» توقف ونظر حوله في الصالة الخالية.

حاول جالـثين أن يبدو مرحا، لكن كان بوسع تامر أن يحس بأن شيئا ما قد حدث خلال المكالمة.

تساءل تامر: «هل أنت بخير يا جالـثين؟»

أوما جالـثين شاردا إلى نفسه. «نعم، كله تمام.»

ثم قال وكأنه يغير رأيه: «ربما سأذهب فقط لأريح جوفي قبل التوجه خارجا. لا يمكن للمرء توقع ما سيحدث هذه الأيام. راقب أشيائي لو سمحت.» وقبل أن يتمكن تامر من الإجابة كان يرفع جسده نحو الحمّام.

اتكأ تامر بظهره في مقعده وأغلق عينيه. لا بد أنه قد سقط نائما لكنه عندما استيقظ، كانت حقيبته جالـثين بقماشها الواقي من المطر ما زالت على الطاولة، لكن بلا جالـثين. وعندما لم يظهر أيضا بعد عشر دقائق أخرى، نهض تامر وأطل برأسه في الحمّام. كانت مصابيح الفلورسنت تلقي شحوبا أصفر على البلاط الأبيض الملطخ، وعلى اللعة القاتمة للجدران المدهونة بلون الفانيليا.

نادى: «جالثين..» وعندئذ رآه ممددا على الأرض، وظهره مستند إلى الحائط في الطرف القصي من صف الأحواض، وساقاه في وضعهما الملتوي أمامه.

«هل أنت بخير يا جالثين؟ هل سقطت؟»

تمتم جالثين: «لا يا بني..» هز رأسه وتمتم: «ليس هذا النوع من السقوط.»

هرع تامر إلى جانبه وجلس القرفصاء بجواره. تطلع إلى صف المبال في الحائط المقابل، والأرض أسفلهما مبقعة ببرك البول في مراحل مختلفة من التخثر المصفر.

تطلع جالثين إليه، وإن كانت عيناه الزرقاوان الصافيتان أكثر لمعانا، وهما تسبحان تحت طبقة رقيقة من الدموع. أراح رأسه إلى الورا مستندا إلى الحائط.

قال وهو يهز رأسه: «أحيانا.. أحيانا لا يهم كم تحاول أن تصلح الأمر جاهدا، كم تعتقد أنك قريب، فقط لا يمكنك أن تصلح الأمر.»

عندما لم يقل تامر شيئا، تابع: «أتريد أن تعرف ما صنعت؟»

مال تامر برأسه جانبا، بطريقة مبهمة.

قال مع ضحكة سريعة: «حسنٌ، بالتأكيد لا تريد. لكني سأخبرك على أي حال. دخلت على زوجتي لأجدها مع رجل. لم يكن لي أي حق. لم يكن لي أي حق.» سكت قليلا، وتأمل تامر للحظة. «كانت قد تركتني بالفعل، وانتقلت معه في الناحية الأخرى من البلدة. انتظرت عبر الشارع في شاحنتي لساعات. رأيت ابنتي تعود إلى البيت من مكان ما ضاحكة مع صديقة، وبعد ذلك افترقتا، وفتح أحدهم الباب الأمامي ودخلت. اختفت هكذا فقط. وأنا منتظر هناك بينما الشمس تغرب ويهبط المساء، وتضاء كل الأنوار في البيت. وبعد ذلك انتظرت قليلا حتى هدأ كل شيء فعلا. حتى كان كل ما بوسعك أن تسمعه هو نقيق الخنافس وما شابه، وكل ما كان بوسعك أن تراه هو الواجهة المظلمة للبيوت القليلة هناك في ذلك الشارع المترب القديم. عندئذ خرجت من سيارتي ومضيت متعثرا بطريقي الفاشلة، وبأقصى ما يمكنني من هدوء، محاولا ألا أتعث، وأن أصل إلى خلف البيت. وبعد ذلك دخلت. وهناك كنت معهم من جديد. كنا معا جميعا من جديد. أردت أن أقول أنا هنا. إنه أنا. أنا أسف جدا، جدا.»

توقف جالثين، وشهق بحشجة ذات صفير. ثم زفر أنة طويلة مخنوقة.

«كان بمقدوري سماعهما حتى قبل أن أراهما. كان بمقدوري سماع الصوت من الصالة. ولم أفعل إلا أن تتبعت الصوت. غير مبال الآن بكم الضوضاء التي كنت أحدثها، فقط كنت أرفع جسدي وأدفعه عبر تلك الصالة حتى وصلت هناك خارج بابهما، ثم دخلت الحجرة، وعيناوي الآن متكيفتان تماما مع الظلام، وجسدهما لامعان ومكتسيان بالزرقة تماما مع ضوء القمر القادم من النافذة. عثرت يدي على مفتاح النور، وصرخت هي عندما رأنتي. هذه الصرخة الرهيبة. كانت تتطلع من فوق كتفيه إليّ. وعيناها مليئتان بشيء ما. ليست كراهية. ليست تلك. فقط بالرعب. وبشيء آخر. أسوأ من هذا. الاسمئزاز. وكأني وحش مجنون حقيير من الجحيم. الشيطان نفسه. وبعد ذلك قفز من فوقها.»

مسّد جالـثين فخذه الهزيلين بيديه. أطرق برأسه، وهزها إلى الأمام وإلى الخلف. «وهذا أكثر ما أتذكره من كل شيء..» قال جالـثين متأوها. «الطريقة التي قفز بها من فوقها عندما صرخت. الطريقة التي تحرك بها جسده. ويدها ما زالتا متشبثتين بهذين الكتفين القويين. انزلت الملاءة - وساقاه. الشكل الذي كانتا عليه. سميكتان. مفتولتا العضلات. الطريقة التي تماوجت بها العضلات، القوية الشكل تحت الجلد.»

كان ينشج الآن. انفجارات من النشيج والنخر. وهو يضرب ساقيه المهزولتين بقبضتيه ضربات بطيئة ثابتة، وتفاحة آدم الكبيرة ترتعش بجنون تحت جلد رقبته المرتخي.

قال جالـثين متوجعا: «يجب أن أؤمن بشيء. بشيء. لا يمكن أن أقضي أيامي زاحفا هكذا بعد ما ضاع وراح.» تطلع إلى تامر بعينيه المغرورقتين. «لا يمكنك ان تعرف حتى تذهب إلى هناك يا بني.»

«هيا يا جالـثين..» قال تامر أخيرا، وهو يعاونه في النهوض على قدميه.

كان عامل صيانة بزي موحد أزرق يمسح بلاط الصالة. للحظة توقف ورمق تامر و جالـثين وهما يخرجان من الحمّام، ثم عاد إلى مهمته الروتينية.

«يجب أن أذهب..» قال جالـثين بهدوء.

«نعم..» أجابه تامر. وأشار إلى ساعة الحائط. «الساعة تقترب من الثامنة صباحا.» التقط الحقيبة الخضراء ذات القماش الواقي من المطر وساعد في تأمين الحزام فوق كتف جالـثين.

سار معه إلى باب المحطة. وقال: «حظ طيب لك يا جالـثين.»

ضغط جالـثين ضغطة قوية على ذراع تامر. وقال: «وأنت أيضا يا زميلي الحاج..» وهو ما جعل تامر يضحك بصوت عال.

راقب جالـثين وهو يشق طريقه هابطا المنحدر ومنعطفًا حول المبنى الصغير إلى الطريق الرئيسي. جاءت تامر فكرة أن يهتف لجالـثين بكلمات الوداع التي قالتها نادية، الكلمات التي تذكر الرب. لكنه لم يتمكن من تذكرها. وبدلا من ذلك راقب في صمت ذلك الجسد المتهادي المبتعد.

في النهاية استقر تامر من جديد في مقعده البلاستيكي داخل المحطة، وتطلع خارجا إلى الحروف المرسومة على مكتب سندات الكفالة، والضوء الرمادي الآن يُغرق الشارع المهجور. التفت ورمق صف الهواتف وفكر مرة أخرى في الاتصال بنادية. كان ليحكي لها عن سان لويس وعن جالـثين، وكان ليطلب منها أن تتركب حافلة أو طائرة وتلحق به هنا. ويمكن لنادية أن تذكره بتلك العبارة الإسبانية التي تعجبها، وسيجري خارجا من المحطة ويصيح بها لجالـثين مودعا. لكن تامر كان يعرف أنه قبل ذلك سيكون جالـثين قد غاب عن الأنظار، بل سنتلاشى نادية وهو يحاول الوصول إليها.

-
- 1- ماذا يمكنني أن أقدم لك يا عزيزي؟
 - 2- رأس جغرافي يمتد إلى المحيط الأطلسي من الزاوية الجنوبية الشرقية لكتلة اليابس بولاية ماساتشوستس، في شمال شرق الولايات المتحدة. تتميز بطابعها البحري والتاريخي وشواطئها الواسعة وبجذب السياحة الكثيفة خلال أشهر الصيف.
 - 3- متعرقا كخنزير
 - 4- ابق هادئا يا رجل
 - 5- معهد ماساشوستس للتقنية.
 - 6- تعبير ترجمته الحرفية انهض واسطع، لكنه يعني انهض من نومك وابدأ يومك.
 - 7- المقصود هارفارد أو كلاهما التي تعتبر جامعة ريفية مقارنة بهارفارد بوسطن.
 - 8- كان منزل بول ريفير، الذي بُني عام 1680، المقر الاستعماري للوطني الأمريكي بول ريفير خلال فترة الثورة الأمريكية.
 - 9- بوريتو مقلي شائع من المأكولات الأمريكية الجنوبية الغربية.
 - 10- بالإسبانية وتعني حرفيا اذهب مع الله.
 - 11- Sooners لقب لأهل أو كلاهما استخدم في البداية للإشارة إلى المستوطنين الذين قدموا إلى المنطقة قبل فتحها رسميا للاستيطان.

كل الأطلال عند لبدة الكبرى

كان سامي قد سمع الضجة. «إنه عمو أيمن..» صاح وهو يندفع هابطا السلالم من حجرته. كان ما زال في نصف طقمه الرياضي الخاص بدوري الدرجة الثالثة لكرة القدم، فردة من الحذاء غائبة، والأخرى تدلت أربطتها. ألقى بنفسه على أيمن ولف ذراعيه وساقيه حوله. تبخر خجله المعتاد مع الإثارة التي صاحبت زيارة عمه المفاجئة.

“رجلي الصغير..” تتمم أيمن، وهو يضغط بوجهه على وجه سامي. للحظة كان الاثنان مشتبكين معا وهما يهتزان إلى الخلف وإلى الأمام.

اندفعت ثريا هابطة الدرجات الأمامية، والفتان القطني الذي ترتديه مشدود على فخذيها في هبة نسيم مفاجئة. رفع أيمن إليها سامي، وتعانق ثلاثتهم وتضاحكوا في وقفنهم متلاصقين.

“سأهبط فوراً..” هتفت من حيث كنت أقف في شرفة الطابق الثاني. لكني لم أتحرك. كان وقت الغسق وكانت الشمس قد غربت وصبغت الماء بلون الدم. لوح أيمن بيده متطلعا إليّ بوجه باسم. أخي الأوحى والوحيد، أخيراً عاد من جديد.

تركت ثريا أخي في ممر السيارات بالخارج مع ولدنا. واندفعت إلى داخل البيت، وكعبا حذائها يقطعان بسرعة على الأرضية الرخامية. «اسحب الستائر يا ماهر..» قالت عندما ظهرت في حجرة الطعام.

شددت الحبل المزين بالشراشيب، ليكشف عن الامتداد الأليف للنوافذ الفرنسية، وفيما وراء ذلك بدا خط الأفق الواطئ لمدينة طرابلس بجاراتها الجيرية ومآذنها، وهي تتوارى في عتمة المساء.

“أيمن..” خاطبته ثريا وهو يدخل البيت. “ما رأيك؟ أما زلت تحبها؟”

“لقد افقدتها..” قال أيمن وهو يسقط حقيبة سفره في الصالة الملحقة، واقفا ويداه في خصره متأملا بإعجاب المنظر من الحجرة. “تستمر رؤية أمك في العيش..» بدا مسترخيا، أنيقا في بنطاله الأسود ذي الكسرات وقميصه الأبيض المنشى، وقد طوي كميته حتى منتصف ذراعيه. توجهت نحوه وتعانقنا لوقت طويل. ظل سامي قريبا، محققا ومتطلعا إلى عمه.

هزت ثريا رأسها ببطء. كان البيت ميراث زوجتي. سقوفه المقببة، وحجرات نوم ضيوفه، وشرفته الكبيرة المواجهة للساحل، تخيلتها أمها المرحومة من أجل حياة اجتماعية مغتربة توقفت عن الوجود. اختارت فرانشيلينا موقع البيت مطلا على ساحل البحر الأبيض المتوسط بالمدينة، وأقنعت والد ثريا (وهو مثل أبي عربي من طرابلس) باستيراد الرخام من إيطاليا موطنها. تلك البرودة في الصيف، والقشعريرة والرطوبة حتى في أكثر الشتاءات لطفا، جعلوا البيت وقاعاته الرخامية أشبه بقصر من الثلج.

قالت ثريا بأسى: «ربما علفت أمانا كلتاهما في هذه الصحراء، لكن ميلانو.. سان فرانسيسكو.. هاتان

المدينتان كانتا في دمائهما.» أبقت نفسها على مقربة، وجسدها المؤطر بالزجاج المعتم بدا عالما نائيا عني.

«لقد رحلوا جميعا الآن يا ثريا..» قال أيمن برقة.

كانت أمنا أمريكية. وكانت العائلتان مقربتين منذ كنا أطفالا. قلت بحدة: «كانت أُمي سعيدة هنا..»

غيرت الموضوع واقترحت أن نأكل كالعادة في المطبخ. كان اكتنازه ورائحة الكمون والكزبرة الدائمة فيه مصدرا للراحة، كما أنه كان بمثابة تذكير بالبيت الأصغر الذي شببنا فيه أنا وأخي، والذي كنا قد بعناه منذ وقت طويل للمساعدة في إبقاء شركتنا طافية على وجه الماء.

قالت ثريا: «أه يا ماهر! لم نر أيمن لأكثر من عام. فلنقم بشيء خاص لمرة واحدة.»

«نعم يا ماهر. شيء واحد لطيف من أجل أخيك!» قالها أيمن بتوسل هزلي.

ونادت ثريا على سامي كي يغتسل من أجل العشاء.

«بابا، من فضلك دعنا نبقى ماما سعيدة الليلة!» هتف سامي وهو يشد كُمِّي.

ضحك أيمن وأحاط بذراعه سامي: «من الأفضل أن أذهب وأغتسل أنا أيضا يا سامي قبل أن نتبرأ أمك منا جميعا.»

في المطبخ قمت بتقطيع النسخة المحلية البائسة من الخبز الفرنسي والذي نأتي به من المخبز القريب في الطريق، بينما كانت ثريا تتحرك بخفة بين المطبخ وحجرة الطعام. وضعت أفضل أطباقنا الفضية وعليه الدجاجة خفيفة الشواء التي خططنا لأكلها. كان البخار ما زال يتصاعد منها منذ خرجت من الفرن، وبدأت شديدة الفخامة على فرشتها من البطاطس والبقدونس. أيضا كانت التبولة والحمص مغروفين في أفضل أطقم الصيني الخاصة بأماها، وثمة سلطانية خزفية مملوءة حتى حافتها بخليط منقوع في زيت الزيتون - خيار وبصل وزيتون وجبن ماعز مفتت ورشة من نبات القبار.

«كالأيام الخوالي..» قلت، ونكهات الطعام الذي أعدته تملأ حواسي. تتبعت ثريا إلى داخل حجرة الطعام وحاولت أن أتصور ترتيبا للجلوس لا يشملني وحيدا على رأس مائدة الطعام الضخمة فارضا سلطتي على مساحة من خشب الساج.

«الأيام الخوالي..» تمتمت ثريا. تناولت الأطباق من يدي ورتبتها جميعا في عنقود عند الطرف القصي من المائدة والأقرب إلى النافذة.. حل مثالي. «قال إنه كان يتفقد مركز التوزيع في ودان وقرر أن يمر علينا، وهو أمر لا يُعقل كثيرا.»

«على الإطلاق.» لم تكن قرية ودان الصحراوية قريبة منا بأي شكل، وبالكد يمكنها أن تتناسب موضوع المرور على أحد.

هزت ثريا رأسها: «حسنٌ، أيا كان السبب، أنا واثقة أنه سيرحل فجأة كما ظهر.»

قلت: «ينبغي أن يبقى. ينبغي أن يبقى هنا في طرابلس. ينبغي أن يبقى معنا. ألم أخبره أكثر من مرة أنه ليس بحاجة للتحرك قاطعا نصف البلد من أجل العمل؟»

هزت ثريا كتفيها. وأشعلت بضع شمعات في وسط المائدة.

تساءلت: «ألا تفتديه يا ثريا؟ نحن الثلاثة هنا معا؟ أمسيات الصيف البطيئة في الشرفة؟ ساعات من لعب الطاولة؟»

قالت ثريا: «لم أحب الطاولة قط. لكن، من الطيب لسامي أن يرى عمه.»

كان بمقدوري سماعهما هما الاثنتين وهما يتسابقان في الصالة، وأيمن يطارد سامي إلى داخل حجرة الطعام.

على مائدة العشاء، جذب أيمن مقعد سامي ليغدو قربه تماما. كان سامي صبيا جميلا، أدعت ثريا أحقيتها في شعره البني الرملي وعينه الخضراوين، قائلة إنه الجزء الإيطالي فيه. بالطبع، كنت أشعر دائما أنها كانت الجينات الأسكتلندية-الآيرلندية لأمي الأمريكية تلك التي تلعب دورها في ملامحه. كانت هذه السمات قد تجاوزتني تماما، لكن أيمن احتفظ بأكثر من أثر في عينيه البندقيتين وبشرفته الأكثر شحوبا. كان شعره ذهبيا مثل شعر سامي، كثيفا وناعما، يقارب طوله الكتف.

“عمو أيمن..” قال سامي. “هل تعرف كم هدفا أحرزت اليوم؟”

“كم؟”

أمال سامي رأسه قليلا ورفع إصبعين.

“كذاب!” صاح أيمن غير مصدق. “مستحيل! أراهن أنك لا تلعب حتى.”

“اثان، أحرزت هدفين!” صاح سامي منفعلا ونظر إلى أمه وإلى طلبا للدعم.

“لا فعلا، كانا هدفين..” قالت ثريا مقدمة عونها.

“إنه ماهر بالفعل يا أيمن..” قلت متحاشيا الجانب المتعلق بضربة الجزاء الضائعة منه في المباراة السابقة، والتي جعلت سامي يبكي ليوم بأكمله.

منحني سامي ابتسامة قلقة، وغمزت له بطريقة متأمرة. بدا مستريحا وابتسم في وجه أيمن.

“حسنٌ، لم أكن بالغ السوء أنا أيضا!” قال أيمن. “لكن إحراز هدفين هكذا في مباراة واحدة. مستحيل!”

“لقد ورث موهبتي..” قلت نصف مازح.

ألقي أيمن برأسه إلى الوراء وضحك. «بالطبع يا سامي. كان أبوك هائلا. كانوا يُنزلونه الملعب قبل نهاية المباراة بخمس دقائق ويجعلونه يجري حوله قليلا. فقط ما يجعله يُمضي ما يكفي من الوقت

لمنع بابا من الشكوى من جلوسه على الدكة لكونه نصف ابن بلد!»

كانت المدرسة الأمريكية، التي أغلقت منذ زمن طويل، هي مركز حياتنا كأطفال. كان لدينا دوري بيسبول مصغر في عطلات نهاية الأسبوع مع ساندوتشات الهامبرجر وحفلات شواء الهوت دوج، وسهرات راقصة أيضا وحفلات رقص في عيد الحب. كان الإيطاليون وقتها في كل مكان في طرابلس. وكذلك الكنديون والمالطيون، وحتى المجرينيون. كان حي الأندلس بالأخص، حيث نشأنا، خليطا من العائلات الأوروبية والأمريكية العاملة في شركات النفط. لا يعني هذا أننا كنا منسجمين بسلاسة، لكننا بالأحرى كنا أقل شعورا بالوحدة. تغير الزمن، وتقلص هذا المجتمع ببطء. لكني وأيمن كان لدينا مشروع أبي وبقينا.

قالت ثريا: «لدينا رحلة كبيرة مخطط لها في الغد، وسامي بحاجة إلى النوم مبكرا.» نهضت وبدأت تتظف المائدة.

«حقا؟» تساءل أيمن. «أي رحلة؟» تحرك ليساعد ثريا، لكنها أشارت إليه كي يبقى جالسا، كما كان يعرف بالتأكيد أنها ستفعل. تتبععتها عيناه وهي تخرج من الحجرة، وانتظرها حتى عادت.

هتف سامي: «لبدة الكبرى! هناك في الريف! لنرى الأطلال.»

قال أيمن: «لم أذهب إلى هناك منذ سنين. كان هذا مكان جدتك المفضل. هل تعرف هذا؟ أراها جدك صورا لهذه الأطلال وأقنعها ذلك بمغادرة أمريكا والرجوع معه.»

«أتذكر أنها قالت هذا..» قلت. «كانت تحبها. كانت تشعر أنها جزء من ماضيها أيضا.»

مال أيمن نحو ثريا وهمس: «جعل هذا من العيش مع الرجل العجوز أمرا يبدو أكثر رومانسية.»

قلت: «يدرس سامي عنها في المدرسة، لذا فكرنا أن نأخذه إلى هناك ليراها..»

«يدرس، هه؟ لا بأس إذا. من بناها؟» تساءل أيمن.

أجابه سامي بسرعة: «الإمبراطور الروماني لوسيوس سيثيروس..»

«أين وُلد وماذا كان لقبه؟»

«وُلد هنا في ليبيا وكان يُدعى الإفريقي العبوس!»

أوما أيمن برأسه، معجبا. «وما هي بعض الأشياء الشهيرة التي يمكن رؤيتها هناك؟»

«هناك قنطرة هائلة وحمامات رومانية قديمة وستاد عملاق!» قال سامي وهو يعد كل موقع على أصابعه.

«ستاد؟ هل كان الإمبراطور بارعا بأي شكل في كرة القدم؟»

وجّه سامي نظرة مذعورة نحو ثريا.

«كفى. حان وقت النوم!» هتفت ثريا. «غدا نكتشف أمر كل هذا.»

تساءل سامي: «هل ستأتي معنا يا عمو؟»

«بالطبع سأتي..» قال أيمن واحتضن سامي بقوة. ثم ابتعد فجأة. «فلتذهب..» قال بضحكة سريعة ولكمة تمثيلية لكتف سامي.

نتاهى إلى سمعي جريان الماء من الصنبور في حَمَام سامي بالطابق العلوي، وبعد ذلك وقع خطواته هو وثرىا عبر الرواق إلى حجرة النوم. نهض أيمن من المائدة وسار نحو النوافذ. كانت المدينة خلفها غارقة في الظلام، وقد فشل خيط من سنا القمر في إنارتها. دس أيمن يديه في جيبه، ومال بجبهته على لوح الزجاج. بدا مغلوبا من الإرهاق، مهزوما.

قلت: «ماذا يحدث؟»

اعتدل أيمن في وقفته وهز رأسه. «مجرد يوم طويل..» قال بضحكة مكتومة. «لا شيء يعجز عن شفائه إكسبير محرم ما. جوني ووكر. بلاك لنبيل. مهرّب من قبرص..» أضاف بمرح مفتعل.

«لا يمكننا القيام بمجازفات مثل هذه. ليس لدى أحدنا غير الآخر..» قلت رافضا، وقد باغنتني ذكرى من الطفولة - هو مريضا وملازما لفرشه، وضوء الشمس المقطر يتسرب عبر شيش النافذة المغلق، وأنا أرقبه خائفا من أن أفقده. «لست بحاجة لزيارتك في السجن.»

هز أيمن كتفيه. «ربما لم يكن المغفل المسكين في الجمارك ليعرف ماذا كانت حتى لو أمسك بي. كنت لأخبره أنها كولونيا. شيء منعش في المساء.» ابتسم ابتسامة عريضة، متظاهرا بأنه يمسك زجاجة ويرش محتوياتها على وجهه محقق خفي.

منحته ضحكة قصيرة، ثم ضحكة أطول. بالنسبة لأيمن، كانت حقيقة أن الكحول غير مصرح به قانونيا لا تجعل من تحدي الحصول عليه إلا أمرا أكثر إغواء.

قال: «مجازفة تستحق القيام بها.»

في الشرفة لاحقا، أخرج أيمن زجاجة البلاك ليبل متباهيا، وقدمتها ثريا في طقم وراثته من الكؤوس البلورية. مع نسيم البحر، هبت رائحة الياسمين من التعريشات الممتدة بطول مؤخرة البيت. وومضت أضواء قليلة بطول الساحل المظلم. ملنا على السياج، واستنشقتنا الهواء العطر، وثرىا بيني وبين أخي. كانت تحضن كأسها في يديها الاثنتين.

«لم أتوقع أن أكون هنا..» قال أيمن. استطعت تمييز جانب وجهه في الظلام. تمطى متلذذا وأخذ رشفة من كأس السكوتش.

غيرت ثريا وضعها قليلا وللحظة حفّ كتفها بكتفي.

أكمل أيمن حديثه: «قررت القيام بزيارة مفاجئة لفريق العمل الفاشل ذاك في ودان.. بالطبع كان هناك

أسبوع كامل من خطط التسليم الناقصة. مدير المكتب ابن القحبة ذاك المدعو حميد ظل ينتبني كظلي. ياله من وغد لزج! كان بمقدوره أن يعرف أنني كنت منزعجا، لذا أتى على ذكر أبي. كم كان رجلا عظيما. كم كان طيبا. كم هو مفتقد بعد أن توفي. وطوال الوقت كان يخطر حول المكتب متظاهرا أنه يبحث عن الأوراق الناقصة، زاعقا في الناس من أجل الخطط اللعينة وكأنها كانت مشكلة الآخرين جميعا وليست مشكلته.»

ابتسمت وأنا أتذكر حميد، بأسنانه التالفة وأنفاسه الفاسدة، والبناطيل الواسعة التي كان يرتديها دوما، والتي كان أيمن يطلق عليها حفاضات ملبوسة لعشرة أيام. كان يقود سيارته البيجو البيضاء الغبراء وفي مقاعدها الخلفية زوجته الثلاث السمينات، الملتقات في ثياب تغطي أجسادهن بالكامل ولا تظهر منها إلا كفوفهن وأقدامهن المصبوغة بالحناء. أمسكت ثريا بدفاترنا ولطالما أرادت فصله، لكنه كان موظفا قديما معنا، منذ اللحظة التي خطرت فيها على رأس أبي فكرة لشركة مياه غازية.

«كان يوما طويلا وركبت السيارة وكلي عزم على قيادتها عائدا إلى بنغازي. خطت في عقلي أن أحصل على حَمَامٍ وشراب وسيجارة قرب نافذة مفتوحة، مراقبا الناس في الشارع. هكذا أقضي أمسياتي الآن. إنها شقة في الطابق الأرضي، وحجرة الجلوس تطل مباشرة على ذلك الطريق الضيق المغبر، والناس يسبرون فيه طوال الوقت حتى لتشعر أنك موجود مباشرة في منتصف حياة كل شخص آخر. في الحقيقة لست واثقا مما حدث. لكن ما أعرفه بعد ذلك أنني كنت أقود سيارتي عبر الصحراء، في الاتجاه المعاكس، عائدا إلى طرابلس، كفرد حمام زاجل لعين.»

طلبت ثريا سيجارة وأخرج أيمن علبة من جيبه. أشعل عود كبريت وأحاط اللهب بكفه ليحميه من هبة ريح آتية من الساحل. خفضت وجهها نحو الضوء المرتعش.

قالت: «ربما أنت تنتمي إلى هنا..». تراجعت خطوة مبتعدة عن سياج الحديد المشغول، ونفثت خيطا رفيعا من الدخان إلى أعلى بيني وبين أخي.

كان بمقدوري سماع صوت السيارات وهي تتسابق بطول طريق الساحل إلى الأمام. وفي مكان ما في الحي المظلم خلفنا دوى بوق سيارة بشذرة من لحن.

قلت: «لقد جُبننا هذه الطرق لسنوات معا، منذ كنا مراهقين، وحتى قبل ذلك مع بابا. كل صيف وأجازة شتوية، وكان الأمر دائما يتعلق بالعمل. أنا وأنت في سيارة الشركة الفيات اللعينة تلك. صباحا ومساء. لقد سيطرت عليك غرائزك.»

«عدتَ للبيت..» قالت ثريا.

أوما أيمن برأسه في هدوء. مد يده نحو زجاجة السكوتش. وقال مشاكسا: «هل يسمح أخي العصبي لنا بكأس آخر هنا في الخلاء الفسيح الخطر؟»

«أنا تمام. تفضل أنت بالطبع.»

«لا تقلق بشأن ماهر. هو دائما حذر للغاية. يقف في مواجهة نهاية العالم. لقد عين نفسه حارسا لنا..» قالت ثريا في حنق.

«صحيح ما قلته عن تلك الطرق الصحراوية يا ماهر..» قال أيمن، بنبرة تحمل احتراما، ربما ليعوض عن نبرة ثريا. «حياتنا منحوتة فيها تماما.»

كان هناك وقت فكرنا فيه في الانتقال الدائم إلى كاليفورنيا، وهو خيار دعمته أمي وقتها بعد أن تضاءلت ثروتنا. قضى أيمن، الأكثر عصبية مني، بضعة شهور يعمل نادلا قرب سان فرانسيسكو. لكنه عاد بعد ذلك، وبعد واحدة من رحلات عملنا عبر الصحراء المفتوحة، مراقبين السماء الصافية وهي تتحول من اللون الأرجواني المتدرج إلى الأزرق الزاهي، بدا أنه قد هجر كل الأفكار المتعلقة بالرحيل.

هزت ثريا رأسها وقالت بانفعال: «ليست هذه بالحياة التي أريدها لسامي. ربما تكون هذه هي الحياة التي اخترتها أنتما الاثنان، لكنها ليست المناسبة له.»

ناولت أيمن سيجارتها، واستدارت عائدة إلى البيت وقالت: «سأذهب لأنام.»

كانت الشمس فوق رؤوسنا مباشرة، ورغم أنه كان خريفا وثمة برد خفيف في الهواء، اضطرت لإغماض عيني في مواجهة سطوعها. قادت سيارة ثريا الألفا روميو الفضية خروجنا من حي الأندلس، مرورا بالمسجد الوردى والسوق المكون من محلات صغيرة غائرة، أغلقت مبكرا استعدادا لصلاة الجمعة. كان الميدان المغبر مهجورا إلى حد كبير. ثمة صف من اللافتات الهائلة «للاخ القائد» في زي إفريقي له طرازه الخاص بيرزه في وضعيات مختلفة، كانت هذه اللافتات ترفرف فوق أعمدة قائمة عند نهاية الميدان. كان حكم أبي على الرجل منذ سنين أنه بذاعة مفروضة علينا.

أنزل أيمن زجاج نافذته أمام رائحة قلي وثوم وبصل. قال: «أحب هذا الوقت من اليوم. كل شيء في سكون تام، وكأننا نمتلك المدينة بأكملها.»

كانت ثريا جالسة إلى جوار ي. مالت إلى الخلف ونظرت نحو أيمن وضحكت وقالت: «أهلا ومرحبا بك فيها كلها..»

وقال سامي ساخرا: «أكره هذه الرائحة.»

في شارع عمر المختار، قرب وسط المدينة، اصطدمنا بالتكدس المروري وعلقنا خلف شاحنتين مكشوفتين تكوم في مؤخريهما عمال مهاجرون من إفريقيا الوسطى. توقف إلى يسارنا رجل يقود عربة يجرها حمار. طرقت بسوطه الهواء فوق الحيوان الهزيل وحاول أن يقوم بمناورة بيننا وبين الشاحنتين. اندفعت إحدى الشاحنتين إلى الأمام فجأة، وسقط الرجال في ظهر الشاحنة إلى الوراء مصطدمين ببعضهم البعض.

قالت ثريا: «لا ينبغي أن يحيا الناس هكذا.»

يستغرق الأمر قرابة الساعتين من القيادة شرقا من طرابلس إلى الأطلال عند لبدة الكبرى، وقبل أن نتمكن من الخروج من المدينة كان سامي قد سقط نائما، ورأسه تتأرجح مستندة على نافذة السيارة. أخذت الطريق الساحلي عبر (باب بن غشير)، مرورا بامتداد الفيئات المدهونة بالجير الأبيض،

والشواطئ في منطقة الثلاثين وتاجوراء. قرب الأراضي الزراعية خارج مدينة قصر القره بوللي بزراعاتها من اللوز والزيتون، انتفض سامي واستيقظ.

مالت ثريا إلى الخلف وألقت إلى سامي قبلة في الهواء وقالت: «أخبرنا عما تدرسه عن لبدة الكبرى.»

هز سامي كتفيه وتمدد متراخيا في مقعده.

قلت: «هيا يا سامي، لقد جلبت كتابك معك لتعلمنا!»

في المرأة رأيت أيمن يلوي ملامح وجهه بطريقة مضحكة ناظرا إلى سامي ومداعبا شعره. قال أخي:

«الإفريقي العبوس.»

أعجب هذا سامي. ففتح كتابه المدرسي: «تقع أطلال لبدة الكبرى فوق أرض صخرية على امتداد الساحل..» قرأ، في نصف تمتمة، وهو يتعثر في الكلمات. «مدخل المدينة القديمة... عبر... قنطرة لوسيو سيبثيروس. تأسست حوالي القرن العاشر ق.م، ولفترة كانت لبدة هي لؤلؤة الإمبراطورية الرومانية على...» تطلع سامي إلى عمه طالبا للعون.

«البحر-الأبيض-المتوسط..» قال أيمن.

«ومركزا للتجارة... عبر... حوضه. وطوال القر..ون تعرضت للاجتيا...ح من جيوش الوندال والبربر، ونُهبت وشيدت ونُهبت من جديد. وفي النهاية... هُجرت... وتركت أطلالاً.»

قلت: «أحسنت العمل.. أقصد أحسنت القراءة.»

المجاملات خطأ دائما. أغلق الكتاب بعنف. وقال: «أنا أشعر بدوار السيارات.»

قال أيمن: «إنه ممل على أي حال. لكن لدي قصة حقيقية عن المكان. هل تريد أن تسمعها؟»

أوما سامي برأسه واعتدل في جلسته بمقعده منتبها. «هل هي مخيفة؟»

«إمم. حسب الظروف. هل أنت شجاع؟»

أوما سامي برأسه مرة أخرى ونظر بسرعة إلى أمه.

قالت ثريا بهدوء: «يا أيمن، إنه صبي صغير.»

«لقد بنى أهل لبدة مدينة عظيمة. وكانوا سعداء. ظنوا أن لديهم كل ما يمكنهم أن يحتاجوا إليه في هذا العالم. لقد بنوا أفضل الطرق والمدارس، وسرادقات عملاقة ومدرجات ضخمة. هل تتابعني؟»

أوما سامي برأسه في حماس.

«في عطلات نهاية الأسبوع كانت هناك مهرجانات، وطعام مجاني، وموسيقى، وعروض، ورقص. لكنهم كانوا محاطين بالصحراء والبحر. ومع انتشار الأخبار بحياتهم الطيبة، كانوا دائما عرضة لهجوم القبائل الفتاكة المتزاحمة حولهم في الصحراء. فماذا تعتقد أنهم صنعوا؟»

قلت ضاحكا: «سلموا أمرهم للقوة العظمى العالمية السائدة وأنفقوا كل مالهم على عقود السلاح..»

قالت ثريا: «ممنوع السياسة يا ماهر..» كانت هذه قاعدتنا فيما يتعلق بسامي.

أكمل أيمن متجاهلا إيانا: «بنوا أنفاقا سرية تحت الأرض، وهناك كان يختبئ المدافعون عن لبدة، وعند الهجوم عليهم كانوا يخرجون مندفعين من هذه الأنفاق، في ضوء الشمس الساطع، بكامل دروعهم، وسيوفهم مشهرة، ويفاجئون الغزاة! أفلح هذا في كل مرة.» صوته الذي كان قد بلغ أعلى درجاته أصبح فجأة هامسا ومنذرا. «وبعد ذلك ذات مرة لم يعد له نفع.»

«لم لا؟!» هتف سامي. كان في حالة من الانتباه الجذل.

«الغدر. الخيانة. شخص وثقوا فيه وانقلب عليهم. أفشى بموقع الأنفاق السرية، ودُمرت المدينة وتُركت أطلالا.»

«لكن ماذا حدث لكل الناس؟»

«قتلوا..» قال أيمن.

«أيمن!» صاحت ثريا، وهي تلثقت لتتنظر إليه، ملوحة بإصبع رافض.

قال أيمن بسرعة: «حسنٌ، ليس جميعهم. هرب بعضهم. كان هناك نفق يفتح على الشاطئ، وتمكنت عائلة واحدة من الهروب هناك. عرفوا أن عليهم البقاء مختفين كي يظلوا أحياء. لذلك ربضوا في ذلك النفق لأطول وقت أمكنهم. ثم ذات يوم قرروا أن يجازفوا بكل شيء، وجروا خارجين من النفق على الشاطئ ومنه إلى البحر، وسبحوا وسبحوا وسبحوا مبتعدين عن لبدة قدر استطاعتهم. لا بأس. انظروا. نهاية سعيدة بعد كل شيء.»

هزت ثريا رأسها واستقرت عائدة في مقعدها. وقالت: «ممنوع مثل هذه القصص.»

انطلقنا بالسيارة على طول امتداد من طريق سريع تحده من جانب مساحات من الشيطان الرملية البيضاء الخالية والمنجرفة إلى داخل الامتداد المتلائي من المياه الزرقاء والتركوازية. وعلى الجانب الآخر ترقد الصحراء، وأفق مناسب لا تكسره إلا تجمعات من بيوت البدو المدهونة بألوان فاقعة.

قلت ببطء: «كان هناك نفق. وجدته عمك. وجعلني أدخل فيه. كان شديد الظلمة. أسميناه النفق الموجود عند آخر العالم. أتذكر ماما وهي تتأدنا. كانت قلقة جدا. مذعورة.»

قالت ثريا: «لا يعجبني تصويرها على هذا النحو. كانت امرأة قوية.»

ضحك أيمن وقال إنها بقدر ما كانت قوية كانت أيضا روحا ضائعة في بلد غريب.

هزت ثريا كتفيها وقالت: «بمجرد أن عثرت على أمي لم تعودا في حاجة لأي شخص آخر. كانتا جميلتين جدا، هما الاثنتان. أنيقتان رغم كل شيء. مقدماتان حتى وهما سيدتان عجوزتان تخطران متشابكتي الذراعين قرب البحر في الأندلس. تتألقان في ثيابهما واضعتين الماسات في المساء، ومرتديتين معاطف الفراء في الشتاء. وكأنهما خارجتان في نزهة على شاطئ الريفييرا. وليستا محاطتين بطرق قذرة وعربات تجرها الحمير وأكوخ من الحجر الجيري. لم يكن بمقدور إحداهما العيش دون الأخرى.»

قال أيمن: «حسنٌ في النهاية لم تفعلنا، عاشت أمي أقل من عام بعد وفاة فرانشيلينا.»
«لولاها لما عرفنا بعضنا البعض..» أضفت متوجهاً بحديثي لسامي. «كان عليّ أن أكون المرافق
الأمين لماما وعمو أيمن.»
«ما هو المرافق الأمين؟» قال سامي.
قلت ضاحكا: «هو شخص يعمل على التأكد من أن الناس يتصرفون على نحو سليم. كنت أتبعهما في
كل مكان.»

قالت ثريا: «يكفي هذا يا ماهر.»

«وذاًت يوم ينظر عمك أيمن إليّ ويقول - هل أنت واقع في حب ثريا. وقلت نعم. نعم أنا واقع في
حبها.»

ابتسم أيمن نصف ابتسامة. أحاط كتف سامي بذراعه وجذبه قريبا منه. حدق متفكراً خارج النافذة
بينما كنا نعبّر الامتداد المشوه المفاجئ للتكنات العسكرية بين مدينتي الخمس ووادي لبدّة.
«إنه الشوط الأخير من الرحلة..» أعلنت بصوت عال دون أن أوجه حديثي نحو أحد على وجه
الخصوص. «نحن على وشك الوصول تماما.»

خرجت عن الإسفلت الذي كان البخار يتصاعد منه وزحفت بالسيارة على طول طريق ترابي إلى
مدخل الأطلال، وأوقفت السيارة في قطعة أرض ترابية شبه فارغة. كان بمقدوري سماع صوت
الأمواج على البعد بينما كنا نسير عابرين كشك أمن غير مأهول. كان الدفء قد تسلل إلى النهار
الآن، وكانت الرياح مليئة برائحة البحر، وكذلك عبير اليوكالبتوس والياسمين طافيا في المسافة
المباغثة بين كل هبة وأخرى.

تتبعنا ثريا وسامي أسفل القنطرة الهائلة للإمبراطور لوسيو سيبثيروس، والحجارة المنحوتة تلتمع
مثل المرمر في ضوء الشمس، إلى أن دخلنا لبدّة. هناك كانت الأرض تتحدّر صاعدة برفق. على كل
جانب من الطريق ذي البلاطات الحجرية قامت سدود رملية مغطاة بعشب ونباتات قصيرة. ثم
استوت الأرض، وتكتلت وسط الفراغات الخالية التي استردتها الصحراء، وانبسّطت الأطلال أمامنا
في امتداد هلال من الأعمدة الشاهقة والقناطر المنقوشة برأس ميدوزا. تلوت الطرق الرومانية التي
كنستها الرياح على طول الأسس الزائلة للمعابد والسرادقات المنهارة. تذكرت رحلاتنا هنا ونحن
أطفال، والطريقة التي كانت تفتنن أمي بها بمجرى التاريخ الذي تمثله الأطلال، ورفضها العنيد
للاختفاء، وكلها قريبة جدا من البيت. لكن ما كان يأسرني دائما هو الرياح والسماء. الطريقة التي
كانت تغمر بها الشمس كل شيء. الطريقة التي كان ينكشف بها كل شيء في الضوء الساطع.

أمسكت ثريا بيد سامي، وسرنا أنا وأيمن في أثرهما عبر متاهة الممرات الحجرية والجدران الباقية،
ومرورا بمكان السوق المقام القديم، وأكشاكه الدائرية تنظر خارجه إلى المدينة. في نزوة أسقط أيمن
المقاعد المطوية التي كان يحملها، وتسلق فوق كتلتين هائلتين من الحجر الجيري إلى داخل ساحة

السوق. وقف خلف واحد من الأكشاك الحجرية ولوَّح لسامي كي ينضم إليه. أنزلت علبة الثلج التي كنت أحملها إلى الأرض وراقبت ثريا وهي تقول شيئاً لسامي وتبتسم، وبعد ذلك كان سامي يندفع صاعداً فوق الكتل الحجرية إلى عمه.

وقف أيمن طاويا ذراعيه وقال: «نعم أيها السيد المصارع، ماذا تود أن تأكل اليوم؟»

سايره سامي في التمثيل وقال: «أود اسباجيتي وكرات لحم وكوكا كولا من فضلك.»

لوى أيمن وجهه وقطب: «أسف يا سيدي المصارع إن كنت قد فشلت في الملاحظة، هذا سوق روماني!»

“طيب إذاً ماذا لديكم؟”

“لدي أفضل مقل عيون الغنم الموجودة في أي مكان في شمال إفريقيا، وأمعاء مشوية لذيدة لجمل ذي سنامين ولسان ماعز صغيرة طيب متبل في مرق جميل من دم الدجاج.”

“يع! قال سامي.”

“ماذا! أيها السيد المصارع! لا يعجبك طعامي الطيب!” قال أيمن. اندفع حول الكشك، ومع سلسلة طويلة من ضحكات سامي، رفعه عاليًا وتظاهر بإلقائه من فوق الحافة إلى الطريق.

قال سامي: «فلنفعلها مرة أخرى يا عمو أيمن..»

قلت: «فيما بعد. لدينا المزيد من المشي الذي يجب أن نقوم به.»

ظلت ثريا، بحقيبة شاطئٍ منتفخة معلقة على كتف واحد، أمامنا عبر ممر (ثريا كولوناتا) الذي اصطفت الأعمدة على جانبيه، وهي تجذب بين لحظة وأخرى سامي بعيداً عن محاولته المستمرة للتسلق فوق الأطلال الحجرية. مررنا بمجموعة صغيرة من السياح الفرنسيين وشاب محلي يرتجل حديثه كمرشد سياحي. قال شيئاً بإنجليزية مكسرة عن كون هذا الدرب قديماً جداً بالفعل وهو ما نال عنه همهمات موافقة مهذبة من البطانة المتجمعة حوله. كتم أيمن ضحكاته وهز رأسه.

مع اقترابنا من البقايا الممتدة لحمامات هادريان، بقطعها الباهتة من الفسيفساء وبركتها الغارقة، تمكنت أخيراً من رؤية امتداد البحر. التفتت ثريا نحوي وأنا وأيمن وقالت: «نحن بحاجة للعثور على البقعة الصحيحة قرب الشاطئ.»

كانت علبة الثلج تزداد ثقلاً على ذراعي، وألمحتُ إلى أن البقعة الصحيحة يمكن أن تكون هنا في الظل قرب الحمامات. لو سمعتني ثريا فإنها لم تُظهر هذا؛ بل خرجت عن الطريق الرئيسي وسارت في درب ترابي نحو المرفأ القديم. انتهى بنا الحال إلى هضبة من الحصى عند حافة جرف رملي يطل على الشاطئ بارتفاع عشرين قدماً أو نحو ذلك. ثمة جدار نصف مبني من الحجر الجيري صنع إطاراً لمؤخرة الهضبة وقدم بعض الظل.

“هنا!” قالت ثريا بطريقة حاسمة.

إلى الشرق كان الشاطئ يغدو ضيقاً وصخرياً. وثمة بناء عشوائي من الحجر الجيري فوق بروز أشبه

باللسان داخل الماء كان هو كل ما تبقى من فانار المرفأ. كان هناك بضعة رجال يتسكعون هناك، وعندما رأوا ثريا لَوْحوا وصفروا.

قلت: «يمكننا العثور على مكان آخر.»

قال أيمن بقوة: «أو ربما يمكنني الذهاب للحديث معهم.»

قالت ثريا: «أبناء بلد ضجرون. تجاهلوهم.»

وقف سامي إلى جوار ي. كان شعره كسوة من الذهب في ضوء الشمس. أسفل منحدر من الحصى خلفنا، اختفى جزئيا وراء مجموعة كثيفة من الأعمدة، أشرت إلى البقايا الغارقة للميدان العام السيثيري والبازيليك. وخلف ذلك، كانت حلبة المصارعة؛ مجوفة ومدرجاتها متداعية. أو ما سامي برأسه، لكنه بدا محبطا من الأطلال الممتدة، وتخيلت أن البقايا الهيكلية كانت شكلا بعيدا كل البعد عن الصورة الحية التي بناها في عقله.

فردت ثريا ملاءة طعام رحلتنا على الأرض. تلاعبت الريح بطرفها الحر، وضحكت ثريا بينما كان أيمن يجمع قوالب الحجر الجيري ليضعها كتقل عليها. نصب مقعدا في ظل الجدار ومد يده باحثا عن زجاجة الويسكي المدفونة عميقا في حقيبة الشاطئ. نظرت حولي مرة أخرى بسرعة بينما كان أيمن يصب لنفسه كأسا طويلا، ويشعل سيجارة، ويستقر في مقعده. لم يكن قد حلق ذقنه هذا الصباح ومنحت الشعيرات النابتة لوجهه منظرا منهكا، كان السفر أخيرا يفعل فعله به. نصبت مقعدين إلى جواره وناديت لثريا كي تتضمن إلينا. لكن سامي كان لا يقر له قرار ولذلك أخرجت ثريا كرة القدم من حقيبة الشاطئ. بخبرة، أسقطت الكرة على الأرض وراوغت سامي. ضحكك من الطريقة التي كانت ساقاه الهزيلتان تركضان بها خلف ساقها بينما هي تراوغة دونما جهد. كانت ساقا ثريا جميلتين ومتناسقتين في بنطالها الجينز الأزرق. وكانت قد ربطت أسفل قميصها في عقدة، وانكشف انحناء فخذها. ظننت أنني سمعت صفارة أخرى ونظرت بسرعة نحو الفانار لكني لم أر أحدا. انسكب ضوء الشمس فوقها هي وسامي. وسقط شعرها حرا فوق وجهها، وعندما أزاحتها بعيدا بصبر نافد، تمكنت من رؤية النمش الخفيف، الذي أورثته لسامي، على قنطرة أنفها. جذبت نظرها ولوحت لها. ركلت الكرة بقوة بجوار سامي فتدحرجت من فوق الهضبة وهبطت المنحدر نحو الأطلال.

“هيا يا سامي هناك مزيد من البراح هناك في الأسفل..” هتفت وهي تركض بظهرها إلى جواره، وتلقي إليّ أنا وأيمن بقبلة في الهواء. “ومن الأفضل أن نجد الكرة قبل أن تختفي في واحد من أنفاق عمك الشهيرة.”

وحيدا مع أخي، مددت يدي نحو كوب بلاستيكي، وصببت لنفسني شرابا. أشار أيمن إلى كأسه. قلت: «على مهلك..» لكني صببت له جرعة أخرى.

أمال رأسه إلى الخلف وأغلق عينيه. شهق بحدة وقال: «يساعدني هذا في موضوع 'على مهلك'..» بعد لحظة فتح عينيه وحقق في كأسه صامتا.

قلت: «ماذا حل بك؟ كنت تزورنا أكثر من هذا على الأقل.»

هز أيمن كتفيه. «إنها رحلة طويلة يا أخي.»

«كانت ثريا تتساءل إن كانت هناك واحدة - في بنغازي. امرأة، كما تعلم.»

أطلق أيمن ضحكة قصيرة. «بطريقة ما لا أسمع ثريا وهي تسأل هذا السؤال.»

«طيب كنت أنا في الحقيقة. دعني أكن جادا. لم أفهم قط السبب في ابتعادك عنا مسافة تقارب نصف البلد.»

«كما تقول دائما يا ماهر: 'يا أيمن، كل شيء يتعلق بالعمل. إنه كل ما لدينا. نحن لا شيء بدونه. ليس هناك إلا ثلاثتنا: أنت وأنا وثرثيا. لو فشل المشروع لا مكان لنا كي نذهب إليه. نحن أغراب في هذا المكان.'» التفت ونظر إليّ وقد ضيق عينيه وقال: «لذا فعلت ذلك من أجل العمل. هذه هي الإجابة.»

قلت: «سامي يفتقدك. يسأل عنك طوال الوقت. ثريا تكون مختلفة عندما تكون أنت هنا. أكثر سعادة. وأنت - عليك أن تكون أكثر سعادة أيضا. ينبغي أن تعود. عودتك مرحّب بها.»

لم يقل أيمن شيئا.

قلت: «كان هناك وقت قبل أن يولد سامي، عندما كنت أعود بالسيارة إلى البيت في نهاية اليوم يا أيمن. وتكون النوافذ الأمامية مفتوحة على اتساعها، والموسيقى تنساب خارجة. كان بمقدوري سماع صوتك، كنت تجعل ثريا تضحك دائما. وأحيانا كنت أطفئ المحرك وأجلس داخل السيارة في الغبار الساكن، وأستمع فقط.»

سحب أيمن نفسا طويلا من سيجارته وحقق إلى امتداد البحر ورائي. كانت الأمواج متلاطمة وكان بمقدوري تمييز ذؤاباتها البيضاء هناك من بعيد. لكن السماء كانت صافية الزرقة. مرر أيمن يده فوق فك مكسو بالشعر النابت. أحاطت دوائر سوداء بعينه.

هذا الصباح دخلت أثناء حديث كان يجريه مع ثريا. نهضت ثريا مبكرا لتعد الإفطار وطعام الرحلة، وجرى رفض عرضي للمساعدة لصالح الاستراحة من أجل القيادة. تمددت في السرير، وتتبعث الثنيات التي تركها جسدها في الملاءات، واستنشقت الرائحة الحلوة لشعرها على الوسادة حيث تخلفت بضع شعيرات كستنائية. وعندما شققت طريقي أخيرا هابطا إلى الطابق السفلي، تمكنت من سماع الأصوات قادمة من المطبخ. «طريق مسدود..» قالت قبل أن أدخل مباشرة. كانت جالسة إلى مائدة المطبخ طاوية ذراعها، وأيمن يواجهها قرب الحوض.

الآن، وأنا أرنو إلى كتل الحجر الجيري لمدينتي الخمس ووادي ليدة، عديمة الشكل في الشمس والضباب، قلت لأيمّن: «أعرف أن العمل يمكن أن يغدو قديما، وأن هذا المكان يبدو وكأنه منسي من العالم. لكن البلاد لا يمكن أن يبقى هكذا إلى الأبد. شيء ما يحدث. خفي. تحت السطح. يمكنني الشعور به.»

شبك أيمن ساقيه أمامه، ونفض بعض الغبار عن بنطاله، وأوما برأسه.

قلت: «منذ عامين تركتني ثريا..»

التقت أيمن ونظر إليّ.

«كان هذا عندما أخذت سامي إلى ميلانو ليرى أقاربه. كتبت إليّ خطابا من إيطاليا. قالت إنه لا جدوى من محاولة شرح ما لا يمكن فهمه أو شيء من هذا القبيل. رددت عليها بأني قادم من أجل ابني.» قال أيمن: «وقد عادت، وهذا كل ما يهم في النهاية.» نهض بحدة وسار إلى حافة الهضبة. ألقى بعقب سيارته إلى السماء.

«اتصلت بك مرة لأخبرك. ربما أكثر من مرة.»

هز أيمن كتفيه. «لا أعرف يا ماهر. أحيانا أترك هاتفني دون شحن.» ركل أيمن حجرا من فوق حافة السد إلى الشاطئ في الأسفل. وقال بهدوء: «أنا بلا خيارات يا ماهر.»

تعالقت صيحة ورأيت ثريا وسامي يظهران من بين الأعمدة عند الحافة الشمالية للبازيليك. كان سامي يعدو والكرة بين ذراعيه فيما كانت ثريا تطارده صاعدين التل نحونا.

تهلل وجه أيمن. انفجر في الضحك واندفع هابطا المنحدر الترابي نحوهما. كان سامي متحمسا، ينظر وراءه من فوق كتفه إلى ثريا. وعندما رأى عمه يجري نحوه، صرخ في سعادة وانحرف بحدة محاولا أن يهرب. انزلق وسقط على وجهه فوق الأرض. تدرج إلى جوار الكرة ممسكا بركبته.

هتفت: «سامي!» لكن ثريا وأيمن كانا قد وصلا إليه بالفعل، وركعا إلى جواره.

لا شيء خطير - رغم الدموع. كان بمقدوري معرفة ذلك من مكاني حيث وقفت. بدأت في السير نحوهم، لكنني عندئذ ولسبب ما شعرت بالحاجة للتحول إلى الهرولة.

قلت: «هل أنت بخير يا بني؟»

قال أيمن: «هو في خير حال. مجرد خدش. لا شيء يُبقي مصارعا ساقطا على الأرض.»

حاول سامي أن يضحك لكنه كان مفزوعا وحابسا دموعه.

قلت: «هل تستطيع النهوض؟»

«يا ماهر..» قالت ثريا. «هو بخير.»

قلت: «عظيم، إذا يمكنه النهوض والسير معي.»

نهض سامي ممسكا بركبته. وتمتم: «سأذهب مع بابا.» وشعرت بموجة من شيء أشبه بتبرئة الذات تجتاحني.

ظل سامي قريبا مني ونحن نتتبع الدرب الترابي الملتف إلى الشاطئ. كانت رائحة اليوكالبتوس ثقيلة في الهواء. أحطته بذراعي وقبّلت تاجه الذهبي.

سألته: «هل أنت بخير يا بني؟»

أوما برأسه ومسح وجهه في قميصي، ثم هرول منطلقا أمامي.

في منتصف الطريق أسفل السد، انعطفت الدرب بحدة، وتبع ذلك انحدار مائل إلى امتداد عريض من الرمال البيضاء.

قال سامي: «بابا، هذا هو المكان الذي لا بد أن السفن قد رست عنده. وبعد ذلك كان الناس يسيرون إلى المدينة.»

قلت: «ربما.»

تساءل: «هل كان هناك أي أطفال؟»

وقلت نعم بالطبع كان هناك أطفال وأمهات وآباء. وكانت هناك مدارس وألعاب رياضية. كل شيء.

خلعنا أحذيتنا وجواربنا وخطونا على الرمال الباردة. تبعني سامي على مبعدة بضع خطوات خلفي سائرا على آثار أقدامه الصغيرتين. على مرمى حجر أمامنا، كان مجموعة من الصبيان متجمعين ليرقبوا رجلا يبني قلعة من الرمال. قدت سامي وتوقف هو بزاوية بحثا عن طريقة ليقرب دون أن يلاحظه أحد.

قلت: «لا بأس. فقط اقترب أكثر.» نظر إليّ بقلق ودسّ ذقنه داخل قميصه الرياضي. كان خجولا في حضور الجميع باستثنائنا. كانت ثريا تجد ذلك شيئا محببا، لكنه كان يعيدني دائما إلى اللحظات القليلة الأولى لمولده؛ كيف بدا هشا عندما رفعوه بعد أن أخرجوه منها، شاحبا ورخوا. عملية قيصرية طارئة. كنت متأكدا أنه ميت. وكان أيمن قد اتصل بعد الجراحة بقليل، وبدأ في النشيج في الهاتف، وسأل إن كان يمكنه سماع صوت ثريا، وأراد أن يعرف الاسم الذي كنا قد اخترناه أخيرا.

كانت القلعة ضخمة ولها مطالع وأبراج وخندق مليء بماء البحر، وانسل سامي مترددا نحو صبي آخر واقتراب برفق. غاب سامي عن نظري للحظة. لكن عندما ظهر كان وجهه متهللا.

جلسنا على الملاءة وأكلنا الشطائر التي أعدتها ثريا في وقت مبكر من ذلك الصباح، ومن بينها تلك المفضلة لي ولأيمن: تونة على طبقة كثيفة من هريسة الفلفل الأحمر الحار. كانت هناك سلطة بطاطس جانبية وبرتقال وتفاح. جلست ثريا إلى جوار سامي وناولته شطيرته المحشوة بالنوتيلًا ومربى البرتقال.

«سببنيك هذا في حالة من النشوة العالية حتى الغد..» قال أيمن بينما كان سامي يأخذ قضمة كبيرة من شطيرته.

قالت ثريا: «سيكون بخير، هو بحاجة إلى الطاقة. وبأمانة، أي شيء أفضل من هريسة الشطة المحلية تلك التي تسبب القرحة وتأكلانها أنتما الاثنان.»

قلت: «إنها تطهر الروح..»

«ليس إذا رأيت المصنع القذر الذي يصنعها..» قالت ثريا وهي تهز رأسها. وعرفت لنفسها من سلطة

البطاطس على طبق ورقي.

لمحت أيمن ينظر إلى ثريا. قلت: «ولا شيء واحد جيد في هذا المكان. إنه سجنها..» وللحظة ندمت على إخبار أيمن بحكاية ميلانو.

من ترموس فولاذي مقاوم للصدأ صببت شايًا ساخنًا مُحلى في أكواب ستايروفوم صغيرة. أخذ أيمن بضع قضمات، ثم وضع شطيرته جانبا وتمدد على ظهره، مغلق العينين ووجهه إلى الشمس. لوهلة ظننت أنه غفا على وقع كريشيدو الأمواج الثابت. لكنه فتح عينيه بعد ذلك، ومد يده ليأخذ سيجارة أخرى ونفخ حلقات من الدخان لتسلية سامي.

جمعت الأطباق، وأخذناها أنا وثرى إلى بقعة رملية خلف الجدار. شطفنا الأوعية البلاستيكية بإبريق من الماء. كانت قد رفعت شعرها في كعكة، وكان بمقدوري رؤية الجلد الأكثر شحوبا بامتداد مؤخرة عنقها. التصقت بها، وشممت الشذا الباقي من العطر، لكن كانت هناك أيضا عطانة العرق والتراب، وأردت أن أريح وجهي على ثدييها الشاحبين، وأنتشق رائحتها، وأذوق الملوحة على بشرتها التي أذفأتها الشمس.

همستُ: «ليس سيئا تماما..»

داعبت ثريا وجهي بيدها وملتُ عليها.

من بعيد تنهى صوت طقطقة من مكبر صوت، ثم تعالى صوت الأذان من مسجد محلي وتردد صدها عبر الأنحاء. كان صوت المؤذن عريضا وشجيا، وبدا أنه سيعلق في الهواء ثم سيتبدد في الجو مثل عمود من الدخان.

أدارت رأسها في اتجاه الأذان.

قلت: «نشأنا بين دياننتين..»

«أذان الصلاة؟ خمس مرات في اليوم؟ إنه الشيء الوحيد الذي سأفتقده لو حدث ورحلنا بعيدا..» قالت.

كررت: «ليس سيئا تماما.»

«بابا!» نادى سامي. وبعد ذلك كان معنا.

تراجعت ثريا منفلتة من عناقنا.

«عمو أيمن يقول إنه سيأخذني لرؤية النفق. النفق الذي في آخر العالم. سيأخذني. سيأخذني إلى هناك! هل يمكن أن أذهب؟»

اقترب أيمن سائرا الهوينى وقال: «إنه بعد البازيليكا مباشرة. من يريد المجيء؟»

بالطبع كان سامي يريد ذلك. «أنا، أنا!» صاح وهو يلوح بذراعيه.

قلت لثرى: «أذهبي معهما. لقد ذهبت من قبل. وعلى أي حال، أنا بخير هنا. سأحرس أشياءنا. وسأنتهي من التنظيف.»

قاد أيمن الطريق. بدا غارقا بعمق في أفكاره، منفصلا، وقد تهدل كتفاه. وقفت لأتابع تقدمهم وهم يمرون بين الأعمدة. ثمة جدار واطئ كان يفصل الأعمدة عن بقايا البازيليكا. كان أيمن أول من تخطى الجدار وتبعه سامي. مد أيمن يده ليساعد ثريا في العبور. ترددت للحظة قبل أن تمسك بيده، ثم غاب ثلاثهم عن النظر.

واريت متعلقاتنا في الظل عند الجدار الحجري، وصببت لِنفسي شرابا مما تبقى من السكوتش. ثمة يخت كان قد بدأ إحاراه في المياه مارا للتو بوادي لُبدة، تتبعت مساره عبر ذوابات الموج البيضاء وبعد ذلك في البحر الأزرق الصافي بامتداد الأفق. كانت شمس الأصيل قد بددت أي ضباب باق على طول الساحل، ولاحت المدن الساحلية الآن قزحية الألوان في الضوء، وحجارتها البيضاء تتلألأ. رشفت السكوتش، وحاولت به أن أهدئ مشاعري. بالكاد تبادلنا القبلات.

كانت الريح قد نشطت في الدقائق القليلة التي أعقبت نهاية الأذان، وشعرت بقشعريرة برد تسري في جسدي. من بعيد، لم يكن اليخت الآن أكثر من نقطة سوداء تسقط من قمة إفريقيا الشمالية. حدقت في امتداد البحر الذي نادرا جدا ما نجتازه، وتذكرت كيف في سن الثامنة عشر قامت ثريا بمحاولتها الأولى للهروب. تعقبها أبوها بعد شهر في فاليتا مع فتى مالطي قابلته في المدرسة الأمريكية. ترددت شائعات عن عملية إجهاض، وخطط زفاف ملغاة، لكنها مجرد شائعات، وأخيرا عادت إلى بيت والديها، في منتصف شتاء ممطر. انتظرت بضعة أسابيع غائمة قبل الاتصال، طالبا الإذن لزيارتها. وبعد ذلك بضعة أيام أخرى، لأستجمع شجاعتي. جلسنا في مواجهة أحدنا الآخر في قاعة الاستقبال الرخامية البالغة الضخامة في واجهة البيت، الذي لم يكن ملكي بعد. بدت أكبر سنا، وأكثر هشاشة مما أتذكر. دخلت خادماتهم العتيقة بفنجانين ضئيلين من قهوة تركية ثقيلة، ووضعت الصينية على الطاولة النحاسية بيننا. كان بإمكانك فعليا أن تشم رائحة استيائها. أشعلت ثريا سيجارة وتدللت بين أصابع يديها الشاحبتين.

قالت: «إذا فقد أتيت لترى عاهرة البلدة. المرأة الساقطة.»

قلت: «أريد الزواج منك..» ولسبب ما نهضت واقفا.

أطلقت ضحكة قصيرة، وهزت رأسها مرتبكة. وأخيرا قالت وهي تتطلع إليّ: «بالطبع كان الأمر لينتهي هكذا..»

“مثل طائر جارح..” قال أيمن عندما أخبرته.

بعد سنين سترحل مرة أخرى، إلى ميلانو، ومعها ابنا. وستعود مرة أخرى، على موجة أخيرة من المحبة. لكنها نادرا ما تطلعت إليّ أثناء ممارسة الحب، مفضلة أن تتمدد منكفئة على وجهها وأنا أخذها من الخلف. أحيانا كانت تدير وجهها جانبا وتحقق في البعيد، ووجهها خال من التعبيرات. كانت نظرة غدوت معتادا عليها، مثلها مثل الخزي الذي كان يجتاحني عندما أنقلب من فوقها.

تأخر الوقت، وهناك في اتجاه البازيليكا، وقفت الأعمدة مثل غابة حجرية في الظلال. صفرت الرياح عبر المدرجات المتداعية في حلبة المصارعة، التي لاحت وراء الأعمدة مباشرة. أطرقت ناظرا إلى الشاطئ، ثم ورائي إلى مشهد الأطلال المتداعية. باستثناء مجموعة صغيرة من السياح يسرون في ممر الأعمدة عائدين نحو منطقة انتظار السيارات، كانت لبدة مهجورة.

لم يظهر أثر لأيمن أو ثريا، وقمعت موجة من القلق أتت مع فكرة وجود سامي في النفق. في ذاكرتي، كان خط الشاطئ الذي يفتح عليه النفق ضيقا إلى حد كبير، وتخيلت أنه يمكن أن يغرق بسهولة. تتبعت الطريق الذي سلكه ثلاثتهم، وتسلفت فوق الجدار الباقي عند آثار البازيليكا. تراقص ضوء الأصيل بطول القناطر والأعمدة الحجرية، وهذا الجمال من مخاوفي. عبرت البازيليكا، مرورا بصف من القناطر المنقوشة برؤوس ميدوزا وإلى الميدان العام السيثيري المتاخم. من هناك انحنى طريق مرصوف بالحصى يؤدي إلى اليمين وانتهى فجأة ليصبح مسارا ترابيا يقود داخل الدغل.

في منتصف المسار، في بقعة عشوائية من الرمال والنباتات غير المعتنى بها، رأيت الجدارين المشيدين من الحجر الجيري. تعرفت عليهما فورا من ذاكرة طفولتي. هذا الظهور المفاجئ، بعيدا عن أي أطلال أخرى، كان بوابة إلى العالم السفلي. ناديت. ولا من مجيب.

بين الجدران المنفصلة بشق الأنفس كانت الدرجات الحجرية المؤدية إلى النفق، وخبا الضوء الرمادي تدريجيا وأنا أهبط. اهتديت في طريقي بيد مستندة إلى جدار بارد رطب. كان عمود الهواء كثيفا وبرمائيا، وكأن مرجل القرون قد انتزع كل أثر أخير للأكسجين، وهجم هواء كبريتي خانق على رنتي. عند نهاية الدرجات، كان الظلام دامسا. لكن بعد ذلك بأقدام قليلة كان النفق ينحني صاعدا برفق، وثمة ضوء ضعيف كان يرشح عبره.

في البداية كان كل ما استطعت تمييزه هو الرسومات الجصية الباهتة على الجدار الأقرب إليّ، وكل ما استطعت سماعه هو صوت الأمواج محمولا في النفق، وهديل الحمام قرب الزبد. ثم اخترقت بصري فجأة نهاية النفق وخط الشاطئ وراءها. كانا هما الاثنان في الظلال، وجهها مرفوع في تضرع صريح، ويدها تغوصان عميقا في شلال شعرها، وجسداهما متحدان. شاهدت أخي وثريا يفترقان ببطء ويعبران فتحة النفق الفاغرة فاها. جرى سامي إليهما، وسقط أيمن على ركبتيه. بدا مترددا تقريبا في الضوء الساطع وهو يمد ذراعيه إلى سامي، ويمسك رأسه بيديه، ويجذبه بقوة إلى صدره. كان ثلاثتهم على الرمال معا، كما لا بد أنه كان دائما، وكما لا يمكن إلا أن يكون. بعد لحظة كانوا قد ذهبوا، وأنا عاجز عن النطق في ذلك الممر الطويل الخالي من الهواء، والشاطئ والبحر فارغان فجأة مرة أخرى أمامي، ملتصقا بالجدران الرطبة، مستندا إلى الأطلال.

شء الحنن

جلست المرأة في السيارة البليموث هورايزون الحمراء الصدئة في الناحية الأخرى من الشارع مع الطفلين. لفترة أبقت المحرك دائرا، وتمكنت مورجان من رؤية العادم، تيار ثابت من الأبخرة الصفراء في مقابل كومة الثلج على حافة الرصيف. كان الطفلان -ولد و بنت- ملتقين في معطفين شتويين في المقعد الخلفي. تبادلوا التطلع من النافذة الجانبية إلى شقة مورجان. لكن المرأة لم تكن تنتظر في هذا الاتجاه. أبقت عينيها مثبتتين مباشرة أمامها على الطريق الخالي، على نور النهار الغائم. ومن وقت لآخر كانت المرأة تطفئ المحرك، ويتبدد العادم في العدم، ثم تديره من جديد ليتجشأ الدخان، ربما ليصد البرودة العدوانية.

رغم أن المرأة كانت ملتحفة بوشاح ثقيل، كان بمقدور مورجان أن تتبين أنها سمراء مثل باسم. والطفلان كذلك. بشرة زيتونية في مقابل كل هذا الرمادي والأبيض. كانت مورجان قد احتالت كي تنتزع قصة المرأة من باسم: الطريقة التي تعارفا بها، النزاهات مع مرافق على الكورنيش، كما أسماه، والسير على الشاطئ هناك في مدينته الأم؛ الإسكندرية. تخيلت مورجان وفرة من نور الشمس، ورائحة البحر، وامتدادا طويلا من أشجار النخيل بطول المدينة كلها. سحبت مورجان يديها من الظلال وخطت مترجعة عن النافذة.

كانت قد قابلت باسم في محطة البنزين في طريق عودتها من زيارة آن. كانت قد ملأت خزائنها، ثم دخلت المتجر الصغير لتبتاع كوكا دايت وعلبة من لبان النعناع. بدا باسم وكأنه في نهاية معركة خاسرة مع البرد - بطاقيته الصوفية السوداء وسترته المبطنة الملطخة التي يبدو أنها خذلتها، وذراعاها متقاطعان فوق صدره يحك بهما كتفيه، وهو يلهث خلف العداد. من وراء بروز خشب الفورمايكا المشقق تمكنت من رؤية سخان ضئيل على الأرض بجوار مقعده المستدير. لكن المتجر نفسه من الداخل بدا دافئا إلى حد كاف بالنسبة لمورجان، بالتأكيد لم يكن متجمدا.

“طبقات..” قالت له. “ينبغي أن ترتدي طبقات من الثياب.”

كانت عيناه كبيرتين للغاية بالنسبة لوجهه الرفيع ووجنتيه الغائرتين، وكانت أصابعه طويلة وعظمية. ناولها باقي نقودها.

أدركت أنه نبتة منقولة من مكان آخر. بعيدا عن هنا، أبعد بكثير من المكان الذي جاءت منه، هكذا تخيلت. كلاهما في غير محله. سألته: «أهو شتاؤك الأول في ميلووكي؟»

أوما برأسه وقال: «بارد جدا..» ثم أضاف: «شكرا على اهتمامك.» خرجت الكلمات ببطء، مكفنة بلكنة ثقيلة.

كان حليق الوجه، وسيما، كما رأته، لكن بطريقة حادة، شبه رهبانية. بالغ التقشف والذبول على سنه الذي قدرت أنه لا يزيد عن آخر العشرينات. لكنها انجذبت إليه، إلى نحوه، إلى عينيهِ السوداوين اللتين نظرتا إليها بخليط من اللامبالاة وبشيء آخر أيضا - الدهشة.

عندما زارت أن في دار المسنين، هاجمتها رائحة (فيبريز) مزيل الروائح وهي تهب بضعف لتغالب رائحة البراز. لماذا فقط لم يفتحوا كل النوافذ على اتساعها، حتى لو كان الجو باردا؟ كانوا قد أتوا بأن فوق مقعدها المتحرك إلى مكانها المعتاد قرب النافذة، وهي تتطلع إلى العشب المكسو بالثلج، وصفّ شجر البلوط الذي يحدّ جانب الطريق. كانت قد أنهت غداءها منذ قليل، وأسفل وجهها مائل إلى جانب واحد، وقد مسحته الممرضة ونظفته.

“صعبة المراس للغاية..” قالت الممرضة، فلبينية في منتصف الثلاثينات من عمرها أو نحو ذلك، كما تصورت مورجان. «تحتاج إلى مسح وجهها بعد كل قسمة.»

كانت آن ترتدي سترة السلامة الخاصة بها، وأشرطتها تبقىها معتدلة في المقعد. جسدها مثل وجهها كان مائلا إلى جانب واحد. كان هناك آخرون في الحجرة، لكن مورجان لم تنتبها قط الرغبة في التعرف إليهم، وهم صامتون كعادتهم، كما أنها كانت تفضل عدم الكشف عن هويتها. مشطت شعر أمها الأشيب، وفردت الخيوط الجافة عبر كفها المفتوح. تذكرت شعر أمها كما كان يوما ما - كستائيا وغزيرا، يستقر برقة فوق رقبة شاحبة. كان أكثر ملامحها حسية منذ سنوات، يزين وجهها بنمشه الدقيق فوق قنطرة أنفها. تطلعت أن إليها بعينين زرقاوين دامعتين تقصصتا مورجان للحظة بتعبير عابر من الحيرة، ثم سبحتا بعيدا عنها، واستقرتا فوق فراغ خالٍ وراء كتفها.

كانت مورجان تعمل خلف مكتب استقبال في نُزل على الطريق السريع إنترستيت 94. عملت هناك منذ جاءت من تكساس قبل عام. وكانت قد شغلت وظائف مشابهة في مدينة كوربوس كريستي، وعندما تطلعت خارج النافذة إلى صف شاحنات النقل والشاحنات الصغيرة والعربات المحطمة في ساحة الانتظار الخرسانية، أمكنها تخيل أنها لم تغادر تكساس قط بالفعل، وأنها لم تجد طريقها قط بعد ثلاثة عشر عاما عائدة إلى هذا المكان وإلى أن.

غادرت مورجان مدينة ميلووكي في الصيف الذي تخرجت فيه من المدرسة الثانوية.

“أنت حمقاء..” قالت آن عن رحيلها. “لم تتعلمي شيئا.”

لم تكن آن لتترك ميلووكي. كانت تفهم تضاريس الفرصة بشكل أكثر حميمية من أن تتنازل عن الأفضلية، وكانت جميلة بما يكفي لأن تصمد، وتجذب رجلا أو امرأة، حتى كأم عزباء مكافحة لديها ابنة صغيرة.

“الملل..” كانت قد أوضحت لمورجان، وكأسها من النبيذ المقلب في يد، واليد الأخرى تهش عن عينيها عمودا حلزونيا وحيدا متبدا من دخان سيجارة. وعندما يزداد توترها، كانت تتكوم كقطة فوق الأريكة، وخيوط من شعرها الكستنائي متهدلة فوق جانب واحد من وجهها. «لا شيء أكثر مللا مما يحدث عندما يبدؤون في المطالبة بالأشياء. وكأنهم يملكونك. وكأني حيوان مدجن ما. لكنك تأخذين فقط ما هو أكثر بقليل مما هم مستعدون لأن يمنحوه. وتمنحين فقط ما هو أقل بقليل مما يريدون. وتقلين هذا بقدر ما سيقبلوه، وبعد ذلك تخلصين نفسك منهم.»

كانت مورجان قد كرهت أن بسبب هذا. اشمأزت منها.

انتبه باسم لمورجان في كل مرة كانت تأتي فيها إلى محطة البنزين. لاحظ كيف كانت تتلأأ بين الرفوف الضيقة في المتجر الصغير، فقط لتشتري نفس الأشياء الثلاثة: اللبان أو السجائر أو الكوكا دايت، وأنها كانت دائما تدفع ثمن مشترياتها نقدا. لاحظ أنها طويلة ونحيلة ولها بشرة صافية لا تشوبها شائبة بشكل لم يعتده من قبل. كانت أكبر منه بسنوات قليلة - كان بمقدوره استنتاج هذا. لكن أعجبته سيماء الثقة بالذات التي لديها، الطريقة التي كانت تمشي بها مرفوعة الهامة، وتتنظر إليه مباشرة في عينيه. على عكس بقية الزبائن الذين كانوا على أقصى تقدير يتمتمون بعبارة صباح الخير مكتومة بينما يلقون بمشترياتهم على النضد، وعيونهم تمسح رف السجائر وراءه أو تتطلع من النافذة إلى مضخات الوقود، كانت هي تجعله يشعر بأن وجوده له أهميته.

سألته ذات مرة: «من أين أنت؟»

أجابها: «مصر.»

قالت مورجان: «لم أذهب قط إلى مصر. لقد رأيت صوراً. أحب أن أذهب إليها.»

كان بمقدور باسم معرفة أنها تريد أن تقول المزيد، لكن كان هناك زبائن آخرون الآن مصطفىون خلفها.

قالت: «أحب أن نتحدث معا في وقت ما..»

حاول أن يفكر في شيء ما ليقوله ردا عليها، لكنه لم يستطع أن يجد الكلمات، على الأقل بالإنجليزية. ابتسم، وأوماً برأسه.

في المرة التالية التي رأت مورجان فيها باسم كان يغادر محطة البنزين. الوقت منتصف الليل وهالة الضوء الأصفر القادم من أعمدة الإنارة صبت من جسده ظلا مائلا ضعيفا على كومة الثلج المخططة بالوحل عند حافة طريق دريسكول رود. توقفت بسيارتها الشيفروليه إمبالا البيضاء بينما هو يخوض الطريق منحنيا أمام البرد. ألقى نظرة جانبية إلى السيارة، وتسارعت خطواته قليلا. تخبطت أصابعها بين الأزرار، حتى فتحت زجاج نافذة المقعد المجاور.

«أهلا..» قالت وهي تميل على المقعد المجاور لها، والبخار يتصاعد من أنفاسها في هواء الليل المفاجئ. «تلك أنا فقط مرة أخرى.»

تطلع باسم إليها عبر النافذة المفتوحة، وبدا أنه يحدق عبر الشارع المثلج، إلى الطريق الخالي، والأبنية القليلة المظلمة.

قالت فجأة: «لا أتوقع منك أن تتذكرني...»

قال باسم: «أتذكر..»

«كنت أمر بالسيارة ورأيتك تغادر. يمكنني توصيلك إلى البيت.» مالت مورجان أكثر، ودفعت باب المقعد المجاور لتفتحه.

انزلق باسم إلى جوارها. عادت إلى مسارها على الطريق. سحب حزام الأمان فوق كتفه، وبحث عن القفل في المسافة بينهما، وأثناء هذا احتكت أصابعه بفخذها احتكاكا خفيفا. «أسف..» قال باسم بسرعة، ثم تكتك القفل منغلقا، وجلس نصف منحن في مقعده، ويداه بين ركبتيه.

قادت في صمت لبضع دقائق. الطريق أمامها خالٍ، والأسفلت الأسود مؤطر بحاجز الجليد على كل جانب، وفي الأعلى وميض أضواء الشارع.

قالت مورجان أخيرا: «هل أتحرك في الاتجاه الصحيح؟»

أوما باسم برأسه وأشار بيده بما يعني أنها ينبغي أن تستمر في القيادة.

قالت مورجان: «هل أنت هنا منذ وقت طويل بما يكفي لأن تعرف أن الصيف قادم قريبا؟»

نظر باسم إليها الآن. حلقت عيناه السوداوان للحظة فوق وجهها. «لا. شهران فقط.»

«ستحب الصيف هنا.» أجابته مورجان بسرعة. «كل شيء تبعث فيه الحياة. هناك شيء يُدعى مهرجان الصيف. يظل الناس في الخارج إلى وقت متأخر من الليل يستمعون إلى الموسيقى الحية ويشربون البيرة. بل ويكون نور الشمس موجودا حتى وقت متأخر من المساء. يكون الجو دافئا. يكون سهدا. لو أنك معتاد على مثل هذه الأشياء.»

تقلقل باسم قليلا في مقعده، وتطلع من نافذته. «اليمين القادم من فضلك.»

انعطفت مورجان وفقا لتوجيهاته وأمامها كان بمقدورها أن ترى مجمعا سكنيا واطئا من شقق معتمة مبنية بالطوب الخرساني.

«هنا من فضلك..» أشار باسم إلى أنها ينبغي أن تتوقف قبل المجمع ببضع مئات من الياردات. حرر نفسه من الحزام ونزل من السيارة وقال: «ليلتك سعيدة.»

راقبته مورجان وهو يسير مبتعدا للحظة. هذه المنطقة، ومحطة البنزين، كلها قريبة جدا من حيث عاشت، مسافة ميل على أقصى تقدير. كانت عوالمها متداخلة فعليا. لعله يسير إلى جوار شقتها جيئة وذهابا إلى عمله. بحثت مورجان في محطات الراديو، وعثرت على أغنية قديمة لبوب سيجر وهي تبدأ، واستدارت بسيارتها عائدة.

كانت دينا والطفلان نائمين، لذا سار باسم بهدوء عبر غرفة العائلة الصغيرة ودخل المطبخ. أطل داخل الثلجة بحثا عن العشاء الذي كان يعرف أن دينا قد أعدته من أجله. وجد سلطانية سلطة الخيار والزبادي المرشوشة بالفلفل الأحمر. التهم وهو ما زال واقفا ملاعق ممتلئة بإفراط بالزبادي، بينما كان يسخن طبقا من الكفتة والأرز في الميكروويف. أعد شايًا، ساخنا ومُحلى، وبعد ذلك جلس إلى

مائدة المطبخ ليتناول بقية وجبته. ومن جيب سترته أخرج مفكرة صغيرة وقلمًا. فرَّ بصبر نافذ الصفحات المكتوبة بخط متعجل في المفكرة حتى وصل إلى ورقة خالية، وبعد ذلك توقف للحظة قبل أن يكتب التاريخ بالعربية في ركن الصفحة الصغيرة. ثم بالعربية أيضا بدأ يكتب على هامش الصفحة الأيمن:

استبدال الزيت في السيارة

مراجعة رصيد الحساب

حذاء جديد لعابدة ووليد؟ أم لعابدة فقط؟

البحث عن وظيفة أخرى؟

مكالمة توفيق بشأن تحويل المال من بنك الإسكندرية

أغلق المفكرة، ونهض عن المائدة وكوَّم الأطباق بهدوء في الحوض. انسل إلى الحمام وغسل أسنانه بالفرشاة. من باب حجرة النوم كان بمقدوره أن يتبين خطوط جسد دينا في سريرهما. خلع ثيابه في الضوء الخافت وزحف إلى جوارها. تحركت قليلا لكنها لم تستيقظ. كانت ما زالت غاضبة منه لأنه أتى بهم إلى هنا.

«هذا المكان المتجمد..» قالت. «هذا البلد المهجور المتجمد الذي نفيتنا إليه.»

كانا يتكلمان الآن أقل مما كانا يتكلمان من قبل، وجُلَّ اهتمامهما موجه للطفلين، والعمل على الحياة اليومية يملأ الفراغ بينهما. وفي اللحظات السابقة على النوم استحضر فقط صورة مبهمة لشعر بني، ناعم وكثيف، مطوي إلى الوراء خلف أذن واحدة، وعينين خضراوين، وقرط صغير، وبشرة مثل البورسلين. تلك المرأة الأخرى، مجهولة الاسم ما تزال، التي تقود سيارتها وحيدة عبر الشوارع المظلمة. أحس باللمسة القصيرة لفضها على أصابعه، وتعرف على التعبير الذي لاح على وجهها عندما دخلت السيارة إلى جوارها - شعور بالارتياح، وكأنها تخففت فجأة من عبء وحدتها.

لم تتمكن مورجان من النوم. لذا بدلا من التوجه إلى البيت قادت سيارتها جنوبا على الطريق السريع إنترستيت 94 نحو مدينة راسين، وأغنية بوب سيجر (بحيرة النار) ما زالت تتردد في الراديو. باستثناء شاحنات النقل المتفرقة التي كانت تندفع إلى جوارها، كان الطريق السريع مهجورا. كانت هناك أكوام من الثلج منزاحة على جانب الطريق، سميقة ومتكتلة ومخططة بالوحل، وفيما وراء ذلك امتدادات فسيحة مظلمة من الأرض المنبسطة.

كانت قد قضت الليل مع آن على طول جانب هذا الطريق السريع ذات صيف منذ سنين عديدة، متكومتين سويا في المقعد الخلفي لسيارة آن الفورد سييرا القديمة. في اليوم السابق كانت مع آن في بيت لقضاء العطلات قرب بحيرة ميشيجان في راسين. لم تستطع أن تتذكر اسمه الآن - جيف أو جاي كما ظنت. آن جالسة إلى مائدة الطعام العريضة قرب النوافذ الفرنسية، في فستان أزرق فاتح،

وشعرها مرفوع ومثبت بالدبابيس، وعقد من اللؤلؤ حول عنقها - هدية من الرجل الذي جلس مبتسما أمامها. ووجهه المتورد العريض يزداد لمعانا في ضوء الشموع.

تساءل: «هل يعجبك؟» ونظر إلى أن من فوق كأس نبيذه.

هتقت أن: «هل يعجبني؟»

“أمك امرأة جميلة..” قال محولا عينيه إلى مورجان. “يا إلهي!”

ضحكت أن: «مورجان، ينبغي أن تذهبي إلى الفراش يا حبيبتي. الوقت متأخر.» صحبتها إلى حجرة النوم في آخر الصالة، ودستها في الفراش. «سأراك في الصباح..» قالت وهي تطفئ النور وتغلق الباب. كان بمقدور مورجان أن تسمع صوتيهما خارج بابها.

“أسفة، لم أستطع العثور على جليسة أطفال بأي شكل.”

ثم، في لحظة ما تلك الليلة، تذكرت أن وهي تندفع إلى داخل حجرتها. وتمكنت من سماع صوته يرتفع في الخارج.

“نحن بحاجة للرحيل يا حبيبتي..” همست أن، وهي تحتضن مورجان. لفت مورجان ساقها حول خصر أن، ويدها تتشبثان بشريط حمالة الصدر المكشوفة في ظهر أن. سقط شعر أن حول وجهها. كم كانت رائحته حلوة!

كان قادمًا من خلفهما وأن تهزول بها عبر الصالة خارجة إلى السيارة، وسيل من الكلمات يتدفق من فمه. تعثر، واستند بجسده إلى الجدار. «أخرجني إلى الجحيم. فقط أخرجني من هنا إلى الجحيم.»

وبعد ذلك كانتا تتطلقان بسرعة في الليل. أن تتشج، تضرب بقبضتها على عجلة القيادة، تقود عائدة إلى ميلووكي حتى نفذ البنزين، وطقطق المحرك، وأوقفت أن السيارة على جانب الطريق السريع، وبكت بهدوء في الظلام.

نادتها مورجان، وقالت أن: «طفلاتي. يا طفلاتي. أنا أسفة جدا. أنا أسفة جدا.» ثم حملتها إلى المقعد الخلفي، ورقدت هناك معها حتى انبجج النهار.

وكأنه أمر عارض، ناولت مورجان قطعة مطوية من الورق إلى باسم من فوق النضد، فوق النقود التي دفعتها ثمنا لمشترياتها من الكوكا دايت واللبن. عليها كتبت بسرعة: نحن جيران، وأسفلها عنوان شارعها واسمها الأول ورقم هاتفها المحمول. في البداية ظنت أنه لم يلاحظ. ثم شاهده وهو يلقي نظرة إلى الورقة ويدسها في جيب بنطاله. لو كان هناك أثر لأي شيء على وجهه فقد كانت الحيرة. لمحة من الذعر.

“يومك لطيف..” قالت له برقة. ابتسمت وهي تقول هذا، ورأته يسترخي قليلا. خطت إلى الخارج وسارت إلى المضخة التي أوقفت سيارتها عندها. كان بمقدورها رؤية باسم عبر نافذة المتجر الصغير. كان قد التفت ليراقبها. وعندما التقت عيونهما رفع يده ولوّح.

سمعت مورجان الطريقة على باب شقتها. كان باسم قد اتصل برقم هاتفها المحمول أثناء وقوفه خارج البناية وضغطت على زر فتح الباب الرئيسي له. كانت ترتدي بيجامة خفيفة، وتدخن سيجارة، دون أي توقع لأن يتصل بها أصلاً. كان تلفازها مفتوحاً، وانفجر صوت الضحك المسجل من عرض ليلي متأخر كانت تشاهده عندما فتحت الباب.

“هاللو..” قالت.

“هاللو..” أجابها بلكنته الثقيلة.

“تفضل..”

لم يتحرك لكنه نظر إليها قليلاً، وانخفضت عيناه السوداوان النديتان بسرعة إلى قدميه. حذاء عمل بال، وطبقة من الوحل والجليد على طرف فردة منه.

“ينبغي أن تخلعها.” قالت، وأحست على الفور بالندم على قولها ذلك.

بحرج واضح غمغم وجثا على ركبتيه ليحل أربطة الحذاء وخلعه بقوة. جورب صوفي رمادي. وبنطلون جينز حائل لكنه نظيف. فتح سحب سترته المبطنة لتكشف عن كنزة ثقيلة ضيقة الرقبة.

مدت يديها إلى الحذاء قبل أن يتمكن من إيقافها، وخبطت الفرديتين معا لتجلو القذارة، ثم صفتها بعناية جنباً إلى جنب أمام الباب تماماً.

“ادخل..” قالت. أمسكت بكفه البارد براحتيها الاثنتين، وأحاطتها بإحكام وكأنها تطرد البرودة عنها، وقادته إلى الأريكة في حجرة جلوسها الصغيرة. مدت يدها نحو الريموت وأسكتت التلفزيون، إعلان عال الصوت - شابة ترتدي فانلة ضيقة بدون أكمام وشورت جينز مقطع الحواف على شاطئ في مكان ما، رأسها مائل إلى الوراء وهي تشرب من علبة سودا برتقال، في وهج ساطع من نور الشمس، وسط جمع من الأصدقاء محتشدين حولها.

سألته مورجان: «هل يمكنني أن آتي لك بشيء؟ هل أكلت؟ يمكنني أن أصنع لك ساندويتش.»

هز باسم رأسه. لكن مورجان نهضت على أي حال. وقالت: «سأصنع لك ساندويتش.»

راقبها باسم وهي تعمل في المطبخ على مبعدة بضع خطوات.

قالت: «لدي بعض من صدور الرومي، أو لحم خنزير مدخن. هل تود لحم الخنزير؟»

قال باسم بحدة: «ليس لحم الخنزير من فضلك.. من فضلك.»

ضحكت مورجان. «لا بأس إذاً. أظن أنك لا تحب لحم الخنزير. فليكن الرومي.»

“ديانتي..” قال وكأنه يحاول أن يوضح الأمر.

“لا تقلق..” قالت مورجان. “هل يمكنك أن تأكل المايونيز؟ ألا توجد مشكلة بالنسبة للمايونيز مع

ديانتك؟ وماذا عن الطماطم والمخل؟»

قال باسم: «أشكرك.»

«لديّ فقط (بَدْ لايت)..» قالت وهي تجذب علبة بييرة من الثلاجة. «أسفة لا يوجد شيء أروع.»

قال باسم: «لا بييرة، أسف.»

تساءلت: «مسألة دينية أيضا؟»

«نعم.»

«أي ديانة تلك؟»

«مسلم.»

«بالطبع..» ضحكت مورجان. «غلطتي. أنا أعرف نوعا ما كل هذا. نوعا ما. على الأقل ما يوجد في الأخبار.» توقفت عن الحديث ثم أضافت: «لا بد أنك تعتقد أنني مجرد أمريكية غبية أخرى.»

هز باسم رأسه اعتراضا. ضحكت مورجان مرة أخرى. «أنت لطيف جدا..» قالت وهي تنظر إليه من فوق كتفها.

ناولته طبقا به ساندوتش الرومي وكوب من الماء. قالت: «أسفة، نفذت الكوكا من عندي.»

راقبته وهو يأكل. كان يأخذ قضمات كبيرة من الساندوتش، ويبلع كل لقمة بالماء.

سألته: «ما اسمك؟»

«باسم.»

وقالت: «كيف تنهجي ذلك؟»

وهكذا تهجي لها اسمه.

«أنا مورجان..» ومدت له يدها.

«نعم..» أجابها. «لقد كتبت ذلك.»

صافحها وبعد ذلك بدأ الاثنان في الضحك. بدا لمورجان أن تلك قد تكون أول مرة يضحك فيها أي منهما منذ شهر.

عندما انتهى من الأكل أخذت الطبق ووضعتة في الحوض. فتحت الصنبور للحظة ثم عادت وجلست على الأريكة إلى جواره.

قالت: «باسم، لا أريد أن تسيء فهمي.»

بادلها باسم النظرة وقال بهدوء: «من أنت؟ ماذا تريد مني؟»

«ماذا أريد منك؟» كررت مورجان. «لا أعرف. رأيتك في محطة البنزين تلك المرة. الطريقة التي كنت ترتجف بها.» توقفت للحظة، ثم قالت فجأة: «عدت إلى هنا منذ عام. عدت من أجل أن. أمي. أصيبت بورم في المخ، ثم بعدة سكتات دماغية وأردت أن أكون بجوارها. أنا من هنا. في الأصل. لكنني رحلت منذ زمن طويل جدا. لم أعد أعرف المكان حقا. لقد نسيت الشتات. كيف تكون.»

صُدم من الطريقة التي أشارت بها إلى أمها باسمها الأول. صُدم مما أحسه دائما في هذا البلد. اتساعها. كيف بدا الناس منجرفين عبرها. بلا مرساة.

قالت: «لماذا جئت إلى هنا؟»

نظر إليها نظرة حائرة. «أمريكا؟»

«طبعاً، وهذا أيضاً.» أجابته. «لا يهملك. احك لي عن مصر.»

سار نحو النافذة. في الخارج كانت هناك مساحة ضيقة من العشب مغطاة بالثلج، وشارع مظلم. بين وقت وآخر كانت تندفع سيارة، وأضواؤها الأمامية سابحة في العتمة. أخيراً قال: «ليست الشوارع خالية هكذا..»

ضحكت مورجان. «لا بأس؟»

قال: «عليّ أن أعود إلى زوجتي وطفلي.»

«دعني أوصلك.»

«يمكنني المشي. أحب المشي. ليس المكان بعيداً إلى ذلك الحد.»

نهضت وسارت معه إلى الباب. قالت: «هل سأراك مرة أخرى؟» رأته متردداً، فأضافت بسرعة وبابتسامة: «لا بأس. في محطة البنزين. سأراك هناك.»

بدأ بالرغم من أنه تقريبا زيارتها بشكل منظم، لساعة أو اثنتين عندما تنتهي نوبة عمله وقبل أن يعود إلى البيت وإلى زوجته وطفليه النائمين. فكر ماذا سيكون رأي عائلته فيه هناك في مصر. لكن ماذا يمكنهم، هم المحاطون بكل شيء مألوف لديهم، أن يفهموه عن الحياة التي يعيشها الآن؟ لطالما أحس باليأس من هؤلاء الذين يتحدثون بكل هذه الثقة والأريحية عن الطريق المستقيم، طريق الصلاح. شاعرا بالاضطراب وعدم التحقق والاعتماد على الآخرين، كان قد وضع اسمه في يانصيب البطاقة الخضراء. وأفلح الأمر على نحو إجازي وغير مفهوم.

كانت مورجان تعد له ساندوتشات الرومي أو الروزبيف مع المايونيز أو المسطرده أو كليهما، ومع الطماطم والخس محشويين بين طبقتي الخبز الأبيض. وقطعة من المخلل في كل جانب. وصنعت له بضع مرات قرص بيض بالجبن وعش الغراب والفلفل الأخضر. قدمت له الكوكا كولا في البداية ثم انتقلت إلى الشاي الساخن الذي كان يفضله. لم تأكل معه قط. كانت تدخن سجائرهما وكان هو يحضر لها علبة من المتجر الصغير - علبة (بول مول)، وأحيانا علبة (بنسون وهيدجز). كانت تحب النوعين

بنفس القدر، وكان هو يبذلها بطريقة عشوائية مع كل زيارة. كانت تلك مساهمته وكان يدخن معها، في البداية على الأريكة أمام التلفزيون المكتوم الوامض، وبعد ذلك في فراشها عندما اعتادا على الرقاد جنباً إلى جنب.

“لماذا تأتي إلى هنا؟” سألته مرة أخرى ويدها تلمس يده.

قال: «هنا أمان وسلام. هدوء.» والتفت ليواجهها. “أنت لي إغراء.”¹²

ضحكت مورجان: «هل يعني هذا أنك معجب بطبخي؟»

“لا.”

“إذاً ماذا يعني هذا؟”

قال: «أنتِ تغرينني.»

رقد باسم فوق الأغطية في كامل ملابسه، دون حراك، غير واثق مما هو متوقع أو مسموح. وهكذا كانت مورجان التي مدت يديها تحت منامتها وخلعت سروالها، ثم ركعت إلى جانبه وهي تفك ببطء أزرار قميصه، وشفاتها تتبعان خطأ مبتلا إلى سرته، ولسانها يقوم بغزوات سريعة مفاجئة أسفل حزام بنطاله الجينز. حاول أن يركز تفكيره بعيداً عن دينا. حتى في أكثر لحظاتها حميمية معا في حجرة النوم الصغيرة المطلّة على شارع بورسعيد في الإسكندرية، والستائر مسدلة في مواجهة غبار وشمس الأصيل، والأصوات الصاعدة من الشارع بالأسفل تتسرب إليهما، كانت تغطي عينيها بساعدها، وتتنظر منه أن ينتهي وكأنها أضحية. فيما بعد، كانت تتوسل إليه كي لا يهاجر، وهددته بالبقاء مع الطفلين. «نبقى من أجل ماذا؟» كان يجادلها، وبعد ذلك يلوح بذراعيه حوله في حنق: «من أجل هذا؟ من أجل مخيمنا المكون من حجرتين في بيت أبيك!»

“لطالما كان لدينا مكان خاص بنا..” قالت مورجان وأضافت مع ضحكة: “أكثر مما يمكن الحصر في الحقيقة.”

تابعها باسم وهي تحكي كيف كبرت مع أن، عن الصف الطويل من الشقق مدعومة الإيجار والصف الأطول من العشاق. حاول أن يتخيل هذه الحياة المختلفة تماما عن أي شيء عرفه من قبل. أراد جزء منه أن يسألها: هل كانت أمك عاهرة؟ ألهذا أنت على هذا الحال؟ لكنه لم يسأل، مدركاً أنه بطريقة ما في هذه الأرض الغربية الجديدة، كانت القواعد ذات طبيعة لا يمكنه فهمها أو الإحاطة بها.

كانت منامتها نصف مفتوحة من قُبُل، كاشفة عن نهد أبيض مشدود. مال بفمه على تلك الفتحة، ولمس بشفتيه الجلد العاري. كانت دينا لتجذب منامتها كي تغلقها، لكن مورجان لم تبال - بل استمرت في الكلام. «بعد المدرسة الثانوية ركبت جرابهاوند جنوباً إلى أوكلاهوما. أردت الجنوب والغرب. كان ينبغي أن أذهب إلى كاليفورنيا. لكنها بدت أبعد من الإمكان.» سحبت نفساً من سيجارتها، ومررت قدمها على ساقه العارية.

“ما هو جرابهاوند؟” تمتم، ووجهه مدفون في صدرها.

«آه، الأوتوبيس. شركة أوتوبيسات. أخذت الأوتوبيس طوال الطريق إلى أوكلاهوما. إنها قرب تكساس.»

كان يعرف تكساس.

«قررت أن أكون ممرضة. عملت في مقهى صغير خارج الحرم الجامعي في نورمان. كنت سأدخر المال، وأخذ بضع دورات دراسية. كل هذا يبدو الآن وكأنه كان منذ زمن بعيد. ومع ذلك أتذكر شباب الأسر الجامعية. هؤلاء الذين كانوا يأتون إلى المقهى مرتدين قبعات البيسبول وقمصانهم المتعركة والمطبوع عليها كل الحروف اليونانية. الطريقة التي كانوا يتحدثون بها بذلك التشدق الجنوبي البناتي غالبا. كما تعرف..» قالت مقلدة تلك الطريقة، وبعد ذلك توقفت ونظرت إليه. «أو ربما أنت لا تعرف. ربما ليس لديك أي فكرة حتى عما أتحدث عنه.»

تفكر باسم في هذا لحظة وقال: «لماذا كلهم يونانيون، هؤلاء الفتية؟»

ضحكت مورجان وبدأت تشرح، لكنها توقفت عندئذ بنفسها. «ليس مهما. لا يستحق الأمر الشرح في الحقيقة. هم مزعجون وهذا كل شيء. بقيت هناك فقط لفترة. ما يكفي من الوقت لمقابلة دانيال.»

تساءل باسم: «أكان دانيال زوجك؟»

«بلى. كان كذلك آخر الأمر. لبضع سنين. كان قد ترك الدراسة ويعمل مثلي. كان من تكساس. كوربوس كريستي. أراد أن يعود إلى دياره وأرادني أن أذهب معه. وقلت في عقلي: عظيم. إنها حتى مسافة أبعد إلى الجنوب. يبدو هذا جيدا لي. قضيت في كوربوس كريستي فترة طويلة بعض الشيء.»

في البداية أراد أن يسألها عما حدث لدانيال، وأراد أن يسألها إن كان لديهما أطفال على الإطلاق. لكن هذا كان ليغني وجوب أن يخبرها بالمزيد عن دينا وعابدة ووليد أكثر مما أخبرها بالفعل. لذلك لم يسأل. تركها تبدأ وتتوقف متى وأينما أرادت. رقد في سريرها معها، تحت أغطيتها في الظلام، أو في الضوء الخافت الناعم المنبعث من المصباح الجانبي، طوال تلك الساعتين أو الثلاث في آخر الليل، ينصت إليها.

ترك باسم السيارة لدينا حتى تتمكن من قيادتها بالأطفال أينما أرادوا أن يذهبوا. وأبقى الشقة دافئة على نحو خاص رغم أن ذلك كلفه أكثر مما كان يهتم بدفعه لأنه كان يعرف أن دينا تحب ذلك. أبقى الأنوار مضاءة طوال اليوم حتى تطفأ لقضاء الليل. مع حلول الليل كان يطلب منهم أن يتخلوا أنهم في شاطئ سيدي عبد الرحمن أو شواطئ مرسى مطروح، وأن أكوام الجليد ما هي إلا كتبان رملية، وأن الحقل المظلم خلف مجمعهم السكني ما هو إلا البحر. قال ولید إنه سيلبس لباس سباحته فورا ويجري خارجا. قهقهت عابدة وتحدثت أن يفعلها.

ذات يوم سبت، في عطلة نادرة، أخبرهم أنهم لا بد أن يخرجوا جميعا للتمشية معا. قال: «بالضبط كما اعتدنا أن نفعل قرب البحر في ليالي الجمعة على طول الكورنيش.» كانوا يتمشون كأسرة واحدة مارين على الشاطئ بالنصبات التي تباع الذرة المشوية وغزل البنات واللعب البلاستيكية المتدلّية من

خيوط.

هتقت عايدة باكية: «هيا نذهب إلى قصر المنتزه.»

«هذا بعيد للغاية!» قال وليد، مصححا لها، ومشاكسا.

لم تقل دينا شيئا. لم تجادل. ألبست الطفلين معطفيهما وقفازاتهما وكوفيتيهما وقبعتيهما. وانتزعت معطفها من الخزانة. انتظرتة خارج البناية مع عايدة ووليد بينما كان يوصد الشقة بالمفتاح. راقب ثلاثتهم من نافذة حجرة المعيشة، وهم متجمعون سويا في الضوء المعدني. كان بمقدوره رؤية الرصيف الممتد بطول الطريق الذي سيقطعه بطبقته الرفيعة من الطين، وآثار الإطارات الموحلة فوق الطريق نفسه والتي خلفتها الشاحنات والسيارات التي اندفعت عبره.

ما كادوا يصلون إلى محطة مراقبة الوزن لسائقي الشاحنات عند نهاية الطريق، حتى بدأ الطفلان في الشكوى من البرد، عايدة أولا ثم وليد، وأرادوا الرجوع.

«هل أنتما متأكدان؟» قالت دينا وهو تخطو مبتعدة عنهما للحظة. وقفت في مواجهتهما بذراعيها مفرودين، وإحدى يديها في القفاز تلوح حولها نحو الطريق المهجور والمتجمد فجأة، والمداخن الصاعدة من المصانع على البعد، والسماء الكايبية، الواطئة والمكفهرة. «لماذا؟ لماذا تريدان العودة؟ البحر، إنه جميل جدا!» كان صوتها قاسيا وقاطعا.

تجاهلها باسم. أخذ الطفلين كلا في يد وبدأ السير مبتعدا عنها عائدا إلى البيت.

«لماذا؟» هتقت خلفه، وشعرها الأسود يسقط متحررا من تحت كوفيتها الصوفية. «لماذا؟»

حاول الطفلان أن ينفلتا منه، وبدأت عايدة في البكاء من أجل أمها، لكنه أبقى قبضته مضمومة بقوة على يديهما، وهو يكاد يجرحهما في طريقه.

بعد أن استحمت وارتدت منامتها، جلست دينا متكومة على أريكتهم البالية، وذقنها مستقرة فوق ركبتيهما. تعاونتا معا لتجهيز الطفلين للنوم، لكن بعد أن وضعاهما في الفراش تجاهلت باسم. شغلت أسطواناتها بأغاني أم كلثوم وفيروز، بصوتيهما المبحوحين العذبيين الحزينين، وندنت مع الموسيقى. مررت فرشاة في شعرها الكثيف الرطب. في أول وصولهما كانت ترتدي الحجاب التقليدي، مغطية شعرها، لكنها لم تشعر بالارتياح تجاه الطريقة التي كان ينظر بها إليها بعض المارة.

قالت لباسم: «المهم الاحتشام. ألا يجذب المرء الانتباه إليه.»

لذا الآن عندما كانت دينا تخرج، كانت تلف رأسها بوشاح وكأنها تحمي نفسها من البرد. تساءل باسم ترى ماذا سيقرران أن يفعلوا في الصيف.

الليلة، جلس باسم أمامها لفترة وحاول أن يشاركها الحديث لكنها كانت قد أغلقت نفسها في وجهه. استسلم وغادرها وحدها. اطمأن على الطفلين، النائمين الآن، وبعد ذلك سحب معطفه وسار إلى الباب.

«إلى أين أنت ذاهب؟» نادى دينا خلفه.

لم يجبها وهو يخطو خارجا في الليل.

على الأقل لم تأخذ عربة الإسعاف أن إلى مستشفى المقاطعة في مدينة واوتوسا، هكذا فكرت مورجان. شقت طريقها إلى مستشفى سان جوزيف في شارع ويست تشامبرز. صفت سيارتها وصعدت الدرجات إلى داخل المستشفى. مشت فوق البلاط اللامع، مفكرة أنها تفضل هذه الأجواء من ناحية البناء والغرض، هذا الشكل للبداية والنهاية، عن ذلك المَطهر الفظيع في دار المسنين. كانت آن في وحدة العناية المركزة. طرقت مورجان برقة على باب حجرتها، وبعد ذلك دفعته لينفتح. كانت هناك ممرضة إلى جوار السرير تضبط توصيل أنبوبة ما إلى جهاز التنفس الصناعي.

قالت مورجان: «أنا ابنتها..»

كانت الممرضة شابة، وزنها زائد ببضعة أرطال، ورداؤها التمريضي الرمادي مشدود قليلا بإحكام شديد عبر وركين وفخذين ممثلئين. كان مكتوبا على بطاقة صدرها: ويندي. قالت: «أه، حبيبتي، لقد تناولت أدوية مسكنة ثقيلة الآن. لكن ما زال بمقدورك الجلوس والحديث إليها. أنا واثقة من أنها ستحب ذلك.» أشارت إلى مقعد على الجانب الآخر من السرير.

قالت مورجان: «هل تعرفين ماذا حدث؟»

«أصيبت بنوبة تشنج وبعد ذلك بتجمع دموي في الدماغ.» توقفت ويندي قليلا لتركز على شاشة انطلق صغيرها بغتة، وأسكنتها. «هم يُجرون المزيد من الاختبارات. لقد أجرت أشعة بالرنين المغناطيسي. هل تودين مني أن أدعو الطبيب من أجلك؟ سأرى إن كان متاحا؟» هزت مورجان رأسها. «لا. لا بأس بهذا. سأجلس فقط هنا لبرهة.»

أومأت ويندي برأسها. تحصت مورجان للحظة. وقالت: «أنت تشبهينها. حتى الآن، رغم كل شيء، يمكنني تمييز التشابه.»

قالت مورجان: «قيل لنا هذا.» وابتسمت ابتسامة باهتة.

قالت ويندي: «سأخرج لوضع دقائق. لو احتجت أي شيء هناك ممرضة خارج الحجرة مباشرة.»

في نور الشمس الهزيل الذي تقاطر داخل الحجرة، كان جسد آن يشبه البوصة، وعظام وجنتيها وفكها بارزة على نحو غريب على خلفية الشحوب الأجوف لوجهها. كانت عيناها مغلقتين، وحولهما حلقتان من انتفاخ باهت مكدوم.

قالت مورجان برقة: «أمي، إنها أنا. أنا هنا. لقد عدت إلى هنا. منذ عام يا ماما.»

اتكأت مورجان على ظهرها في جلستها بمقعدها. راقبت الخط المتعرج على الشاشة أعلى سرير آن وهو يسقط من طرف الشاشة ويعاود الظهور بعد ذلك، وإلى جواره ما بدا أشبه بمشكال عشوائي من الأرقام باللونين الأخضر والأحمر. جلست هناك حتى خبا الضوء، حتى استحالت السماء ذاتها إلى اللون الأرجواني ثم الأسود، وغدا الصوت الوحيد في الحجرة هو الأنفاس الميكانيكية لجهاز التنفس

الصناعي - شفت ونفخ الزفير والشهيق بدا أشبه بشكل آخر من الحياة، شكل من خارج الكوكب أو من تحت الأرض.

صب باسم لنفسه فنجانا من القهوة. كان الوقت ضحى يوم أحد وسيكون عليه أن يغادر إلى العمل قريبا. كانت دينا قد ذهبت في وقت سابق للتسوق، وأخذت الطفلين معها. رأى باسم قطعة ورق وهو جالس إلى مائدة المطبخ، ميزها على الفور، وفهم ما كانت تعنيه. كانت رسالة مورجان القديمة المكتوبة على عجل وتحتها خط دينا بالعربية: مين هي؟

أنزل قذح قهوته والتقط الرسالة. طواها ووضعها في جيب بنطاله. تساءل منذ متى وهي في حوزتها. ماذا تعرف غير ذلك. شعر فجأة بالإرهاق، وكأن آخر خيط من طاقته قد انحل وانفلت في الهواء. أراد أن يتمدد، ويغلق عينيه. كان عليه أن يذهب إلى العمل. بمقدوره أن يؤلف قصة لدينا. بمقدوره فعل ذلك. سيتحدثان الليلة عندما يعود، والطفلان نائمان.

كانت مورجان ترتدي بنطلونها الجينز وفانلة بنصف كم وشبشب، وكان البرد والريح يلسعانها كالسوط. أراحت شعرها عن وجهها وأوسعت خطوها عبر الشارع. كانت عايذة أول من رأتها. اتسعت عيناها مع اقتراب مورجان، وبدأت أصابعها تدق على نافذة السيارة وهي تقول شيئا لأمها التي جلست متصلبة دون حراك في مقعد القيادة. ثم التفتت دينا ونظرت مباشرة إلى مورجان. رأت مورجان عينيها السوداوين، وامتلاء شفثيها، وحل ارتخاء مفاجئ على كتفيها الضيقين.

ثم لمحت مورجان باسم قادما نحوهم عبر الطريق. خطواته تتسارع ثم تتحول إلى هرولة. صائحا. رأت هيكل دينا ينحني إلى الأمامي وهي تدير مفتاح التشغيل. صاحت بها أن انتظري من فضلك، واندفعت لتقترب أكثر في المسافة الباقية التي كانت تفصلها عن دينا، وعن الطفلين اللذين جفل وجهاهما، مرتبكين، ومنضغطين إلى الزجاج. لكن السيارة كانت تتحرك بالفعل، والأرصفة زلقة، والطريق مثلج. أما وقع خطوات باسم الثقيلة، فكان يتردد نبضا في صدغي مورجان، وكأنه يطأها شخصيا.

12- بالعربية في الأصل.

مشتل الخضروات

لم تشعر سالي دومًا بخيبة الأمل تلك تجاه طرابلس؛ بل إنها ذات مرة تخيلت خلاصا معيناً. «شمال أفريقيا!» كانت قد أعلنت لجين وموراي وهم مجتمعون حول فطائر التفاح المحلاة والقهوة.

«هل يمكنكما أن تصدقا هذا؟ مايك يعود إلى البيت ويقول إننا سنتوجه إلى طرابلس!»

تساءلت جين: «أين هذه بالضبط؟»

قال موراي: «ليست مكانا قريبا من إدموند، أو كلاهوما.»

قالت سالي: «بحثت عنها في خريطة. إنها على قمة أفريقيا، في شمال ليبيا، أعلى الصحراء الكبرى. قرب البحر. يقولون إن بها أطلالا. أطلال رومانية.»

هز موراي رأسه متحيرا. «لا مزيد من (لاكي دي) بالنسبة لك.» قال أخيرا. كان يعمل مدير وردية هناك. وكانت سالي تعمل على خط الفحص. دوريات مختلفة، هكذا كانت سالي تقول دائما، وكان زملاءهما في العمل كانوا مهتمين.

«نعم!» ردت سالي مبتسمة بابتهاج. «يمكن لشخص آخر أن يحشو أكياس التسوق تلك.»

لكن بعد ذلك جاءت أسابيع عيشها وحيدة عندما كان مايك في الصحراء، والمساحات القاحلة، والعواصف الرملية التي كانت تهب من الصحراء القاسية مثل سرب من الجراد -كفن بني أغبر، واطئ ومنذر- كل هذا تركها مضطربة، عصبية. تاققت إلى الحياة التي تركوها خلفهم، إلى حيهم المريح ببيوته البنغالية ومروجه المنسقة، وتريثور يركب دراجته في طريق ممهد بلا حفر، به إشارات مرور وعلامات توقف.

طوال الأسابيع العديدة الماضية، كانت تسمع صوت حركة سريعة واحتكاك في وقت متأخر من الليل. قال مايك إنه جرد، وقبل مغادرته طرابلس إلى نوبة عمله في الصحراء، وضع سُمًا في أماكن استراتيجية مختلفة حول البيت. والآن، وهي ما زالت دائخة من أثر النوم، ظنت أنها تسمع الصوت مرة أخرى، ثم أدركت أن أحدا ما ينقر على شباك حجرة نومها.

توهج منبها معلنا الساعة صباحا بضوء أحمر دموي، وتناهى إلى سمعها صوت طرطشة الماء التي يحدثها تريثور تحت الدُش، وهو يستعد للذهاب إلى المدرسة.

زحفت سالي خارجة من الفراش وسحبت الروب الذي علقته فوق المقعد إلى جوار منضدة السرير الجانبية. أزاحت ستائر حجرة النوم ليستقبلها وجه عبد الله الذابل، عبد الله بستاني حديقته. أشار إلى حنفية الماء عند حافة الساحة. تحرك فمه، كاشفا عن صف من أسنان صبيغها التبغ، ورغم أنها لم تتمكن من سماع ما كان يقوله، إلا أنها خمنت المشكلة.

صاحت سالي: «تريثور يأخذ دُشا. سيخرج خلال دقيقة. سيعود ضغط الماء خلال دقيقة.»

أشار عبد الله مرة أخرى إلى حنفية الماء.

“دقيقة واحدة..” زعقت سالي مرة أخرى، وهي تمرر يدها في شعرها المنكوش.

ابتسم عبد الله، وهز كتفيه، وسار مبتعدا على مهل.

بعد قليل، ظهر تريثور، وثمة منشفة ملفوفة حول خصره. «ما كل هذه الضجة؟»

أجابته: «عبد الله.»

أدار تريثور حدقتيه وقال متأوها: «إنه مصدر إزعاج حقيقي.»

بعد أن أخذت دورها في الحمام، اغتسلت سالي سريعا، وألقت نظرة على وجهها في المرآة، وأعملت الفرشاة بهمة في شعرها، ومدت يدها إلى ماكياجها. ألقت على جسدها بنطلونا من الجينز وتيشيرت، ثم أطلت برأسها من الباب الأمامي، لكن عبد الله لم يكن موجودا في أي مكان يمكنها رؤيته. كان الهواء المغبر يزداد دفئا بالفعل.

قال تريثور: «إنه في الساحة الخلفية، يمكنني سماعه.»

“لا بأس. سأحدث إليه سريعا. بعد ذلك سننطلق إلى المدرسة.”

“لست متعجلا.” قال تريثور. ألقى بحقيبة ظهره على كتفه ومر من جانبها متمهلا إلى الخارج.

وقف عبد الله في منتصف الساحة الخلفية يسقي مزروعاته من الطماطم وأعواد الذرة. عندما انتقلوا في البداية إلى هذا البيت كانت الساحة الخلفية خرابة، كلها تراب وحشائش. حاول مايك أن يشتغل على الأرض، لكن التربة كانت صخرية ولم ينمُ بها شيء. على أي حال، كان مايك في الصحراء لمدة ثلاثة أسابيع من كل شهر، وكان كل ما يفعله عبد الله عندما يرحل هو أن ينتزع الحشائش كيفما أتفق. لذا عقد مايك اتفاقا معه: أي شيء يمكن لعبد الله أن يزرعه في الساحة الخلفية يمكنه الاحتفاظ به. فانطلق الرجل الضئيل يعمل بحماس مكسرا الصخر، مقلبا الأرض، ناثرا السماد؛ حتى بدأت التربة أخيرا تؤتي ثمرها. كان قد قسّم الأرض إلى قطع صغيرة، وامتلات الساحة الآن بالخضروات. ورغم أن سالي نادرا ما كانت تتردد على الساحة الخلفية، إن ترددت عليها أصلا، إلا أنها في أوقات الظهيرة الحارة كانت تُذكرها بمشغل الخضروات.

“عبد الله!” نادته سالي. “أردت فقط أن أخبرك أن بإمكانك استخدام الماء الآن، لكن طبعا أنت تفعل ذلك بالفعل.”

“نعم، نعم..” أجابها وهو يلتفت ليواجهها.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تُذهل فيها سالي من عينيه. لونها بني غامق، وغائرتان عميقا في وجهه البرونزي الجاف. مؤخرا بدا أنه ينظر إليها وفي نظرتة شيء أقرب إلى ابتسامة متواطئة، وكأنهما ينتشار كان بينهما تقاهما ما.

“حديقتي تبدو جيدة، صحيح؟” قال وهو يخطو تجاهها خطوة، ملوحا بذراعيه في اتجاه حديقة الخضروات.

أجابته سالي: «لقد قمت بعمل جميل في ساحتنا الخلفية.»

«نعم، حديقتي جميلة..» قال عبد الله، كاشفا عن صف سعيد من أسنان بنية اللون.

«ما هذا؟» قالت سالي - نوع ما من المشمّع على الأرض في الطرف البعيد من الساحة قرب السور العالي المشيد من الحجر الجيري الذي كان يفصل أرضها عن أرض جارها.

«من أجل الحديقة..» قال عبد الله.

قالت: «شيء آخر يا عبد الله، لا أريدك أن تأتي مبكرا هكذا. هل تفهم؟ حوالي التاسعة وقت مناسب. نحن بحاجة إلى الماء من أجل الاستحمام..»

تطلع عبد الله إليها بابتسامة سعيدة.

«سأخذ تريثور إلى المدرسة. وسأعود بعد قليل. تأكد من تقليم الشجيرات في الحديقة الأمامية واغلق الماء عندما تنتهي من عملك هنا.»

كانت سالي تستمتع بتوصيل تريثور إلى المدرسة الأمريكية. كان من المريح لها أن ترى مرة واحدة كل هؤلاء المغتربين مثلها. لم يكن من السهل العيش في هذا البلد؛ فبالإضافة إلى التراب والحرارة العالية، كان هناك أيضا غياب التليفزيون والهواتف أو حتى الجرائد باللغة الإنجليزية. ناهيك عن انقطاع الماء والكهرباء من وقت لآخر. وكان من الصعب عليها ألا ترى زوجها إلا قليلا هكذا، ألا تستيقظ إلى جواره كل يوم، ألا يمارسا الحب في الصباح؛ وهي العادة التي أصبحت لفترة -أثناء استعدادهما لمغادرة أو كلاهما- أقرب إلى روتين يومي. تساءلت ترى ماذا يفعل وحده هناك في تلك الصحراء الجرداء في نهاية يوم العمل. كانت سالي قد سمعت قصصا عن نساء أجنبيات يجري شحنهن، وتساءلت إلى أي حد كان هذا صحيحا. تخيلت نصف دسنة أو نحو ذلك منهن يرتطن ببعضهن البعض في ظهر شاحنة مكشوف وهي تهدر متجهة نحو الرافعة حيث ينتظر الرجال. لكنها هدأت نفسها بفكرة أن مايك كان رجلا نزيها صالحا، يكسب الآن مالا جيدا، يكفي لشراء سيارة جديدة تماما، مازدا فضية، وليست مستعملة. مال يمكنهم أن يعودوا به إلى أو كلاهما ويعيشوا جيدا، مال من أجل تعليم تريثور الجامعي. بل لديها بستاني حديقته وعاملها الحرفي طوع إشارتها. في البداية كانت قلما تتعامل مع عبد الله، غير واثقة من وضعها في هذا البلد، مترددة في توجيه الأوامر إلى هذا الرجل، غير معتادة على ذلك الامتياز المفاجئ في كل شيء. سخر مايك من قلة جرأتها. في هذا البلد، أنت الآن الزعيم؛ كما قال. اعتادي على ذلك. اعطيه توجيهاته. تكلمي معه عندما يخطئ، وإذا رد عليك بوقاحة فقط دعيني أعرف. وذات مرة عندما كان عبد الله يحشو بفضاظة حمولة جديدة من الزباله في حاوية النفايات المعدنية الممتلئة بالفعل على جانب الطريق، انفجر الكيس البلاستيكي الذي كان يتعامل معه، وانسكبت محتوياته في كومة مبتلة من مرشحات القهوة اللزجة والعلب المفتوحة وبقايا الطعام. اندفعت سالي نحوه وصاحت: «يالها من فوضى! نظف هذا الآن.» التقت نحوها، وثمة نظرة مفزوعة على وجهه المبتسم دائما، وسقط بسرعة على ركبتيه مادا يديه نحو الزباله. راقبته للحظة، مشلولة بإحساس مفاجئ من الخزي الجارف. ثم اندفعت إلى داخل البيت عائدة بجاروف ومكنسة، مدتهما إليه. «إليك..» قالت «خذ هذين. أنا أسفة.»

أوقفت سالي السيارة خارج المدرسة وقبّلت تريثور قبلة سريعة على خده.

مسحها بظهر يده. «ماما!»

«أراك لاحقاً يا حبيبي.» هتفت وهو يقفز خارجاً من السيارة، ويعدو نحو بوابة المدرسة المصنوعة من الحديد المشغول الأزرق.

كان تيار ثابت من الأطفال يسير عابراً بوابة المدرسة. أطفال أمريكيون، وحفنة من البريطانيين والكنديين؛ في موكب متدافع من قبعات البيسبول، وقمصان كرة القدم، وحقائب ظهر من كل شكل ولون يمكن تخيلهما. مختلفون للغاية عن الأطفال المحليين. كان الأسوأ منهم موجودين حيث يعيش عبد الله، مدينة الصفيح؛ هكذا كان الأمريكيان يسمونها، حيثُ من الأكشاك الصدئة على مبعدة بضع مربعات سكنية من بيتها، يمتد جلياً حتى البحر. كان أطفال هذا الحي يهرولون دائماً في عصابات متراصة وكأنهم يبحثون عن المشاكل. تعرضت سيارة ليندا صديقة سالي إلى الرجم بالحجارة مرة عندما قادتها عبر المكان بدافع الفضول، وتهشم الزجاج الخلفي.

قال مايك إنه الجهل. كان لديهم المال. كل شخص في هذا البلد اللعين لديه المال. هم فقط معتادون على تلك الحياة البدوية. لولانا، لما عرفوا ماذا يصنعون بكل هذا البترول. كان سيظل فقط مدفوناً هناك، هكذا كان يقول دائماً. لكن أكثر ما كان يحير سالي هو النساء. ملفوفات في جلابييهن القطنية، مغطيات كل شيء إلا عينا واحدة. كان مايك يسميهن السيكلوبات ذوات الأعين الواحدة. كفوفهن مكسوة بحناء سوداء مثل الطين، وأعلى حواجبهن وشوم زرقاء باهتة. يمكن لرجل واحد أن يتزوج أربعاً منهن. ومضت في ذهنها صورة مفاجئة للزوجات الأربع كلهن عاريات معاً، تلال من اللحم تنصهر في بعضها البعض.

«سالي؟»

«أه يا إلهي! ليندا! أفر عتيني.»

تطلعت ليندا تيرنر إلى سالي عبر نافذة المقعد الأمامي المفتوحة وضحكت. كانت في أوائل الثلاثينات من عمرها، أصغر من سالي ببضع سنوات، خميرية جميلة لها ابتسامة مريحة. كانت اليوم قد ربطت شعرها على شكل ذيل حصان. مالت على السيارة، وذراعاها المكشوفان نحيلان ومصطبغان بالسمرّة في ثوبها الصيفي. لطالما تشككت سالي في أن مايك، عند ذكر ليندا في الحديث، مغرم بها قليلاً.

«لقد أنزلت للتوّ كلير وبرين. هل أنت بخير؟»

«أنا بخير..» قالت سالي. صممت قليلاً، وتفكرت للحظة في احتمالات اليوم الحار الفارغ أمامها. «ماذا عن القليل من الشاي المثلج، في بيتي؟»

هزت ليندا رأسها وقالت: «كنت لأحب ذلك لكن جريج سيغادر بعد الظهر إلى الصحراء. لكن أتعرفين؟ أخطط للذهاب إلى السوق التركي غداً، لأبتاع مخزون البقالة. أتريدين القدوم؟»

«بالتأكيد..» قالت سالي وحاولت ألا تبين خيبة أملها.

“سأتي لأفلك في التاسعة إذا. سنذهب باكرا. نتجنب حرارة بعد الظهر.”

أومات سالي برأسها. «التاسعة لا بأس بها.»

في طريق عودتها إلى البيت توقفت سالي من أجل البنزين. وأثناء قيادتها السيارة إلى داخل وسط المدينة استقبلها بحر من اللون الأخضر على الطريق الرئيسي؛ دهان أخضر فاقع، اللون المختار للجنة الثورية، مدلوق بإهمال على المتاجر ومحال العمل. كان هناك موكب عسكري في وسط المدينة قبل أيام قليلة احتفالا بالعيد العاشر للثورة، وهيمن الأخضر لـلون العلم الجديد- على الأجواء. تدلت لافتات كبيرة بكتابات عربية من أعمدة النور وفوق المظلات. كما عُلفت لافتات قريبا من بيتها أيضا، إحداها كست سورا من الحجر الجيري كان يطوق قطعة أرض خالية في الناحية الأخرى من الشارع. كانت تُقدّر الخط العربي، باكتمال كل حرف مائل ليعانق الآخر. سألت عبد الله عما هو مكتوب، ورد عليها بإنجليزته المكسورة: «البيت لساكه..»

كان القنصل الأمريكي قد حذرهم كي يظلوا في بيوتهم في يوم الموكب، ونفذت سالي التوجيهات بإخلاص، موصدة الأبواب، ومغلقة الستائر. لم يظهر عبد الله ذلك اليوم من أجل العمل. من حجرة معيشتها سمعت أبواق السيارات، والأصوات المشوشة في مكبرات الصوت. لو أنها فقط كانت تعرف ما يقولون، لبدا الأمر أقل إثارة للخوف. ظنت أنها حتى قد تهتف لهم مشجعة، رغم أن القنصل كان قد حذر من عداة متصاعد ضد الأجانب. ومع ذلك، بدا لها أن تكون داعمة بمثابة الشيء الصحيح الذي يجدر بضيف أن يفعله في بلد أشخاص آخرين.

في محطة البنزين كان على سالي أن تضغط بوق سيارتها عدة مرات طلبا للعامل. وأخيرا خرج من المكتب وهو يشفط سيجارة.

هتقت: «عشرة دينار!»

أوماً العامل برأسه ودار سائرا إلى مؤخرة السيارة. بعد بضع دقائق أعاد غطاء الخزان إلى مكانه. تناول ممسحة مطاطية من دلو بلاستيكي ومسح الزجاج الأمامي بضربات طويلة كسولة. بحثت في محافظتها عن نقود، لكن صوت صريف عال جعلها ترفع رأسها متطلعة: ثمة خدش عميق في الزجاج.

“توقف!” صاحت في العامل. “من فضلك!”

خطا العامل مبتعدا عن السيارة.

قفزت خارجة.

“ما الأمر يا سنيورا؟” قال العامل، وهو ينظر إلى سالي متهمكا أكثر منه مفزوعا.

“الزجاج الأمامي. إنه مدمر. ماذا فعلت؟”

حدق العامل في الزجاج ثم أطرق ناظرا إلى الممسحة. كانت حافتها المطاطية منزوعة من أحد طرفيها، وبدا منها المعدن الصدى.

رفع حاجبيه، وهز رأسه وقال: «أسف جدا يا سنيورا.»

ردت بسرعة: «حسنٌ، وأنا أيضا. عليك أن تتنبه لما تفعل.»

نظر أحدهما إلى الآخر في صمت للحظة في المساحة الضيقة بين مضخة البنزين والسيارة. وأخيرا، دفعت سالي بورقة العشرة دنانير إليه، وركبت السيارة وانطلقت مبتعدة. من مرآتها الخلفية كان بمقدورها أن ترى العامل وهو يحرق وراءها، ضاربا بالمسحة على فخذ.

في البيت، لم يكن عبد الله موجودا، ولاحظت سالي أنه لم يقلم الشجيرات بعد. فوجئت بمدى غضبها المستمر من الدمار الذي حل بالزجاج الأمامي. بالطبع كان هذا حادثا غير مقصود، لكن شيئا ما في سلوك العامل أثار حفيظتها. أخرجت إحباطها في الأعمال المنزلية؛ فقد كانت الصحراء تؤمن فرصة دائمة للتفويض والكنس. قرب الظهر انتهت. كانت مشاعرها قد هدأت إلى درجة كبيرة، وشعرت محلها بموجة من الإعياء. قالت لنفسها إنها كانت بحاجة لأن تكون أقل استثارة. أكثر هدوءا. أكثر تقبلا لإحساس الفوضى المستمر الذي تشعر به منتشرا حولها. في النهاية أنزلت ستائر حجرة نومها، وركدت على سريرها. استيقظت بعد بضع ساعات على شمس بعد الظهر وهي تتسرب عبر الستائر وتسقط مباشرة على وجهها. في الخارج ظلت الشجيرات غير مقلمة. لم يضح عبد الله من قبل بالعمل في الساحة الأمامية من أجل مشتل خضرواته، لكن إهمال يوم واحد قد يتطور إلى اتجاه ثابت، كما كانت سالي تعرف. استجمعت عزمها، وبدأت التحرك إلى الساحة الخلفية للحديث معه، لكن عندئذ تعالت طريقة على الباب الأمامي.

“يا عبد الله..” قالت. “أنت لم تقلم الشجيرات. أعرف أنك تحب العمل في...” توقفت، مدركة فجأة أنه لم يكن وحده.

أشار عبد الله برأسه. تحرك ظل عبر المدخل، وظهر هيكل جسد أمامها.

“زوجتي، سامية..” قال لسالي. “خضرواتي بحاجة للقطف. تساعد في القطف.”

كانت المرأة مرتدية الجلباب الأبيض التقليدي. حدقت بأسى في سالي من عينها الوحيدة المكشوفة.

قال عبد الله: «زوجتي تحتاج الذهاب إلى الحمام.»

أومأت سالي برأسها، وترددت للحظة. «ادخلي..» قالت مستسلمة، وهي تشير إلى زوجة عبد الله.

دخلت المرأة البيت مائلة الرواق برائحتها - العطنة، الحادة.

“من هذا الطريق..” قالت سالي وهي توجه المرأة إلى الحمام. أحست أن المرأة تستوعب كل شيء حولها: حجرة الطعام، المطبخ، وهي تمسح البيت كله بعينها الوحيدة التلسكوبية.

انتظرت سالي في حجرة نومها حتى سمعت دفقة الماء في المراحيض، ثم طرفعة الصندل على الأرض، وانغلاق الباب الأمامي. خرجت من حجرتها، ورغم أن المرأة كانت قد غادرت، إلا أن حضورها بقي. أوصدت سالي الباب الأمامي. وبمعطر الجو، تعقبت آثار المرأة عبر البيت وفي

الحمام.

“سنيورا سالي.”

استدارت سالي حول نفسها. واقفا على أطراف أصابعه، ومستترقا النظر من النافذة المفتوحة، كان عبد الله.

قال: «أشتغل على شجيرائك الآن.»

أجابته وهي تتبلع ريقها بصعوبة: «آه، نعم. طبعاً. أشكرك.»

لبقية اليوم ظلت داخل البيت. وعندما وصل تريثور لاحقاً ذلك المساء، متعرقاً ومتعباً من تدريب البيسبول، حكّت له ما حدث لها ذلك اليوم.

“في المرة القادمة، لا تدعيهم ينظفون زجاجك الأمامي، ثم اطردي عبد الله..” قال بحدة، وهو يفتش في الثلاجة عن وجبة خفيفة.

ردت عليه بحدة أيضاً: «يا ولد! نحن هكذا نفيض فهماً!»

تصاعد حنق خانق في صدرها، وتركت تريثور خلفها في المطبخ. في حجرة المعيشة كتمت دموعها، وحدقت من النافذة إلى الساحة الأمامية، وفيما وراء حدود بيتها، والبيوت القليلة المتناثرة، والطريق المغبر المعتم في الضوء الضعيف.

في الصباح التالي بعد أن أنزلت تريثور عند المدرسة، استرخت سالي في شرفتها الأمامية مع فنجان من القهوة وانتظرت ليندا. كان عبد الله، الذي يبدو أنه انتبه لكلماتها، لم يصل بعد. شعرت أنها أقل ضيقاً الآن مما كانت في الليلة السابقة، ثمة إيقاع معين عاد إلى موضعه، وثمة صباح مع ليندا تتطلع إليه.

عندما أوقفت ليندا سيارتها لوحّت لها سالي، وقبضت على كيس نفودها وتوجهت إليها هابطة درجات الشرفة الأمامية. وبينما كانت تهم بركوب السيارة رأّت عبد الله يسير في الطريق قادماً من اتجاه مدينة الصفيح.

“عبد الله!” هتقت سالي له وهو يقترب إلى جوارها. «أنا ذاهبة إلى السوق التركي. سأعود في غضون بضع ساعات.»

ابتسم عبد الله لها ابتسامة مشرقة. «جيد. جيد. نقابلك عندما تعودين.»

“مَن المفترض أن تقابليه؟» تساءلت ليندا، وهي تستوي بالسيارة على الطريق.

ضحكت سالي. «لا أحد. تلك فقط طريقتة في الكلام. رغم أنني قابلت زوجته بالأمس.»

“واحدة فقط؟”

“هذا كل ما رأيته.”

“كيف قابلتها؟”

وصفت سالي اللقاء.

“يا خبر! صرخت ليندا. هزت رأسها، وأشارت عبر الطريق إلى اللافتة البيضاء المتدلّية من السور المشيد من الحجر الجيري. “ماذا تقول تلك على أي حال؟ لم ألاحظها قط من قبل هناك.”

“علقها بعض أبناء البلد منذ بضعة أيام، قبل الاحتفالات. لا أستطيع قراءة الكلمات، لكني رأيت لافتات تبدو مثلها بالضبط في أماكن أخرى أيضا. أخبرني عبد الله أنها تقول شيئا من قبيل أن البيت للناس. شيء كهذا.»

“أيا كان..” قالت ليندا.

أوقفت ليندا السيارة على أطراف السوق التركي. سارتا عبر الساحة، عبر الأقواس الحجرية الهائلة، إلى داخل السوق بأكمله. ورغم أن الوقت كان ما زال مبكرا، كان السوق بالفعل مكتظا بالناس، لكن الحرارة كانت محتملة إلى درجة كافية في هذا الوقت من النهار، وسمحت بالسير الهانئ.

كانت سالي تستمتع بالتسوق مع ليندا. فهي لم ترَ قط أي شخص مثلها عندما يتعلق الأمر بالمساومة حول الأسعار مع التجار ومعرفة كيف يجب أن تكون ودودة فقط كي تفوز بصفقة جيدة.

شقتا طريقهما عبر زحام المواطنين المحليين، متوقفتين هنا وهناك لدى محلات المجوهرات، ونصبات الفاكهة، ومحلات الجزارة، وباعة القماش ببضاعتهم الزاعقة ذات الألوان الزاهية، والمنسكبة على الرصيف. كان يحلو لهما أن تطرحا الأسئلة، وتتبادلا الآراء، ثم تعودان للاختلاط بالزحام والاستمرار في التحرك. تجولتا عبر النصبات المقامة في الهواء الطلق لوقت أطول مما كانتا قد خططتا، وقبيل وصولهما لسوق السمك كان الوقت يقترب من الظهر. وكان الهواء قد فقد طراوة الصباح الباكر، وأحست سالي بالامتتان للمظلة الواقية من الشمس التي وعدا بها سوق السمك المسقوف.

كان السوق كريحه الرائحة كالعادة، لكن الأرض كانت قد رُشت بالماء من خرطوم كبير، وأبقى السقف المرتفع حرارة الهواء عاليا بما يكفي. ومن ألواح الزجاج الكبيرة والمستطيلة العالية في الجدران الخرسانية تدفق نور الشمس.

لقد أتيتا في يوم سيء، حيث نوعية الصيد بائسة. لكن السلطعونات الزاحفة ببطء في حوض ضحل هي ما جذبت انتباه ليندا.

“سلطعون!” قالت لسالي. “ستحبه كبير وبرين. هناك في ديارنا بأوهايو اعتدنا إقامة سباقات للسلطعون.»

غضّنت سالي أنفها اشمئزا. كانت تحب السلطعونات إلى درجة معقولة، فقط كان القتل هو ما تكرهه. إلقاءها في وعاء به ماء مغلي، مشاهدتها وهي تتلوى، وتخليها وهي تصرخ ألما.

كان صاحب المحل رجلا ضخما حزين المحيا له وجنتان منفوختان وشعر مجعد. وبينما كانت ليندا تمازحه حول حصيلة اليوم، تطلعت سالي حولها في المحل. من النوافذ العالية، خط نور الشمس

خطوطا فوق الأرضية المبتلّة، مقسما القاعة إلى نصفين. في مواجهة سالي، في الزاوية الأقصى، تدلى بورتريه للرئيس بالزي البدوي على الجدار معلقا بسلك. في الصورة كانت عيناه قاسيتين، نصف مغمضتين في مواجهة الشمس والغبار. أسفل الصورة كانت هناك لافتة كبيرة مكتوبة بالعربية، وتحتها، غارقا في الظلال، كان ثمة ولد صغير جالس على قفص خشبي ينظف السمك. رفع الطفل عينيه إليها وابتسم. ردت سالي الابتسامة ومنحته تلوحة ودودة من يدها.

على مبعده بضعة أقدام، كانت ليندا مائلة على الحوض تشير إلى السلطعونات. كان بنطالها الجينز مشدودا بإحكام فوق مؤخرتها، ولمس وركها فخذ صاحب المحل.

ضحكت سالي ضحكة مكتومة، وهزت رأسها، لكن قلقا غامضا ما حفزها على أن تهتف: «ليندا، احترسي لنفسك الآن.»

التفتت ليندا إليها بنظرة مطمئنة. لاحظ صاحب المحل ما يدور بينهما وتحرك مبتعدا خطوة عن ليندا.

“طيب..“ قالت ليندا، واضعة يدها فوق يد صاحب المحل. “اتفقنا؟“

أطرق الرجل ناظرا إلى يد ليندا وسحب يده. ومن بين أسنانه تتمم: «شرموطة!»

“ما كان هذا؟“ قالت ليندا مصدومة بوضوح، وقد ميزت الكلمة العربية التي تعني عاهرة. “بم دعوتني؟“

استوى صاحب المحل معتدلا في وقفته. رأت سالي عضلات فكه ترتعش. «اخرجا..» قال بهدوء، ونظرته تحيط بها وبليندا كلتيهما.

“هيا يا ليندا..“ همست، ممسكة بذراع صديقتها.

“بم دعوتني؟“ ردت ليندا بحدة، وهي تزيح سالي عنها.

مال صاحب المحل على ليندا وقال هادرا: «برّه!»

دفعت سالي صديقتها خارج المحل. كانت ثورة صاحب المحل قد جذبت انتباه الزبائن الآخرين، وأحست سالي كأن جدران السوق تتطبق عليها.

“ابن القحبة..“ تمتمت ليندا. كانت يداها ترتعشان. وقد غاضت الدماء من وجهها.

“هيا يا ليندا..“ قالت سالي. وقادت ليندا خارج سوق السمك إلى الهواء الطلق.

شقتا طريقهما عبر زحام المتسوقين وأوسعتا الخطا عبر الساحة إلى السيارة.

“آه يا إلهي!“ صاحت ليندا باكية، مفسحة المجال لمشاعرها أخيرا في السيارة. «إنه مجنون. هذا البلد مجنون.»

قالت سالي: «لا بأس يا ليندا. لم يحدث ضرر. كل شيء على ما يرام.»

انطلقتا لبقية الطريق في صمت. مرّتا بوسط المدينة المدهون بالأخضر وبعد بضع دقائق توقفتا

خارج بيت سالي.

قالت سالي: «ليندا، هل تودين الدخول؟»

هزت ليندا رأسها، وأشاحت بناظرها بعيدا. أومأت سالي برأسها ونزلت من السيارة. راقبت ليندا وهي تنطلق بسيارتها عبر الطريق الترابي. تنهدت سالي ودفعت البوابة الأمامية للبيت لتفتحها.

فجأة سمعت صرخة وأتى ثلاثة أطفال يجرون عبر الساحة نحوها. اصطدم أحدهم بها، وكاد أن يسقطها أرضا. كان هناك تدافع مجنون وتجمّع الأطفال معا محديقين فيها. أكبرهم لا يمكن أن يزيد عمره عن سبع سنوات.

سألتهم سالي: «من أنتم؟ ماذا تفعلون في بيتي؟» ومض شيء ما أشبه بالفهم في وجهها، واستدارت على عقبيها واندفعت إلى الساحة الخلفية. «عبد الله، أنا بحاجة إلى الحديث معك! عبد الله!»

ما رآته أوقفها في مكانها. في صدارة الساحة الخلفية قام كشك صفيحي حديث الإنشاء ملتصقا بقوة في شمس ما بعد الظهر. كان مدعوما من كافة أضلاعه بألواح خشبية مائلة وقوالب من الحجر الجيري بطول قاعدته. وخلف الكشك كانت صفوف الخضروات المزروعة.

تذكرت سالي أصوات الاحتكاك التي كانت تسمعها ليلا. «عبد الله! عبد الله! ما هذا؟» صاحت.

رأت هيكله يخرج من داخل الكشك، وتهادت زوجته من خلفه.

دار بخلدها أنهم لن يكتفوا بهذا. وقفت منتصبة وواجهت الاثنين. «ما معنى هذا؟» تساءلت بصوت حاولت أن يكون ثابتا قدر استطاعتها.

“أسرتي..” ابتسم عبد الله مشيرا في اتجاه أطفاله الثلاثة الذين وقفوا الآن في حزمة وراءه. “بيتي. يعجبك؟”

“عبد الله! لا يمكنك العيش هنا. هذه ملكيتي. أرضي.”

“لا يا سنيورا سالي..” رد عليها بطريقة تكاد تكون متواضعة. “هذا زرعي. مستر مايكل يقول هذا. إذا هنا أرضي.”

“لا يا عبد الله.”

“نعم يا سنيورا سالي.”

“لا! لا! لا!” صرخت، واندفعت بجنون نحو الكشك، لتركل الألواح الخشبية، وتخدش الصفيح.

لم تقطع في هذا شوطا طويلا. ففي لحظة كان الأطفال الثلاثة وأمههم فوقها، يجرجرونها في التراب، ويجذبون شعرها، ويشدّون ثيابها.

“نحن معا الآن..” سمعت عبد الله يقول بهدوء وهو يمد يده نحو واحد من أطفاله كان قد ألقى بنفسه فوق صدرها. “أنت لك بيتك. أنا لي بيتي. كلنا معا.”

المراقبة

كان الطريق السريع 280 هو المسار المفضل لسارة والمؤدي إلى الكلية المحلية كلما تمكن وسام من توصيلها بالسيارة. في غير ذلك، كانت تتركب الأوتوبيس الذي يسلك مسارا مختلفا عبر الشوارع الداخلية لضاحية ريدوود سيتي. إلا أنها بالأوتوبيس لم يكن بمستطاعها المرور بتلك البانوراما من الجبال الخضراء. مظهر مهيب من التضاريس المميزة لسفوح جبال شمالي كاليفورنيا يفصل شبه الجزيرة عن المحيط. ولا كان بمقدورها أن تتغمس في الضباب الذهبي الخفيف المصاحب لنور شمس الصباح وهو يغمر سفوح الجبال تلك نفسها، منيرا تلك الكثافة الجهمة لهذا الجزء الوارف من التضاريس ومحو لا إياه إلى شيء أكثر إشراقا وترحابا. هكذا كانت دوماً تتصور نور الشمس في مقابل واجهة سفوح الجبال - ترحاب من نوع ما.

سألت عن سفوح الجبال تلك في اليوم الذي وصلت فيه لأول مرة إلى منطقة خليج سان فرانسيسكو، متطلعة إلى الجبال عبر نافذة السيارة قبل أن يبتعدا عن الطريق السريع إلى جادة فارم هيل.

«ما اسمها؟» وجهت سؤالها إلى وسام.

هز وسام كتفيه وقال: «لا تحمل أي اسم.»

لكنها كانت تعلم أنها لا بد تحمل اسما. تساءلت في عقلها: أي جبال جميلة كهذه لا تحمل اسما؟ حتى تلال البحر الأحمر لها اسم - جبال البحر الأحمر. اسم غير مميز لكنه ما زال اسما. غير راغبة في الجدال مع وسام بعد كل هذه الشهور من الفراق، اكتفت بقولها: «ماذا وراءها؟»

«المحيط.» قال وسام.

أضافت سارة: «المحيط الهادي.»

ضحك وسام، ومد يده نحو يدها ورفعها إلى شفثيه. «نعم، المحيط الهادي.» ثم أضاف: «سارة، لقد افتقدتك كثيرا.»

كانا يعيشان في شقة من حجرة نوم واحدة في جادة روزفلت، على مبعده بضع مربعات سكنية من وسط مدينة ريدوود سيتي. شارع هادي به مجمع سكني مدهون بجص أبيض فاتح، وثمة أشجار نخيل مكسيكية على جانبي ممشى خرساني ضيق يؤدي إلى مدخل المبنى السكني. في الداخل، كان للمبنى رائحة عطنة بالية؛ رشة خفيفة من معطر جو مشربة على نحو كثيف برائحة متسربة من زيت الطعام والعفن الفطري. كانت قد أرسلت بالبريد الإلكتروني إلى أمها في الإسكندرية انطباعها الأول عن بيتهما.

كتبت: «أرى أسطح المنازل من نافذة حجرة نومنا. وأتخيل أن لونها الرمادي في مقابل السماء محيط من الماء. رغم أن هذا يجعلني أفقد شقتنا الصغيرة في الإسكندرية وإطلالتنا على جزء ضئيل من الكورنيش. لكن وسام يقول إن المحيط على مبعده مسافة قصيرة. سيأخذني إلى هناك في عطلة نهاية الأسبوع القادمة. مدينة هاف موون باي الساحلية. الجو هادي هنا. وموحش. أتمنى لو أمكنكم جميعا أن تكونوا هنا معي.»

كانت لتفضل أمريكا في عهد باراك أوباما. باراك حسين أوباما. تريتت أمام هذا الاسم الأوسط عندما سمعته لأول مرة في الإسكندرية. تعجبت من إمكانية أن يصير هذا الرجل رئيساً لتلك الأرض البعيدة. بل إنها شعرت برابطة عبر ذلك الاسم تصلها بهذه القارة الفسيحة والغامضة. تغيرت وجهة نظرها عن البلد، ولانت. قرب نهاية تلك الفترة الرئاسية تلقى وسام منحة من الحكومة المصرية لقضاء عام في شركة للتكنولوجيا الحيوية. تحمست للانضمام إليه، رغم أنها أقل حماساً الآن مع استقرار الشاغل الجديد للبيت الأبيض. لم يعد هناك إحساس بأي رابطة. بل بالأحرى شعور بالقلق والرغبة مما كانت تراه في التليفزيون. إلى درجة أنها اتصلت بوسام من مصر قلقة إن كان وجوده هناك آمناً، وأماناً لها أن تتضمن إليه. أغاظها وسام في الهاتف، وقال إن كاميرات المراقبة حول الشقة وحتى أغلال الكاحل ليست بالفعل سيئة إلى هذه الدرجة. فهي شيء قد اعتاد عليه.

قالت مُصرة: «لكني أرثدي الحجاب..»

«كثيرات هنا أيضاً من يفعلن ذلك..» قال، وبعد ذلك أضاف بضحكة مكتومة: «هذه سان فرانسيسكو. لقد حولوه إلى شكل من أشكال الموضة.»

هكذا جاءت. بالدموع عانقت أمها فاييزة وأختها لبنى مودعة إياهما في المدخل المعتم لعمارتهن، وانطلقت في سيارة خالها مالك عبر شوارع المدينة التي كانت ما تزال خالية، في ضوء الفجر الرمادي ونقائه، إلى مطار برج العرب خارج الإسكندرية على مبعده ساعة من الزمن. كانت قد ركبت الطائرة مرتين من قبل. مرة إلى الغردقة على البحر الأحمر لتحضر زفاف ابنة عم لها، ومرة إلى اسطنبول كجزء من دورة دراسية جامعية حول النظم والشعر في تركيا العثمانية. لكنها عرفت ما يكفيها لمعرفة أنها لا تحب السفر جواً. فقد الكامل للتحكم. معرفة أن فرص البقاء على قيد الحياة بعد حادث تقني معدومة فعليا. لذا كانت سارة قد تمت بالفتحة في كل مرة أقلعت فيها الطائرة وهبطت خلال هاتين الرحلتين، وفعلت الأمر نفسه هذه المرة بينما كانت الطائرة ترتفع فوق الإسكندرية، ثم وهي تهبط في فرانكفورت، وبعدها ببضع ساعات مرة أخرى في طائرة أخرى متجهة إلى سان فرانسيسكو.

قرب نهاية الأسبوع الأول لسارة، الهالوين، والطرق المستمر على باب شقتها. نظرت عبر العين السحرية إلى الغيلان والملائكة، إلى الجنث الدامية والفتيات الصغيرات المرتديات أزياء الفراشات. تساءلت بينها وبين نفسها أي مكان ذلك الذي جاءت إليه. سهر وسام إلى وقت متأخر في العمل تلك الليلة، وكانت قد اتصلت به تليفونيا محاولة أن تزيل القلق من صوتها. وصفت له ما كانت تراه، وبدأ يضحك ضحكا صاخبا قبل أن يهدأ ويشرح لها أن هذا تقليد أمريكي. كانوا مجرد أطفال يعيشون في المجمع السكني. لكن، نعم، من الأفضل ألا تفتح الباب لأنهم لا يملكون حلوى يقدمونها.

يوم الأحد التالي على الهالوين، أخذها وسام بالسيارة منطلقا عبر الطريق السريع 280، ومنه إلى المسار 92 فوق سفوح الجبال إلى مدينة هاف موون باي. كانت سارة تعلم أنه يراقبها من طرف

عينه، وأنه كان مستمتعا بالطريقة التي كانت تضغط بها وجهها على زجاج نافذة السيارة المجاورة لها، محاولة أن تتطلع إلى الوديان الخضراء المورقة والأخاديد المنحدرة التي تكونت ما بين سلسلة الجبال. كان المنظر هائلا وملفتا، أشبه بحلم في امتداده وحميميته، ومصدر فتنة وخوف بالنسبة لسارة. انعطافة واحدة غير مدروسة من عجلة القيادة كفييلة بالقائهما معا في الهاوية المعتمة أسفلهما. تراجعت إلى الورا مشغولة بهذه الفكرة، ومالت رافعة رأسها على مسند المقعد، وعيناها تنظران أمامها مباشرة.

“دائخة؟” قال وسام برفق.

تمتت سارة: «ابق عينيك على الطريق من فضلك يا وسام.»

“سكون على الجانب الآخر قبل أن تدري ذلك..» أجابها وسام مطمئنا.

وهذا ما حدث. هبطا وسط أراض زراعية خضراء، مساحات عريضة من حقول اليقطين، مصانع نبيذ عتيقة ومزارع خيول صغيرة، تجارة تعرض مجموعات غريبة من منحوتات خشبية لحيوانات: دببة وديناصورات وأفيال. وفي الناحية الأخرى من الطريق، مقبرة رثة وامتداعية ومهجورة إلا من امرأة عجوز شعرها مرفوع على شكل كعكة، وترتدي معطف مطر رماديا وحذاء أسود برقبة، وتميل متطلعة إلى شاهد قبر مائل. تجاوزا ذلك إلى ما بدا أكثر ألفة -محطة بنزين، وسوبرماركت صغير، ومطعم سمك- ثم انعطفا يمينا إلى طريق كابريللو السريع والبحر الرمادي الباهت في متناول البصر.

“هاف موون باي..” قال وسام مبتسما لها ابتسامة عريضة.

مدت سارة يدها ودفنتها تحت فخذ وسام. كانا قد مارسا الحب في وقت باكر هذا الصباح. اقترب منها ما إن استيقظت - حيث كان ينتظرها. ظلت متحفظة في ممارسة الحب خلال الشهور الأولى من زواجهما، لكنها شعرت بالتحفظ يتبدد مع الوقت. ثم جاء الإجهاض الدامي في عنبر الولادة الرث بمسشفى الشاطبي، ولشهور بعدها رفضت سارة أي حميمية جسدية.

“الآن أشعر بالإثارة مرة أخرى..” قال ناظرا نحوها، ويدها ما زالت مستكينة تحت فخذه.

لكن سارة كانت تتطلع فيما وراء طريق كابريللو السريع، إلى الأجساد الداكنة المتمايلة في الماء فوق ألواح ركوب الأمواج، متسائلة ترى من هؤلاء الناس وماذا كانوا يفعلون؟

أوضح لها وسام: «هذا يُدعى ركوب الأمواج، يقفون على هذه الألواح ويدعون الأمواج تحملهم معها. لكن الماء بارد هنا على مدار العام، ليس مثل ماء بحرنا. لذا يجب أن يرتدوا هذه البدلات السوداء.»

توقف وسام على جانب الطريق السريع الضيق أمام المدخل الأغير لحانة ميرامار بيتش. كان قد حكى لها عن ذلك المطعم في الليلة السابقة، ناقلا قصة سمعها من أحد معارفه في العمل.

“كان فيما سبق بيتا للدعارة ومخزنا للكحول غير المسموح به قانونا منذ سنين.”

“أكان الكحول غير مسموح به قانونا هنا؟” تساءلت سارة متحيرة.

“على ما يبدو. منذ زمن بعيد.”

قالت متعجبة: «إمم، ولماذا سنأكل هنا؟ بيت دعارة.»

قال ضاحكا: «إنه مطعم الآن.»

“برضه..” قالت وهي تهز كتفيها.

كان المطعم بناء قصيرا من طابق واحد إلى جوار ساحة صغيرة لانتظار السيارات وقبالة ممشى من الحصى يمتد من المحيط. عندما صفا سيارتهما الهوندا سيثريك ونزلا منها، وقفت سارة مولية وجهها شطر المياه الممتدة، ونسيم البحر يضرب حواف حجابها. دست خصلة شاردة من الشعر في مكانها.

قالت: «هذا جميل يا وسام.» كانت تحقق هناك في امتداد مدبب من الرمال، في الانحناء الهلالي للخليج، وثمة كتل من الضباب قبالة الجبال المحيطة، والماء الرمادي والمزبد يتحد بالسماء المشوبة باللون القصديري. لولا الجبال، لكانت هي الإسكندرية في صباح نوفمبري عاصف مع التواء الكورنيش بامتداد الشاطئ.

“هنا..” قال وسام، وهو يمد يده نحو ذراعها، مديرا إياها لتواجهه، وظهرها إلى البحر. «دعيني ألتقط صورة لك. يمكننا إرسالها إليهم في الديار.»

وجدا مائدة قرب النافذة. طلبت سارة سمك موسى فوق طبقة من الأرز بالزعفران وكوكا كولا. واختار وسام هاوس برجر وبطاطس مقلية وبيرة.

نظرت سارة إلى وسام، وعلى وجهها تعبير هو خليط من الرهبة والذعر.

قال مر اوغا: «لقد وقعت في حب البرجر الأمريكي والبطاطس المقلية.»

“بيرة يا وسام؟” فحت بصوت هامس مائلة نحوه عبر المائدة.

قال: «واحدة فقط.»

همست غاضبة: «منذ متى؟»

“لا أعرف يا سارة..” عاد بظهره في مقعده، متخذا مسافة بينهما. “الأمر مختلف هنا. ليس كل شيء متعلقا بالجنة والجحيم والحرام طوال اليوم من كل مكبر صوت خمس مرات في اليوم.”

“إنه ديننا يا وسام!” قالت، وصوتها أعلى هذه المرة. تراجعت إلى الخلف، وأشاحت بوجهها إلى النافذة والصخب في الخارج، وثمة أشخاص متفرقون يسرون الهوينى فوق الممشى الحصوي، أو يتوقفون قليلا ليستوعبوا المنظر.

كانت تعرف أنها لطالما كانت أكثر التزاما. لطالما أحست فيه بموقف لامبال تجاه الدين. وكان التزامه هناك في الوطن فقط لأنه آمن من التمرد. لم يكن أبدا ليطلب مشروبا كحوليا في مكان عام بالإسكندرية. لكن بينهما هما الاثني كانت سارة فقط هي من تحافظ على الصلوات المنتظمة كل يوم، مولية وجهها شطر مكة. ولو فاتتها صلاة، كانت تعوضها بجد ومثابرة قبل نهاية اليوم. «هل تعتقدين

أن الله فعلا يستمر في عدّ وحساب كل هذا؟!» هكذا قال لها ذات مرة ليكايدها.
عندما وصلت البيرة وضعها جانبا. «هدنة؟» قال وعلى وجهه تعبير أمل.
تتهددت، ولم تقل شيئا، وبذهن شارد فردت الزبد على نصف شريحة خبز.
«هدنة؟» قال وسام مرة أخرى، مادا يده نحو يدها.
أومأت برأسها. «نعم يا وسام. هدنة.»

ظلا هادئين طوال رحلة العودة. فقط عندما كانت السيارة تتحدر بهما في الامتداد الأخير لمسار 92
قالت: «لن نظل هنا لزمنا طويلا إلى هذا الحد يا وسام. نحن مجرد زائرين هنا. سنعود إلى الوطن
مرة أخرى قريبا جدا.»

أومأ برأسه لكنه أبقى نظرتيه أمامه مباشرة. وقال: «تلك هي الخطة..»
قالت: «سنة وسوف نعود.»

قال برفق: «سنة أو سنتان بحد أقصى.»

أصرت على قولها: «سنة ستمر بسرعة شديدة.»

كانت سارة قد درست الأدب العربي في جامعة الإسكندرية، وأتمت عامها الأول في برنامج دراستها
لنيل الماجستير، قبل أن تتال إذنا بالغياب لعام كي تكون مع وسام. كانت أطروحتها حول تأثير نجيب
محموظ، الأديب المصري الحاصل على جائزة نوبل، على بنية القصص والروايات لدى الأجيال
التالية من الكتاب العرب. أي أنه رغم التعريف بالرواية العربية إلى الحد الذي حققه محموظ، إلا أنه
يسرّ وأعاق في نفس الوقت تطور الأدب العربي. تطلب الأمر كفاحا من الكتاب الأصغر سنا كي
يخرجوا عن تأثيره إلى أشكال جديدة. كان بمقدورها أن تدرك أن أطروحتها، وهي ما زالت في طور
التكوين، لم تكن ما أراد مشرفها، وهو معجب كبير بمحموظ، أن يسمعه. لكنه، ويحسب له أنه لم
ينصحها مباشرة بالعدول عن فكرتها، فقط تحدى الفرضية الأساسية؛ مشيرا إلى ازدهار
الموضوعات الأدبية المختلفة بين الكتاب الفلسطينيين واللبنانيين والمصريين والعراقيين.

جادلها البروفيسور خليل قائلا: «محموظ وضع الأدب العربي على المسرح العالمي. دونه لم يكن
لأحد أن يسمع به أو يهتم. لقد فتح الباب لنا جميعا.»

كانت قد خططت لقضاء هذا العام في أمريكا في تطوير الحجج الخاصة بأطروحتها. أحضرت معها
حقيبة سفر ممتلئة بكتبها. لكن بشكل ما حل عليها نوع من العطالة، عجزت عن تخيل تعقيدات المشهد
الذي كانت تحاول ارتياده من بعيد في هذا المكان الغريب.

«ربما أنت بحاجة للابتعاد عن كل هذا قليلا..» هذا ما اقترحه وسام عندما أثارت معه مسألة خيبة
أملها. «وجهة نظر مختلفة. شيء جديد تماما.»

«مثل ماذا؟» تساءلت سارة بارتياح.

قال وسام: «ماذا عن دورة دراسية في الأدب الأمريكي؟»

كانت سارة قد درست الإنجليزية في المدرسة الثانوية والجامعة، وكانت تجيدها إلى درجة كافية ويمكنها القراءة والكتابة بسهولة نسبية. وكانت قد قرأت المؤلفين البريطانيين - الأعمال الأساسية لتشوسر وشكسبير وديكنز. بل وبعض من أعمال توماس هاردي - وكانت روايتها المفضلة هي (عودة المواطن)، ولطالما أحست تجاه شخصية إيوستاشيا ثراي بقراءة لا تفسير لها. لكنها بالنسبة للأدب الأمريكي تكاد لا تعرف شيئاً. ومع ذلك، أثارت فكرة وسام اهتمامها.

كان الفصل الدراسي الشتوي سيبدأ قريباً، ولذلك بحثت سارة عن الدورات الدراسية في جامعة محلية، تصلها في رحلة قصيرة بالأوتوبيس من شقتها. كان حرماً جامعياً فوق تل، أخضر ومترامي الأطراف، يطل على سفوح الجبال التي كانت تحبها.

«إنها باهظة التكلفة يا وسام.» قالت شاكية وهي تتصفح قائمة الدورات الدراسية على الإنترنت.

قال وهو يطل من فوق كتفها على الشاشة: «لست متأكداً كيف تسير الأمور هنا. ألا يمكنك فقط أن تحضري كزائرة وتستمعي؟»

الدورة التي جذبت اهتمام سارة هي «مقدمة إلى الأدب الأمريكي». كانت القائمة على الدورة إيزابيث أ. بادرسون، وساعات عملها مدونة في نهاية توصيف الدورة.

فكرت سارة إن كان عليها أن تتصل بالكلية وتطلب الحديث مع البروفيسورة بادرسون أم تذهب شخصياً وتقدم طلباً بالحضور كزائرة. استقر رأيها على الخيار الثاني. لو كانت ساعات العمل شبيهة بأي شكل بساعات العمل في الإسكندرية، فبالتأكيد ستكون هناك على الأقل بعض الفراغات، وربما أمكنها أن تنتظر وتطلب القليل من وقت البروفيسورة.

لم تتوقع إيزابيث أن بادرسون أي طلاب يقومون بالتسجيل متأخراً بما أن فصل الشتاء لم يبدأ لأيام قليلة أخرى. لكن هذا بالطبع لم يقلل التدفق المعتاد لرسائل العمل الإلكترونية في الكلية. ومع ذهاب زوجها جيمس إلى اجتماع مجلس إدارة في بلدة ثريل خلال الأيام القليلة الماضية، تاركاً إياها وحدها مع ابنتها الصغرى بريندان، كانت متأخرة في العمل بالفعل. كانت قد استقرت للتو على مكتبها لتتصفح إسهال تيار الرسائل الذي عمّر صندوق واردة تعبير مقرف سديد ابتكره زميلها برين كالاهان - عندما طرقت الباب جانيت كينج، موظفة القسم الإداري، وأطلت برأسها منه.

قالت جانيت: «شابة تطلب لحظة من وقتك..»

«طالبة؟ بالفعل؟»

خطت جانيت داخل المكتب الصغير وجذبت الباب لتغلقه خلفها. «إمم، ليس من الواضح أنها طالبة هنا. تريد أن تتحدث إليك عن كورس الأدب الأمريكي.»

تتهددت إليزابيث، وأومات برأسها، والتفتت مبتعدة عن شاشة حاسوبها. أدخلت جانيت امرأة نحيلة ترتدي معطف مطر تركوازي اللون وحجابا يوافقه في اللون. وقفت المرأة في صمت إلى جوار الباب بينما أغلقته جانيت وراءها.

«من فضلك..» قالت إليزابيث وهي تشير إلى المقعد أمام مكتبها. وعندما استقرت المرأة عليه، أضافت: «كيف يمكنني مساعدتك؟»

جلت سارة حلقها وقالت بتردد: «بروفيسورة إليزابيث. أسفة لقدومي هكذا. اسمي سارة فهمي. قرأت عن دورتك الدراسية. أود أن أحضرها. كمستمعة.»

«أي دورة تلك؟» قالت إليزابيث. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يضيف فيها طالب مغترب لقب بروفيسورة قبل اسمها الأول بدلا من لقبها العائلي كما هو معتاد. كان هذا يدهشها دائما كشيء غريب، ولمسة أكثر ألفة من اللازم.

أجابتها سارة: «الدورة الخاصة بالكتاب الأمريكيين.»

لاحظت إليزابيث أن لها عينيْن جميلتين. لوزيتا الشكل، سوداوان مع الكحل الداكن لرموشها. كانت قد وضعت أحمر خدود أيضا وأحمر شفاه. من ناحيتها هذا الصباح، كان وجه إليزابيث خاليا من الزينة على نحو مريح، وشعرها الأشقر مشدودا إلى الورا في ذيل حصان، وقد ارتدت ثيابها على عجل في طقم يوم عمل يليق بالجمعة - سترة خضراء بسيطة وجينز أزرق.

راقبت إليزابيث سارة للحظة أخرى. إنه لمجهود بالغ أن تظل مغطية جسمها كله وبعد ذلك تضيف كل ذلك الماكياج. لقد رأت إليزابيث هذا بين شابات أخريات في أرجاء الحرم الجامعي - دافع نصف متشكل يتصادم مع دافع آخر، هكذا بدا الأمر لها. غير أن هذه المرأة كانت أكبر سنا، في أواخر العشرينات على الأقل، وثمة تحفظ واتزان فيها راقا إليزابيث.

قالت: «أعتقد أنه ما زال هناك مقعد أو اثنان متاحان. يمكنك مراجعة ذلك مع القائمة على التسجيل.» أطرقت سارة ناظرة إلى حجرها. وقبل أن تتمكن من قول أي شيء، أضافت إليزابيث: «أنت طالبة هنا، أليس كذلك؟»

هزت سارة رأسها: «لا. أنا أعد لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي هناك في الوطن. في مصر. أنا هنا لعام واحد فقط مع وسام؛ زوجي. فكرنا أن بإمكانني تعلم شيء عن الأدب الأمريكي أثناء وجودي هنا.»

أومات إليزابيث برأسها. «إنها دورة دراسية لطلاب المرحلة الجامعية ما قبل التخرج. أنت تدرسين هذا. وهذا كل ما لدينا هنا: دورات دراسية لمرحلة ما قبل التخرج.»

قالت سارة بسرعة: «ليست مشكلة.»

قالت إليزابيث: «لا بأس إذا..» شعرت بالفضول تجاه المرأة الجالسة أمامها، وأثارت ظروفها اهتمامها. لكنها كانت متلهفة كذلك على إنهاء هذا اللقاء والعودة إلى العمل الذي يستلزم انتباهها. وقفت وقالت: «يمكنك المرور على القائمة بالتسجيل للقيام بالإجراءات..»

نهضت سارة أيضا. «بروفيسورة إليزابيث. هل يمكن لي فقط أن أحضر وأستمع إلى المحاضرات؟ الأمر باهظ التكاليف بالنسبة لنا. سأشتري الكتب، وأقرأ كل شيء، ولن أقول شيئا في الفصل. أستمع فقط. من فضلك؟»

هزت إليزابيث رأسها. «أسفة يا سارة. لقد أسأت فهمك. ليس هكذا نتعامل عادة مع الأمور هنا.»
كررت سارة: «الأمر باهظ التكاليف بالنسبة لنا.»

فكرت إليزابيث كم تعتد هذه المرأة بنفسها وكم لا بد لهذا الموقف أن يكون مزعجا لها. كانت هاتان العينان اللوزيتان لامعتين وذكيتين. وتحملان عزما وإصرارا. أخيرا قالت إليزابيث: «عليّ أن أراجع الأمر يا سارة. اتركي بريدك الإلكتروني مع جانيت في المكتب الأمامي وسأراجع الأمر وأعود إليك.»

ليس الأمر أن سارة لم تسمع قط بويليام فوكنر، أو فلانيري أوكونور، أو تينيسي وليامز، أو إرنست هيمنجواي، أو جون أديك. لقد سمعت بالأسماء، بل وميزت على نحو مبهم عناوين أعمالهم، لكنها لم تقرأهم قط، وإلى الآن ظلوا غرباء عنها مثلهم مثل هذا البلد الجديد الذي سكنته. بعد أن منحتها بروفيسورة إليزابيث الإذن بالحضور في الصف، ذهلت سارة من الأصدقاء المترددة للاغتراب والصراع والاضطراب. لم يكن هذا ما توقعته في مثل هذا البلد القوي والثري. لكن عندئذ أحست سارة أنها لم تكن متأكدة مما كانت تتوقعه أصلاً.

قالت لوسام ذات مساء بعد المحاضرة: «إنهم أناس وحيدون. لديهم الكثير لكن يبدو أنهم يكافحون وحدهم أكثر من أي شخص آخر. لا جذور لهم بطريقة غريبة.»

قال وسام: «إنه بلد كبير.» كان نصف مشئت، وهو مضطجع على أريكتهما، وعينه على نشرة أخبار المساء في التليفزيون. «ودائما في حراك.»

غير أن سارة كانت تفكر في قصيدة أعطتها لها إليزابيث بادرسون لتقرأها ذات يوم خلال ساعات العمل. كانت سارة قد عبرت لأستاذتها عن الانطباع الذي تشاركته الآن مع وسام. أو مأت إليزابيث برأسها وكأنها فهمت بالضبط ما كانت سارة تشير إليه. نقتب في كومة من المجلات الأدبية على مكتبها، وانتزعت واحدة منها. فرّت صفحات المجلة، ووجدت ما كانت تبحث عنه، ووضعت ورقة صغيرة لاصقة أعلى صفحة ما وناولت المجلة لسارة.

قالت إليزابيث: «اقرأ أي هذه الليلة، يمكننا مناقشتها خلال ساعات العمل غدا.»

كانت القصيدة التي اختارتها البروفيسورة بادرسون لها قصيدة (إدوارد هوبر: حجرة الفندق، 1931). في الناحية المقابلة للقصيدة كانت لوحة للفنان إدوارد هوبر. امرأة في قميص نوم قصير جالسة على حافة سرير ممسكة بقطعة من الورق. كانت اللوحة خشنة الحواف وصارمة؛ ثمة شيء خاوٍ ومنزوع القلب في مظهرها. لا نعومة في خطوط التحديد. حواف بارزة ومركز باهت وبعد ذلك استعداد تشكيل نفسه في هيئة المرأة الصامتة. كانت القصيدة لرجل اسمه لاري ليثيس، وبالنسبة

لسارة رددت مقاطع القصيدة أصداء ما كانت تجاهد كي تعبر عنه. ذهلت سارة من الطريقة التي قبضت بها الكلمات على أفكارها، حتى أنها بدأت تكتب رسالة إلكترونية مسهبة في وقت متأخر من الليل إلى بروفيسورة بادرسون، قبل أن تغير رأيها وبدلاً من ذلك جلست إلى مكتبها الصغير في حجرة نومها لتطالع بنمعة اللوحة والقصيدة مرة بعد مرة. وقرأت السطور بصوت عال:

... وخارج هذه الحجرة لا يمكنني أن أتخيل إلا كانساس:

قمحها، وصوامع غلالها الداكنة، وخلف ذلك،
السهول التي ستحرق فيك بدورها حتى
اليوم الذي تبدأ فيه أمك، راحة وسط الأبخرة
على أرضية من الخشب الصلب، في الضحك بصوت عال.
عندما تزورها، ترى نفس العشب الباهت
حول حافة مأوى المسنين والمخرفين، وبضع فراشات،
بيضاء وفاضحة، على الطوب المبتل هناك،
حيث ذهبت لتعيش. وأبدا
لا تتعرف عليك من جديد.
... تفكر في المنحنيات، في الأقواس البطيئة اللطيفة
للمرأى في كاليفورنيا: هاف موون باي،
ماليبو، أسماء يبدو أنها تتجرد من ثيابها
عندما تقولها، شواطئ تظل بيضاء
حتى تصل إليها.

«لقد ذهبتُ إلى هاف موون باي..» قالت سارة لإليزابيث بمجرد أن دخلت مكتبها في اليوم التالي. «والقصيدة. إنها جميلة جداً. إنها تتوافق مع كل شيء شعرت به منذ أتيت إلى هنا. كيف عرفت؟»

ضحكت إليزابيث. «إنها لوحة شهيرة وقصيدة شهيرة. عرفت أنك ستعجبين بها.»

لقد أصبحت العلاقة بين المرأتين دافئة باضطراد طوال الأسابيع القليلة الماضية. كانت سارة متاحة في أوقات الفراغ من ساعات عمل إليزابيث المكتبية، وبما أن قوام الفصل كان في أغلبه من طلبة لم يتخرجوا بعد ومضطرون لحضور الدورة الدراسية في طريقهم لخطة أخرى في مستقبلهم الوظيفي، كان هناك دائماً وقت متاح. بالنسبة لإليزابيث، كانت قد انقذت هذا النوع من الاهتمام العضوي

بالأدب بين طلبة الكلية المحلية. هنا في سارة وجدت شخصا منغمسا بعمق في المجال وتسعى لنيل درجة متقدمة. وجدت نفسها تتطلع إلى زيارات سارة. كانتا أحيانا تختاران اللقاء في مقهى صغير مفتوح في أراضي الحرم الجامعي، وحول فنجان من القهوة كانت سارة تصف خبرتها الجامعية في الإسكندرية.

«هناك مئات من الطلاب في كل صف. طلاب يقفون في المدخل، ومتراصون على الحائط الخلفي. قاعة المحاضرات كلها تفيض بهم. وهؤلاء فقط الطلاب الذين يتحملون عبء حضور المحاضرات. قلما ينخرط الأساتذة معهم في نقاشات. فقط الجميع يؤدون عملهم بطريقة آلية. يمضون يومهم.»
توقفت سارة قليلا. «فضيع. الأمر أفضل في المدارس قبل الجامعة. أفضل بعض الشيء على أي حال. لكن لا شيء يشبه هذا..» أضافت، وهي تلوح بكف مفتوح نحو الحرم الجامعي.

خلفهما وقفت سفوح الجبال. والشمس ساطعة في سماء بعد الظهر. والهواء دافئ حتى في يناير. تطلعت إليزابيث حولها. «لقد عشت أعواما عديدة في مدينة نيويورك يا سارة. أعرف الصفوف المكدسة جيدا. ما ترينه هنا أيضا ليس المعيار.»

قالت سارة: «زوجي، وسام، يحب المكان هنا.»

«وأنتِ؟» تساءلت إليزابيث. «هل تحبينه؟»

هزت سارة كتفيها. وقالت: «لقد بدأت أعتاد عليه أكثر. جمال المكان أمر لا جدال فيه. لكنني أفقد مصر. عائلتي. ثقافتنا.»

«وزوجك؟»

هزت كتفيها. وقالت: «الأمر مختلف بالنسبة لوسام هنا.»

«بأي طريقة؟»

توقفت لحظة ثم قالت: «أعرف وسام منذ كنا طفلين. تربينا في نفس الحي. وقعنا في الحب ونحن مراهقان. في السر. هو مسيحي. مسيحي قبطي. تحول إلى الإسلام من أجلي. كان لا بد أن يغير ديانته كي يتزوجني. وقد نبذته عائلته بسبب هذا. لم يكن هذا سهلا عليه. لقد التزم بكل شيء متوقع منه. من أجلي. لكنني أتخيل أنه أحس بالتقيد. لذلك فإن الأمر مختلف بالنسبة له هنا.»

أومأت إليزابيث برأسها. حاولت أن تتخيل موقف سارة، وفي ذهنها قارنته بحياتها هي.

«زوجي جيمس. هو يهودي. عائلتي تابعة للأسقفية البروتستانتية الأمريكية. في الحقيقة كان أبي قسا هناك في نيويورك. شمال الولاية. جيمس من شيكاغو. والده قائد جوقة الترتيل في معبدهم. لم يتحمس أي من الجانبين لعلاقتنا.»

تساءلت سارة: «وأي عبادة تمارسون في البيت؟»

ضحكت إليزابيث. «عزيزتي لسنا متدينين على الإطلاق. ربما ساهمت خبرتنا في هذا. لكن مع النشأة في عائلتين متدينيتين، وانتهاء الأمر بوجود أحدهما مع الآخر بالطريقة التي فعلناها، فإن الدين ليس

جزءاً من حياتنا.»

تتهدد سارة وقالت: «سيحب وسام هذا، على ما أعتقد. سيريدنا أن نكون هكذا. مثلك أنت وزوجك. غير أنني أصده.» تطلعت إلى إليزابيث بتحدٍ. «لا يمكنني تخيل حياة لا يوجد الله في مركزها.»
استوعبت إليزابيث كلماتها وردت بابتسامة رقيقة على سارة وقالت: «لا شيء خاطئ في هذا يا سارة. لا شيء على الإطلاق.»

في الأسبوع التالي بعد أن أنهت سارة وإليزابيث قهوتهما، قالت سارة: «سيخرج وسام من العمل مبكراً اليوم. سيقلني بالسيارة بعد قليل. هل يمكنك البقاء قليلاً؟» توقفت للحظة بعد أن لاحظت نظرة إليزابيث السريعة إلى ساعتها، ثم أضافت: «أحب أن تلتقي بوسام.»

كان لدى إليزابيث موعد هناك في البيت، حيث ستجري مقابلة شخصية مع مربية أجنبية شابة جديدة من أجل بريندان. فالشابة السابقة من مدينة كراكوف كانت قد أكملت فترة إقامتها المقبولة لمدة ستة أشهر في الولايات المتحدة وستعود إلى بولندا. وهذه المرشحة الجديدة قدمتها لها صديقة. كانت مقيمة في الولايات المتحدة وأملت إليزابيث أن تتجنب الهراء والإجراءات المعقدة الخاصة بالهجرة والتأشيرات.

قالت بتردد: «بضع دقائق فقط. يجب عليّ أن أذهب. نحن نجري مقابلات شخصية مع مربيات من أجل بريندان.»

إليزابيث رأت وسام يقترب قبل أن تراه سارة. لاحظت رجلاً يوسع الخطى نحوها من الجانب الآخر للساحة الصغيرة حيث كانتا جالستين إلى طاولتهما. خمنت أنه هو من الطريقة التي كانت عيناه مثبتتين بها على سارة. كان متوسط الطول، نحيلاً، يرتدي بنطلون جينز ليفايز لونه أزرق باهت، مهندماً، وقميصاً أبيض منشي، وله لحية سوداء مهذبة بعناية، وبشرة زيتونية.

«أهلاً..» قال وهو يدينو منهما. وضع يدا على كتف سارة، وأبقاها هناك. «أنا وسام.» ومد يده الحرة إلى إليزابيث.

كانت له ابتسامة دافئة، وطريقة مريحة في التعامل مع نفسه. طبيعته السلسة تتناقض تماماً مع سلوكيات سارة الأكثر جدية.

مدت إليزابيث يدها وصافحته وقالت بسرور: «لقد سمعت عنك الكثير يا وسام.»

فأجابها: «وأنا أيضاً سمعت عنك الكثير يا بروفيسورة.» وخفض عينيه ناظراً إلى سارة التي كانت تراقبهما بسرور واهتمام. «لقد فتننت زوجتي بالأدب الأمريكي. أعتقد أنها ستقلع عن أطروحتها تماماً!»

قالت إليزابيث ضاحكة: «آه، أشك في هذا. لقد استمتعت كثيراً بوجود سارة في الفصل. كان ذلك مصدراً لسروري.» ثم نهضت، وساوت بضع كسرات على سطح تنورتها، وضبطت حزام حقيبة

يدها على كتفها. «لسوء الحظ، عليّ أن أغادر لأن لديّ موعداً، لكن كان من الرائع لقائك يا وسام.»
«ولقائك..» رد وسام.

وقفت سارة بسرعة وعانقت إليزابيث، ثم عادت هي ووسام للجلوس إلى الطاولة. وراقبا إليزابيث وهي توسع الخطى عبر الساحة، بقوامها الرشيق واللدن، وشعرها الساقط بحرية على كتفيها، وحقبية يدها تتأرجح إلى جانبها وهي تتحرك.

قالت سارة: «تعجبك، أليس كذلك؟»

كتم وسام ضحكته وقال: «لماذا تفكرين في هذا الآن؟»

«إنها جميلة وذكية وناجحة.»

«وأنت حبيبتي سارة فيك كل هذه الأشياء وأكثر.»

كان بيتسم لها، وفي نظرته تلك الطيبة التي تحبها. ورغم ذلك، لم تستطع أن تتحاشى ذلك الشعور الممض بالهزيمة. بدا أنه قادم إليها من حيث لا تعلم، متسرباً إلى داخلها. ربما كان الأمر يتعلق بشي ما في خطوات إليزابيث الواسعة. في إحساسها بالثقة. ثمة يقين فيه كانت تشعر بأنها تفتقر إليه؛ خاصةً هنا، خاصةً الآن، وفي هذا البلد. أو ربما كان ذكر ابن إليزابيث هو السبب.

كان وسام ما زال يتفحصها. ولمحة من القلق في عينيه الرماديتين.

«سارة؟ هل أنت بخير؟»

«نعم.» قالت وهي تضحك ضحكة قصيرة. «بالطبع.»

قال وسام: «ما الأمر يا سارة؟»

«لديها طفل صغير. ولد. فقط جعلني ذلك أفكر. كان يمكن أن يكون معنا الآن.»

«سُترزق بأطفال يا سارة. أعدك. ستكون لدينا شقة مليئة بالأطفال.»

كان قد مر عام بعد حادث الإجهاض. لكن فكرة الفقد كانت ما زالت تطعن سويداء قلبها وكأنها جديدة وطازجة. النزيف والألم. الانفداع في المقعد الخلفي بسيارة الخال مالك إلى المستشفى العام، أقرب مرفق إليهم. الركن الحقير في عنبر الولادة الذي وضعوها فيه وهي تطرد من داخلها وليداً ذكراً كامل النمو، لكن قبل أوانه. قبل الأوان. الممرضة التي كانت تمسح بفضاظة خطوط الدم على ساقها والتخثرات بينهما. كانوا قد منحوه اسماً قبل دفنه. أشرف.

«هيا يا سارة..» قال وسام ومد يده نحو يدها، ثم رفعها إلى شفثيه.

تطلعت سارة حولها بارتباك إلى الطلاب دائبي الحركة في الساحة من حولها. إلى خيط المرور الداخل والخارج من المقهى. تساءلت ترى كيف بدت، في زيتها المحافظ، جالسة في مكان عام، ويدها على شفثي رجل، حتى لو كان زوجها؟ كيف لهم أن يعرفوا أنه زوجها؟ لم يكن وسام ليفعل ذلك هناك في الوطن، هكذا فكرت وهي تسحب يدها برفق.

كان قد رأى نظرتها العابرة، وتعرف فيها على سببها. قال: «سارة، لم نعد في مصر.»

في المساء، كتبت سارة رسالة إلكترونية إلى أمها:

إنه بلد كبير وجميل من نواح أكثر من أن تُعد. أتلقى الآن دورات دراسية في الأدب وقد أقمت علاقة ودية مع أستاذتي. إنها ذكية وحبوبة وجذابة. متزوجة ولديها ولد صغير اسمه بريندان. وهي بروفيسورة محترمة. هي من نواح كثيرة جدا كل شيء أريد أن أكونه ولست إياه، أو على الأقل لست إياه بعد. لقد قابلها وسام ويمكنني قول إنه أعجب بها أيضا. لا أعرف في الحقيقة رأيها في وسام أو حتي في. ولست متأكدة لماذا يهمني هذا إلى ذلك الحد. ربما لأنني أعرف عددا قليلا جدا من الناس ومن السهل الشعور بالوحدة هنا. أفقد الطريقة التي اعتدنا أن نجلس بها معا في الشرفة المطلة على شارعنا الصغير ونحن نتفرج على الناس والمرور بالأسفل، ونرتشف شايك الرائع بالنعناع، يا ماما. أفقد ضوء الأصيل، الدافئ والمليء بالغبش. صوت الأذان. أفقد رائحة الطبخ بعد الظهر القادمة من محل الفلافل الصغير، عمرو بك؛ أول شيء أشمه عندما أخرج من بنايتنا وأطلق في الشارع. وأكثر من كل هذا، أفقدكم جميعا للغاية.

“أشعر بالفضول تجاه شيء ما..” قالت إليزابيث في وقت لاحق ذلك الأسبوع وهما خارجتان معا من الفصل. لقد أصبح من عادة سارة أن تتشاغل في نهاية المحاضرة، مقلبة في حقيبة يدها أو متصفحة نصًا ما، حتى يكون الطلاب قد غادروا واستعدت إليزابيث للرحيل.

“نعم؟”

“هل كنت لترغبين في البقاء هنا، لو كان باستطاعتك؟”

“هنا؟” تساءلت سارة. “تقصدين أمريكا؟”

“هذا صحيح. الولايات المتحدة بشكل عام. كاليفورنيا حتى.”

ظلت سارة صامتة لبضع لحظات. وأخيرا أجابتها: «لا يا بروفيسورة بادرسون. لا. لا أعتقد هذا. كنت لأفقد الوطن أكثر من اللازم.»

مرتا بجماعة من الطلاب يتسكعون في الطريقة. شباب وثرثارون، ارتفعت أصواتهم بالضحك.

قالت إليزابيث: «بأمانة، أنا فقط لا أفهم هذا.»

لاحظت سارة لأول مرة نبرة سخط في صوت إليزابيث.

“أنت متعلمة وذكية ومع ذلك لا يمكنني تصديق أنك قد تكونين قريبة للغاية من الحريات، ناهيك عن الفرص، هناك في الوطن مثلما أنت هنا. أقصد بالنسبة لأي امرأة..” قالت إليزابيث، وصوتها يخبو في نهاية حديثها.

قالت سارة: «إنها ليست السعودية..» حاولت أن تترد النغمة الدفاعية التي أحست بها في صوتها.

«نعم. إنها ليست السعودية. وربما أتجاوز حدودي في الحديث. يعلم الله أن هذا البلد ما زال لديه الكثير مما يجب أن يفعله كي يمهد الملعب للنساء. لكن الأمر فقط أن هناك أماكن قليلة في العالم ما زالت تعامل النساء بمثل هذا الازدراء الشامل وقلة الاحترام كما تفعل بلدان كثيرة في الشرق الأوسط.»

ظلت سارة صامته. صدمتها الكلمات، التي قيلت بكل هذه المباشرة. رغم أنها لو سئلت في ظرف مختلف، بأسلوب أكثر تعاطفا ورفقا، لانخرطت في النقاش.

أكملت إليزابيث: «وأنا فقط لا أفهم لماذا لا تثور النساء في هذه البلدان، ويطالبن بحقوقهن. ويصررن عليها. أن يعاملن بطريقة مساوية للرجال. بدلا من أن يُهرس ويُبدد جيل بعد جيل من الإبداع والذكاء والطاقة تحت أقدام مجتمع أبوي خانق.»

قالت سارة أخيرا: «إنها بلدي. هناك مشكلات كثيرة. وقد حققنا أشياء كثيرة بالحريات المحدودة الممنوحة لنا بشكل شرعي. لكن انظري كم الحماية لديكم هنا. حماية قانونية كبيرة جدا ومع ذلك أنتم أيضا تكافحون، أليس كذلك؟»

تتهدد إليزابيث وقالت: «أنا أسفة. أسفة فعلا. كنت أقرأ للتو عن شابة رُجمت حتى الموت في سوريا، وأخرى سُجنت بسبب قيادتها السيارة في السعودية، وثالثة جرى التشهير بها بسبب الرقص في مصر، وقد أثار هذا غضبي. في أي مكان آخر من العالم تحدث مثل هذه الأشياء للنساء؟! لكن نعم، كما قلتُ، أمامنا الكثير من العمل الذي يجب أن نقوم به هنا في هذا البلد. من فضلك سامحيني يا سارة. يمكنني فقط تخيل كم بدوت متغطرة للتو.»

أطلقت سارة تهيدة ارتياح وضحكت. «اهتمامك في محله..» قالت بنبرة متصالحة. «لقد تخلفنا في مصر وفي كل مكان في الشرق الأوسط فيما يتعلق بحقوق المرأة. بعض هذا أمر داخلي يخص مجتمعاتنا، وبعضه الآخر مفروض أو مدعوم من قوى وتأثيرات خارجية لا سلطة حقيقية لنا عليها. لكن مهما كان السبب، لن نصل أبدا إلى إمكانياتنا الكاملة حتى تكون النساء حرة في الوصول إلى إمكانياتهن الكاملة.»

أومأت إليزابيث برأسها وقالت: «أوافقك تماما. هذا صحيح هنا وفي كل مكان. ستعودين إلى مصر وتقودين هذا النضال، أنا متأكدة.»

ابتسمت سارة وقالت بحسم: «سأدرّس كما تُدرّسين!»

ضحكت إليزابيث بصوت عال وقالت: «لا، ستدرّسين بطريقة أفضل بكثير وعلى مستوى أعلى مما استطعت أنا أصلا. في جامعة حقيقية.»

هزت سارة كتفيها. «سأكون سعيدة بالتدريس في أي مكان مهما كان. لكننا بحاجة للمال وبالطبع مرتب الجامعة أفضل.»

كانتا قد بلغتا المكاتب الأكاديمية، وتوقفت إليزابيث وقالت: «إدّا فإن المال مسألة لها أهميتها الآن؟ هل سيساعدك أي مال إضافي؟»

أومأت سارة برأسها، وقد خطر ببالها أن أستاذتها ربما أمكن أن ترى دورا لها كمدرس مساعد.

قالت: «يمكن للمال دائما أن يساعد.»

ردت عليها إليزابيث: «لا بأس إذا، أنا ما زلت أجري مقابلات من أجل مربية لبريندان. لكن في هذه الأثناء أنا وجيمس بحاجة لحضور فعالية في سان فرانسيسكو يوم السبت القادم. إنها ليست شيئا يمكننا تقويته. إنها فعالية خاصة بشركة جيمس. هل تمنعين في العناية ببريندان لهذا الوقت فقط؟ سأدفع لك جيدا.»

رفعت سارة يدها احتجاجا. «سأكون سعيدة بالطبع! لكن ليس عليك أن تدفعي لي.»

ضحكت إليزابيث وقالت: «بالطبع علي أن أدفع وسأفعل ذلك. إذا يوم السبت؟»

قالت سارة: «السبت..»

«ما رأيك في أن تأتي قبل السادسة مساء بقليل؟ بهذه الطريقة يمكنني أن أقدمك لجيمس وقضاء بعض الوقت معك ومع بريندان قبل أن ننطلق. سأرسل إليك العنوان بالبريد الإلكتروني.»

«بالتأكيد..» قالت سارة. كانت متلهفة على إيلاغ الخبر لوسام. متحمسة لأن يُسمح لها بالدخول هكذا في حياة أستاذتها الشخصية.

كانت إليزابيث بادرسون تعيش في بلدة (لوس أتولوس هيلز). مساحة مورقة من المراعي والتلال المدرجة، والضياعات الفسيحة ذات الأسوار العالية والبوابات الحديدية المشغولة والمزخرفة، والمروج المشدبة. لم تذهب سارة إلى هذه البلدة من قبل، وبينما كان وسام يقلها إلى هناك بالسيارة، شعرت بالرهبة من كل هذا الترف. بدا لها من غير الواقعي أن يعيش الناس في هذه الأجواء. كانت قد رأت البيوت التي تناثرت كالنقاط فوق سفوح التلال، وتساءلت ماذا يكون شكلها. لكن أن تكون وسط كل هذا، وهي تجتاز البقاع الخضراء والذهبية، خبرة مختلفة تماما. فتنتها ممرات السيارات المفروشة بالحصى، والبلكونات المهيبة، والشرفات المصممة على طراز البحر المتوسط والتي كانت تحظى بإطلالات مذهلة على سفوح التلال.

تمتتم سارة: «لا يمكنني أن أصدق أن بروفيشورة بادرسون تعيش هنا.»

أبقى وسام عينيه على الطريق المنحني، لكنه استرق نظرة نحو سارة وقال مبتسما: «حسنٌ، لا بد أن يعيش فيها أحدهم.» ثم اضاف: «ربما يمكننا يوما أن نعيش فيها أيضا.»

قالت سارة بهدوء: «لا أعتقد أننا ننتمي إلى هنا يا وسام.»

«ولم لا يا سارة؟ يمكنني رؤيتك في واحدة من هذه الشرفات في الصباح تتطلعين إلى كل شيء، وفي يدك فنجان من القهوة!» كتم ضحكته وضغط على ركبة سارة.

لم تقل سارة شيئا. تهادت السيارة وهي تتعطف في انحناءة، وتهبط في زقاق اصطفت الأشجار على جانبيه وفي نهايته وقف بيتان فخمان، تفصلهما مساحات من العشب المهذب على نحو رائع، وصف من نخيل جوز الهند، يلتصع سعفها في شمس الأصيل.

قال وسام: «لقد وصلنا. ربما هو ليس بيتنا بالغ الضخامة، لكن مع ذلك من كان يظن أن أستاذة تتلقى أجرا جيدا هكذا!»

«أعتقد أنه ملك زوجها..» ردت سارة، وهي ترمق السيارتين في الممر - (ليكسوس سيدان) ذهبية كانت قد رأت إليزابيث تقودها خارجة من موقف انتظار السيارات في الكلية، وسيارة بورش من طراز الدفع الرباعي سوداء لامعة. «هو رجل أعمال ناجح. يسافر كثيرا.»

أوقف وسام السيارة أمام قائم صندوق بريد برونزي ضخم. «هل تريدان أن أدخل معك؟»

هزت سارة رأسها، وقبضت قليلا على يد وسام، وبعد ذلك خرجت من السيارة. «لا، لا بأس. فقط تعال لتقلني حوالى العاشرة والنصف. سأرسل إليك رسالة نصية إذا تغير أي شيء.»

وأما وسام برأسه، وراقب سارة وهي تشق طريقها إلى الباب الأمامي، بجسدها النحيل في بنطلون كاكبي، وسترة وردية، وذيل حجابها منكس بين لوحَي كتفيها. راقبها وهي تطرق على الباب، ورأى الباب يفتح، ولمحة من البروفيسورة بادرسون والمساحة الداخلية الظليلة للبيت، الضخمة وجيدة التهوية، ثم انطلق بسيارته.

كان البيت رائعاً، سقوف عالية، لها أفاريز منقوشة، وأرضيات من خشب الماهوجني المطلي، ودراج فسيح، أبيض وحلزوني، ينحني بأناقة من البهو الكبير إلى الطابق الثاني. في وسط البهو تدلت نجفة هائلة من الكريستال، وفي قاعدتها علاقة سقوف منحوتة. تراقص ضوء الأصيل منعكسا على أسطوانات شموع النجفة ومنشوراتها البلورية.

استقبلت إليزابيث بادرسون ضيفتها بعناق دافئ قبل أن تغلق الباب خلفها.

تساءلت: «أمل أن تكونا قد وجدتما المكان بسهولة؟»

ردت سارة: «أه نعم، لم تقابل وسام مشكلة على الإطلاق.» ثم أضافت: «سأرسل إليه رسالة نصية كي يقلني لاحقا.»

كانت إليزابيث ترتدي فستان سهرة أسود دون حمالات؛ وهو ما ترك كتفيها وأعلى صدرها مكشوفين. شعرها مصفف على شكل كعكة، وخصلة سميقة من شعرها الأشقر تتدلى حرة فوق جانب وجهها. كان الفستان منسدلا حتى كاحليها، وقدمها مستقرتان في حذاء أسود عالي الكعبين. تأملت سارة كم كانت إليزابيث جميلة. رغم أنها أيضا شعرت بانزعاج ما من الثوب، من درجة الانكشاف على الملأ التي كان ينبئ بها، من السهولة التي كانت تعرض بها إليزابيث نفسها بهذه الطريقة.

ظهر رجل على الدراج، يرتدي بذلة سهرة سوداء مزدوجة الصديري. كان يقارب وسام طويلا، لكنه أكثر امتلاء، وصدره أكبر. كما كان وجهه أكثر استدارة من وجه وسام. عندما اقترب، لاحظت سارة آثار بثور على وجهه، غطتها جزئيا لحية بنية مشدبة. كان شعره مقصوفا إلى درجة شديدة القصر، حتى أنه كان بمقدور سارة أن ترى بياض فروة رأسه أسفل الشعيرات اللامعة. نظر في عيني سارة بينما كانا يتصافحان.

قالت إليزابيث: «زوجي، جيمس. جيمس هذه هي سارة، الطالبة التي كنت أحكي لك دائما عنها.»

“من الرائع مقابلتك يا سارة..” قال جيمس وهو يترك يدها، وعيناه ثابتتان على عينيها. «تتحدث إليزابيث بشغف كبير عنك. طوال سنوات عملها في الكلية، لم أسمعها قط تتحدث بكل هذا الحماس عن أي من طلابها. لقد تركت انطبعا قويا للغاية على زوجتي.»

“بل بروفييسورة بادرسون من تركت هذا الانطباع القوي عليّ!” ردت سارة بحماس، وهي بالكاد قادرة على احتواء سعادتها بهذا التصديق الرسمي. «أنا محظوظة جدا لأنني التقيت بها.»

إلى جوار إليزابيث في حذائها ذي الكعب العالي، كان جيمس أقصر على نحو ملحوظ. أحاط بذراعه خصر زوجته، وجذبها قربه ومالت هي عليه ليتبادلا قبلة.

قال ضاحكا: “حسنٌ، تصادف أنني أشعر بكوني محظوظا بنفس القدر.»

مرت لحظة من الصمت بينهم وهم وقوف في البهو، ثم قال جيمس: «هل قابلت بريندان بعد؟»

“لا، ليس بعد..” قالت إليزابيث وهي تضبط أحد قرطبيها. “علينا أن نفعل هذا الآن.”

تبعت سارة إليزابيث عبر البهو وفي الطريقة نحو الجزء الخلفي من البيت. كانت الجدران على جانبي الطريقة مزدانة بصور شخصية للعائلة، وألقت سارة بنظرة سريعة عليها وهي تهول خلف إليزابيث. غشاوة من الوجوه، أقصر من أن تميزها. بريندان، ذو الستة أعوام، كان جالسا على أرضية حجرة لعب مرتديا بيجامته وهو يدفع قطارا مصغرا على طول خط سكة حديد خشبي. كان له شعر أمه الأشقر وبشرتها الجميلة، وعينا أبيه السوداوان.

“بريندان..” نادت إليزابيث الصبي. “حبيبي هذه هي سارة. ستكون جليستك الليلة بينما تخرج مامي وبابي قليلا.»

تطلع بريندان إلى سارة، وعيناه السوداوان مترددتان، ونظرة الصبي الصغيرة مستقرة على حجابها. أطرق ناظرا إلى يديه والقطار اللعبة الذي كان يمسك به.

عبثت سارة بحجابها، وهي تدس بسبابتها خصلة شعر نافرة وهمية تحت طرحتها.

“بريندان..” قالت إليزابيث مرة أخرى، ونبرتها مطرزة بخيط رفيع من الحدة. “من فضلك كن مهذبا، انهض وقل أهلا.”

“أهلا..” قال بريندان، وهو يرمق سارة مرة أخرى.

“أهلا بريندان..” قالت سارة وخطت نحو الصبي، بيد ممدودة.

تململ بريندان ممسكا بالقطار اللعبة، ثم بدله في يده اليسرى، ومد يمينه إلى سارة لمصافحتها، وهو ما زال جاثما على الأرضية. قال: «ما هذا الذي على رأسك؟»

“أيها الشاب..” قالت إليزابيث، وهذه المرة لم يكن من الممكن إغفال الضيق البادي في صوتها. “أريدك أن تقف، وتعتذر وتقول أهلا بطريقة لائقة!”

عند ذلك، وقف بريندان. وقال: «أهلا. أنا آسف.»

“لا بأس..” قالت سارة، وهي تمد يدها لتداعب شعر الصبي، لكنه اندفع من تحت ذراعها وجرى خارجا من الحجرة.

“بابا..” قال بريندان، وقدماه تدبديبان في الصلاة.

قالت إليزابيث: «أسفة جدا على سلوكه يا سارة. هو في العادة صبي حسن السلوك جدا. أعتقد أن خسارة مربيتنا السابقة قد أثرت عليه أكثر مما أدركنا.»

قالت سارة: «بإمكاني تخيل هذا. أعدك أن نكون أنا وبريندان أفضل الأصدقاء قبل أن تعودتي.»

ضحكت إليزابيث وقالت: «نعم. أتخيل أنكما ستكونان كذلك. دعيني أريك حجرة نوم بريندان في الطابق العلوي. يمكنه مشاهدة نصف ساعة من برنامج للأطفال في التلفزيون في حجرة العائلة قبل وقت النوم؛ وهو الساعة بالضبط.»

قادت إليزابيث ضيفتها إلى حجرة النوم في الطابق العلوي، ثم هبطا الدرج من جديد إلى مطبخ فسيح، أكبر مما رأته سارة طوال حياتها من قبل، به ضد هائل من الجرانيت الأسود في وسطه، وأجهزة من الاستانليس ستيل، وكل شيء نظيف لا تشوبه شائبة. كان المطبخ يفتح على حجرة عائلة فسيحة حيث جلس بريندان على حجر جيمس في مقعد مزدوج يفر صفحات كتاب مصور. كانت رفوف الكتب مصطفة في الحجرة، وثمة أريكة كبيرة ومقاعد وثيرة مرتبة في نصف دائرة تواجه مدفأة وأعلىها شاشة تلفزيون عريضة.

قالت إليزابيث: «سارة، هناك ماء في الثلاجة من أجل بريندان إذا أحس بالعطش، ومأكولات خفيفة ومشروبات في الثلاجة من أجلك، لذا من فضلك تعاملي بحرية.»

ردت سارة: «هذا كرم بالغ منك يا بروفيشورة بادرسون. سأكون بخير.»

“جيمس..” نادى إليزابيث زوجها. “ينبغي أن ننطلق.”

رفع جيمس الصبي من حجره وأعادته من جديد في المقعد المزدوج. شغل التلفزيون بجهاز تحكم عن بُعد وتنفق عبر بعض القنوات حتى وجد برنامج الأطفال الذي كان يبحث عنه.

“ثلاثون دقيقة فقط يا بريندان، ثم وقت النوم..” قالت إليزابيث للصبي، وهي تميل منحنية لتطبع قبلة على جبينه. “ستعود مامي وبابي خلال بضع ساعات. كن مهذبا واستمع لما تقوله لك طنط سارة. لا أريد أي تقارير سيئة عنك عندما أعود.»

تبعث سارة إليزابيث وجيمس إلى البهو.

“لديك رقم هاتفي الخليوي يا سارة لو احتجت أي شيء على الإطلاق..” قالت إليزابيث قبل أن تخطو إلى الخارج عبر الباب الأمامي. “سأرسل إليك رسالة نصية أيضا كي أطمئن.”

قالت سارة: «من فضلك تمتعي بوقتك. أنا وبريندان سنكون بخير تماما.»

راقبت سارة من الباب بينما كانت إليزابيث وجيمس يسيران عبر ممشى مرصوف بالحصى وله انحناء بسيطة ويصعدان إلى السيارة البورش. ظلت هناك حتى استوت بهما السيارة على الشارع.

لوحث إليزابيث لها مرة أخيرة قبل أن تتطلق السيارة مسرعة ولوحث لها سارة بدورها.

في الداخل كان بمقدور سارة أن تسمع صوت التليفزيون عبر الصالة. لكن رغم هذه الأصوات، أحست بفراغ يجتاحها عبر البيت ويضغط عليها، لذا فقد أسرعت إلى حجرة العائلة لتطمئن على بريندان. كان الصبي ما زال متكوما على المقعد المزوج يشاهد التليفزيون.

جلست سارة على حافة الأريكة. أبقى بريندان عينيه ملتصقتين بشاشة التليفزيون. كانت هناك ثلاث دمي ترقص عبر خشبة مسرح مؤقتة، وقد تجمعت حول دراجة منمنمة. تحول مظهرهم الأشعث إلى عرض موسيقي مجلجل.

قالت سارة: «أهلا بريندان. هل تستمتع بالعرض؟»

“نعم.” قال بريندان دون أن يحول ناظره.

“هل يمكنك ان تحكي لي قليلا عن العرض؟” قالت سارة وهي تبذل أقصى جهدها لتتفاعل مع الصبي الصغير.

“إممم..” بدأ بريندان حديثه. “إنه يدور عن سيركب الدراجة إلى المدرسة.”

قالت سارة: «آه، إذا من تعتقد أنه ينبغي أن يحصل عليها؟»

هز بريندان كتفيه ولم يقل شيئا. ركبت دمية بنفسجية مشعرة على الدراجة، والدميتان الأخريان -مخلوقتان مكسوتان بالفراء إحداهما برتقالية والأخرى خضراء- قامتتا بمطاررتها بنجون عبر خشبة المسرح. ضحك بريندان. وضحكت سارة أيضا، ساعية بإلحاح لأن تنشئ علاقة، لكن انتباه الصبي ظل على الشاشة. بعد بضع دقائق، نهضت سارة وتجولت في أرجاء حجرة العائلة مطالعة رفوف الكتب، التي كانت مرصوفة بالأطالس والموسوعات، وكتب عن الحربين العالميتين الأولى والثانية، وحرب فيتنام، وحرب العراق. كانت هناك أيضا كتب تنمية ذاتية وكتب إلهامية، كتب عن كيف تكون أكثر إنتاجية وأكثر كفاءة. أما الروايات القليلة التي رأتها سارة فكانت لمؤلفين لم تتعرف عليهم - هاواي لجيمس ميتشنر، المواجهة الحاسمة في بيلو بَتّ للويس لامور، البريق لستيفن كينج.

“أريد الذهاب إلى الفراش..” قال بريندان فجأة، مطفئا التليفزيون بسرعة ونازلا من فوق المقعد المزوج. وقف هناك في بيجامته، يبدو مترددا ووحيدا.

فجأة أحست سارة بوجع في قلبها من أجل الصبي الصغير. «طبعاً..» قالت ومدت يدها.

لدهشتها وسعادتها، تناول بريندان يدها وسارت معه صاعدين الدرج إلى حجرة نومه.

بعد أن أدخلته الفراش وأحاطته بالأغطية، أطفأت مصباح السقف، وغرقت حجرة النوم في وهج ناعم من مصباح إلى جانب الفراش. عندئذ قالت سارة: «بريندان، هل تود أن أقرأ لك قصة؟»

هز بريندان رأسه، لكنه هذه المرة نظر في عيني سارة، وفي عينيها كان هناك شيء أكثر ثقة وسلاما. ولسبب غير مفهوم أحست سارة بموجة من السعادة تجتاحها.

قالت سارة: «لا بأس إذا. سأكون في الطابق الأرضي إذا احتجت أي شيء.»

انقلب بريندان على جانبه وأوما برأسه المتكئة على الوسادة، دون كلمة.

خرجت سارة من الحجرة، وأغلقت الباب وراءها برفق، لكنها لم تغلقه إلى آخره. نزلت إلى الطابق الأرضي، ومرت بالصورة في الطرقة مرة أخرى، لكنها الآن أخذت وقتها في التطلع إليها. إليزابيث وجيمس في حفل زفافهما، والعروس جميلة في ثوبها الأبيض. في الخلفية إطلالة خضراء وارفة. وفي المقدمة ظهور الضيوف الجالسين. صورة أخرى تبدو فيها إليزابيث مع بريندان الوليد الجديد. وهناك صور أخرى أيضا، بدون بريندان. إليزابيث شابة في بيكيني أزرق فاتح مع جيمس ورجل آخر، وذراعاها حول كتفهما، والبحر وراءهم. صورة أخرى في نفس الموقع، لكن هذه المرة إليزابيث مرفوعة بين ذراعي الرجل الآخر، وجيمس يتطلع إليهما ضاحكا. فكرت سارة، ترى من يكون هذا الرجل؟ وماذا يمكن أن يعني ذلك لإليزابيث؛ أن تدع نفسها محمولة بهذه الطريقة، ويذا الرجل مغروستان في فخذها العاريين أسفل البيكيني؟ استنتجت سارة أنه قد يكون شقيق إليزابيث. لا بد أن لها أختا. لا شيء آخر يمكن أن يكون مبررا.

بعد أن انتهت من مطالعة الصور على الجدار، وجدت سارة نفسها في الطرف القصي من الصالة، بعد المطبخ وحجرة العائلة، خارج مكتب صغير لكنه مريح، مكس بالكتب والجرائد. خطت داخله بمزيج من الرهبة وكأنها تخشى أن تكون مراقبة. أكوام صغيرة من الكتب على الأرضية وتقيض بها الرفوف. ما هو ما توقعت أن تراه في حجرة العائلة. كتب في النقد الأدبي، ونظرية الأدب، كتب عن الشعر، مجموعات قصصية وروايات، وعرفت أن هذا مكتب إليزابيث. تلك هي إليزابيث التي ارتبطت بها، المرأة التي انجذبت نحوها على الفور وبشدة. كانت هناك كومة من الجرائد على المكتب، ومقالات من صف آخر من صفوف إليزابيث. فكرت سارة أنها ستكون هكذا يوما ما. لها صفوفها الخاصة، وطلابها. وربما حتى مكتب في البيت. رغم أنه لن يكون بيتا كهذا. لكنها ووسام سيكونان سعيدين في شقتهم الصغيرة قرب شارع أبو قير بوسط البلد بالإسكندرية.

حين مرّت الإسكندرية بخاطرها ذكّرتها بصلاة المغرب. فكرت للحظة في تأجيل الثلاث ركعات هنا، وجمعها مع صلاة العشاء عندما تعود إلى البيت. لكن البيت كان هادئا وبريندان نائم، وهكذا شقت طريقها إلى حجرة العائلة وإلى مساحة فارغة أمام جهاز التلفزيون. بدأت الصلاة متوجهة نحو القبلة، برأس مطرقة، ويدين مضمومتين على صدرها، متممة بكلمات الفاتحة قبل الركوع، والاعتدال مرة أخرى، ثم السجود على السجادة، وجبينها منخفض حتى يلامس الأرض. وبين الحركات كانت تتمم بكلمات الصلاة. قرب النهاية، وهي ما زالت منغمسة في الصلاة، أحست سارة بحركة، بشيء عابر التقطته بطرف عينها، لمحة من بريندان في طرف المطبخ. لكن عندما نظرت في ذلك الاتجاه لم يكن هناك أحد.

أسرعت لتنتهي اللحظات القليلة الأخيرة من الصلاة وهبت على قدميها. نادت: «بريندان؟» ولا من مجيب. «بريندان، هل هذا هو أنت؟»

كانت الصالة والبهو فارغين. تطلعت إلى الدرج شبه متوقعة أن تجد بريندان يطل عليها من فوقه، لكنه لم يكن موجودا هناك. وبينما كانت تصعد الدرج، تساءلت إن كانت قد خُيلت لها الأشياء. سيكون بريندان في الفراش حيث تركته. شقت طريقها عبر الطابق العلوي إلى حجرة نومه، وبرفق دفعت

الباب لتفتحه. كان المصباح إلى جانب الفراش مضاء، والحجرة تسبح في ضوءه الناعم، لكن الأغشية كانت مزاحة إلى الوراء والسريير خاليا. كتمت سارة موجة من الذعر وهي تخرج من حجرة نوم الصبي.

“بريندان..” هتفت محاولة أن تطرد القلق من صوتها. “بريندان، أين أنت؟”

أسرعت لتهبط الدرج من جديد منادية باسم بريندان. ولا من مجيب. اندفعت عائدة إلى حجرة العائلة، والمطبخ، وإلى جوار المطبخ كانت هناك حجرة طعام جيدة التهوية وحجرة معيشة. أسرعت الخطى عبر الأروقة وهي تنادي بريندان بينما تطل من جديد في مكتب إليزابيث، وحجرة لعب بريندان، وفي الحجرة المجاورة لها - حجرة تدريبات رياضية بها جهاز مشي ودراجة ثابتة وشاشة تليفزيون معلقة. والحجرة المجاورة لها: حجرة ضيوف مُرتبة وحمّام، وأخيرا عند نهاية الصالة ما حدثت أنها حجرة مكتب جيمس؛ مكتب ضخم من خشب البلوط، سطحه ممسوح وخالي إلا من الشاشة المعتمة لحاسوب مكتبي ولوحة مفاتيح. إلى جوار المكتب مقعد جلدي دوّار سميك له مساند عميقة. بطول الحائط المقابل كانت هناك خزانة ملفات خشبية وعليها صورة مؤطرة لإليزابيث في ثياب المستشفى، وثمة لمعة من العرق على جبينها، وابتسامة مرهقة، وجلد أعلى صدرها مكشوف لبريندان الذي تكوم عليه عاريا بلون وردي.

شيء ما في الشعور الإسبرطي الذي نثيره الحجرة، صورة إليزابيث وابنها حديث الولادة، استحضر صورة جسد أشرف، الدامي والجامد بلا حراك، لتطغى على عقلها وتصيبها بحالة من الذعر.

“بريندان!” هتفت وهي تصرخ الآن مترنحة في صعودها الدرج من جديد، وكعبا حذاءها يقفعان على الدرجات، ويدها تنتشبتان بالدرابزين، دافعة نفسها إلى أعلى. “بريندان! من فضلك! أين أنت؟”

كانت حجرة نوم بريندان فارغة كما كانت من قبل. هذه المرة سقطت سارة على ركبتيها، ونظرت أسفل الفراش. لا وجود لبريندان. اندفعت عبر الصالة، وأطلت برأسها في أحد الحمّامات، وبعد ذلك في حجرة النوم الرئيسية في الطرف البعيد من الصالة، بسريرها الملوكي ونوافذها الفخمة المطلة على تلال شمالي كاليفورنيا المعتمة، وحمّامها الرحيب الذي يضم كابينة دُش وجاكوزي ونضدا رخاميا فوقه القليل من مستلزمات الحمّام أسفل مرآة هائلة مؤطرة. في تلك المرآة لمحت نفسها، وجهها متورد ومخطوف، وحجابها مائل، وخصلات منفلثة من شعرها الساقط بارزة من أسفل الحجاب، وخيط رفيع من العرق يغطي بحباته شفثها العلوية.

ثمّة المزيد من الحجرات في الطرف الآخر من الصالة، لكنها لم تخاطر بدخولها. اندفعت هابطة الدرج إلى حجرة العائلة، وتناولت حقيبة يدها من فوق الأريكة ونقبت فيها حتى أخرجت هاتفها الخليوي. بحثت عن رقم هاتف إليزابيث في قائمة اتصالاتها حتى وجدته، وتعذبت للحظة وهي تفكر إن كان ينبغي أن تتصل بها الآن أم تستمر في البحث. تخيلت ما يمكن أن تظنه إليزابيث بها. ودون أن تقصد تماما، دق إصبعها على الشاشة وبدأ الاتصال. تأوهت سارة وبحركة غريزية أنهت الاتصال. لكن إليزابيث ردت بالاتصال على الفور.

قالت إليزابيث: «أهلا سارة، هل كل شيء على ما يرام؟»

كان بمقدورها سماع الضحك وثرثرة الأصوات في الخلفية. تخيلت إليزابيث في ثوب سهرتها مكشوف الصدر، وخلفها رجال ونساء آخرون متأنقون في قاعة رقص مضاءة بالثريات. مشهد من فيلم كما دار بخلدّها. مشهد مرعب من فيلم. قالت دون تفكير: «لا أستطيع العثور على بريندان..»

«ماذا؟» قالت إليزابيث، والقلق المتنامي في نبرتها واضح لا لبس فيه، الأمر الذي أضاف فقط المزيد إلى كرب سارة.

«لقد بحثت في كل مكان..» قالت سارة دون أن تحاول السيطرة على الذعر في صوتها. «كل مكان تقريبا. لا أستطيع العثور عليه.»

قالت إليزابيث: «لا بأس. سنأتي حالا. استمري في البحث، ماشي؟ فقط استمري في البحث!» اختنق صوت إليزابيث، بحّة غليظة، وسمعتها سارة تقول لأحدهم، لعله جيمس: «لا تستطيع العثور على بريندان..» قبل أن تغلق الخط.

فكرت سارة بعد ذلك في الاتصال بوسام. لكن مرة أخرى ترددت. ينبغي أن تكون قادرة على التعامل مع هذا الموقف وحدها. لا علاقة لوسام بهذا، ولا يوجد سبب لتوريطه في الأمر. غير أنها تآقت إلى دعمه وإلى سماع صوته. أخذت سارة نفسا عميقا وأجرت الاتصال.

«كنت أصلي..» ثم أجهشت بالبكاء، وخذلها صوتها. «أعتقد أنه رأني أصلي. ربما أخافه هذا.»

قال وسام: «هذا سخيف. أنا قادم.»

قالت سارة: «لا من فضلك لا تفعل. هما عائدان الآن. من الأفضل أني هنا وحدي.»

وحدها، تعثرت سارة في أرجاء البيت وهي تتوسل لبريندان وتتلقى اتصالات إليزابيث المتكررة.

«لقد اتصلنا بالشرطة..» قالت إليزابيث لها في الهاتف. «فقط استمري في البحث من فضلك!»

استمرت في البحث، مجتازة بجنون نفس الحجرات مرة بعد مرة، وهي تعدو صاعدة وهابطة الدرج الحلزوني الجميل، ولم تتوقف إلا عندما سمعت صرير عجلات السيارة على الممر. جرت سارة خارجة من الباب الأمامي وهابطة ممر السيارات الطويل بينما كان جيمس يوقف السيارة وإليزابيث تخرج بجهد من السيارة وتهرع نحوها.

صرخت إليزابيث باكية: «هل عثرت عليه؟»

«لا. لقد بحثت في كل مكان..» قالت سارة، وهي تمسح دموعها. «وضعته في السرير وبعد ذلك نزلت إلى الطابق الأرضي وكنت أصلي وظننت أني رأيته بطرف عيني وعندما انتهيت من صلاتي، بعد دقيقة واحدة فقط، بل وأقل، كان قد اختفى.»

توقفت إليزابيث عن السير وحدقت في سارة. «صلاتك؟» قالت. «رأيت ابني لكنك كنت مشغولة بالصلاة؟»

«كان ذلك لأقل من دقيقة. بل أقل. لم أكن متأكدة حتى.»

“لم أَدفع لك كي تصلي..” صاحت إيزابيث وهي تندفع مع جيمس متجاوزين سارة إلى داخل البيت. وبعد ذلك كررت قولها: “لم أَدفع لك كي تصلي. دفعت لك كي تعتني بابني!”

تبعتهما سارة وهي تسمعهما يناديان بريندان. لم تكد تخطو داخل البهو حتى رأت الصبي يظهر على ما يبدو من حيث لا تدري ويلقي بنفسه بين ذراعيّ أمه.

شهقت سارة وأحست بالحجرة تدور من حولها، وسمعت إيزابيث تقول لابنها: «لا بأس. لم تقصد أن تخيفك. لا بأس.»

حاولت سارة أن تنزل بجسدها في بطن الأرض، ورأت جيمس يمد يده ليسندها، وسمعت وسام يصرخ باسمها، وفي المكان كله دَوّت سارينات الشرطة والتمعت الأضواء الزرقاء.

ماجدالينا عند المساء

وسط تلك الصحراء القاحلة، كانت تحمل عبء رغبتني. ماجدالينا مورينو، وسأعترف بهذا، حتى بعد خمسة عشر عاما، لم أنسها تماما، كانت بكل المقاييس مغتربة إيطالية سعيدة في زواجها. ملكة جمال سابقة لميلانو (لديها صورة لنفسها في ثوب من الحرير الهفاهف وتاج ماسي لتثبت هذا) متزوجة من محاسب محترم -ابن مدينتها المفضل، والذي صار الآن طريح الفراش من وقت لآخر- وأم لطفلين، وفي تلك المساءات القائظة الموحشة: حب حياتي، وحسنا أحلامي المتأودة.

مع ذلك لولا الحرارة الشديدة لكنت بخير. كان كل شيء سيسير على نحو مختلف، وكان يمكن أن أفضي ذلك الصيف بأكمله في مراقبتها. حتى الآن، بعد كل هذه السنوات العديدة، أنا متأكد من هذا.

لكن تلك كانت شمال أفريقيا، عام 1975، صيف طويل جاف، وكان القيظ لا يعرف الرحمة. علاوة على ذلك، كانت إيطالية. قال أبي إن الرجال الأيرلنديين لطالما كان لديهم شيء ما تجاه الإيطاليات. وربما الإسبانيات أيضا. قلت: إذا كيف تأتي أن تكون أمي ألمانية؟ فأجابني: ضلال البصيرة.

كانت احتياجات أبي أبسط بكثير. كان لديه عشقان كبيران فقط: النبيذ والتاريخ. لكن من خلال نبيذه المصنوع في المنزل حدث وأن تعرفت على ماجدالينا لأول مرة. وبسبب عشقه للتاريخ حدث وأن تركت مكشوبا وهشا أمام جلافة الصيف. بقية زملائي في الفصل، أبناء موظفي شركة البترول، كانوا في طريقهم عائدين إلى الولايات المتحدة بمجرد انتهاء الدراسة. أما أبي فكان يُدرّس في الجامعة المحلية ويلاحق شغفه، بغض النظر عن فصول السنة. وهذا الصيف كان شغفه هو (الحضارة الغربية).

أعلنها: «إنها مسؤولية عظيمة. مسؤولية لا يمكنني أن أنفضها عن كاهلي ببساطة لبضعة شهور في سانتا كروز بوردووك¹³..»

“لم لا؟” جادلته. كنت أفكر في نسيم المحيط الهادي العليل، والفتيات بالشورتات والفانلات بلا أكمام إلى أبعد ما يمكن لعيني أن تريا، وموسيقى فريق إيجلز تتطلق من مكبرات الصوت. أغنية هوتيل كاليفورنيا.

“لم لا؟ لأننا قد تركنا وراعنا في كل أنحاء العالم خيطا داميا من الخراب. محولين كل جنة عدن إلى أرض يباب. شيء مخز. غير مفهوم. تلك المكائد الوحشية من رجال مجانيين.” توقف قليلا، وأخذ جرة كبيرة من نبيذه، ثم أضاف: “هذه فرصتي، فرصتنا، لنبدأ عملية العلاج، الغفران، بل والخلاص. يمكننا البدء في فهم أحدهما الآخر. الشرق والغرب معا، وليس ضد أحدهما الآخر.”

كان هذا كله جيدا وطيبا، بتوقع أن طموحاتي أكثر محدودية بكثير، وتتضمن بالأساس قضاء أيام الصيف الفارغة ببعض من بقايا الصحة العقلية. أما بالنسبة للنبيذ، فقد كان غير قانوني تماما. لم يكن بمقدورك أن تشتري الكحول في أي مكان في البلد. لذا اعتاد أبي أن يقطر نبيذه من الكروم المحلي. كان يقوم بهذا في علب زبالة مطاطية كبيرة معزولة في كشك مكيف الهواء كان قد بناه في ساحتنا الخلفية. قوبل هذا المشروع برفض أمي المرير. «لم تكن فكرتي أن أنتقل إلى هذا المكان الذي هجره

الله..» شكت غاضبة. «والآن سنلقي بنا في السجن.» كانت مستشارة توجيه في المدارس الثانوية من مدينة فريسنو بكاليفورنيا، وقد عاشت هناك بسعادة كل حياتها.

«هنرييتا، حبيبتي، كوني مسؤولة..» قال أبي بأقصى صوت مهدئ يمكنه أن يستجمعه، بما أن النبيذ هو موضوع النقاش. مسد كنفها وهي واقفة في المطبخ تريح يديه عن كتفها وتهرس بسخط كومة من البطاطس. «أنا لا أبيع النبيذ. إنه من أجل استهلاكنا الشخصي.»

«استهلاكك..» قاطعته.

«سيمر الأمر بخير. أعدك. لن يكتشف الأمر أحد.»

كنا في هذا البلد منذ عام عندما وصل الزوجان مورينو. جارنا الأسبق كان مهندسا نمساويا أعزب. وكان رجلا شاحبا مصابا بالربو له أداء عصبي. في الربيع والصيف عندما كانت الرياح القادمة من الصحراء تكتسح المكان بعواصفها الرملية، كان يختفي في بيته لأيام بطولها. وذات مرة، بعد نوبة ربو شديدة الحدة وأيام عديدة في المستشفى، غادر البلد تماما. لم يعرف أحد في الحي إن كان سيعود. في البداية تحدثنا جميعا عنه. بل إن كريج فولر، الذي كان يعيش في آخر شارعنا ويعمل في شركة موبيل، ذهب إلى سفارة النمسا ليستفسر عنه. لكننا كنا مجتمعنا صغيرا من المغتربين الأمريكيين والأوروبيين، اعتدنا على الهجرة المفاجئة. كانت لنا مدرستنا الخاصة، وعيادتنا الطبية ومحلاتنا كلها داخل حي واحد؛ والذي رغم أنه لم يكن مصمما قط عن قصد من أجلنا، إلا أنه قد أصبح مع السنين مسكونا على نحو شبه حصري بالمواطنين الأجانب. عشنا إلى حد كبير داخل حدود حيننا، وعرفنا القليل عما كان موجودا فيما وراءه. بالنسبة للأغلبية، كان العالم خارج الحي مختلفا ومخيفا وغير متوقع. ثمة موجة حديثة من الاضطرابات ومقتل مواطن أجنبي زائر قد دعما ذلك الشك، وشددا أكثر على عزلة مجتمعنا عن بقية المدينة. والآن، نادرا ما كان يخاطر أي شخص بالدخول إلى الأحياء المحيطة. جاء الناس ليكسبوا المال وبعد ذلك يرحلون. كل اتصال إنساني كان قائما على هذا الافتراض الأساسي. هكذا عشنا. وهكذا بعد أن استقر الزوجان مورينو في البيت، كان من السهل أن ننسى ساكنه الأسبق.

بعد أن وصلا بيوم، أرسلني أبي إليهما بزجاجة نبيذ. وقال: «هدية الانتقال إلى البيت..» فتحت ماجدالينا الباب. كانت تنظف البيت. أمسكت بمسحة في يد وألقت بخرقة قدرة على كتفها الآخر. كانت تلتقط أنفاسها بعناء. وكان شعرها مرفوعا بدبابيس وملموما في كعكة، والتمع جبينها بحبات من العرق. تحت إبطيها كان قميصها ينز بالماء، وفاحت منها رائحة عرق عطنة. كانت لها عيان واسعتان حزينتان، ووجه بيضاوي ناعم بأنف جميلة النحت، ترتفع قليلا عند طرفها. كانت تلك أول مرة أراها فيها. كانت فاتنة ووقعت أنا في الحب.

«قيظ فظيخ!» قالت متشكية قبل أن تواتيني فرصة لتقديم نفسي. «أهي هكذا طوال الوقت؟»

«الجو حار..» قلت. «الصيف حار.»

«من أنت؟» تساءلت. بإنجليزية خاطئة تماما. لكن لكنتها جميلة، إيقاعية.

«أنا مارك. أعيش في البيت المجاور. وهذه هدية من بابا..» قلت وأنا أرفع زجاجة النبيذ. «هدية

الانتقال إلى البيت." وانتقل النبيذ من يد ليد.

قالت: «لماذا هذه؟»

أجبتها: «للاحتفال بالانتقال إلى البيت.» نظرت إليّ متسائلة. قلت: «هدية، هدية ترحيب. نبيذ. لا يمكنك شراءه من أي مكان. في الحقيقة، هو ممنوع قانونا.»

تساءلت: «من أجلي؟»

أومأت برأسي.

قالت: «من فضلك ادخل.»

كان صباح يوم سبت. ولم يكن لديّ شيء أفعله أفضل من ذلك. علاوة على ذلك لم يكن النمساوي قد دعا أي أحد إلى بيته. من الخارج بدا البيت مثله مثل أي بيت آخر في الحي - بناء من حجر جيرى عسير الوصف، مربع، ومن طابق واحد. ومن الداخل لم يكن مختلفا بأي شكل أيضا، غير أنه كان خاليا من الأثاث. كانت السقوف عالية كالمعتاد لتسمح للهواء الساخن بالصعود إلى أعلى، وقد زاد هذا من الفراغ الشامل للمكان.

قالت: «لا مائدة، لا مقعد، أنت تعرف..»

قلت: «أثاث.»

“نعم.”

قلت: «ليس الأمر وكأنك كنت هنا لمدة عام..»

“لا. لا. ليس عاما. أمس فقط.”

قلت موافقا: «هذا صحيح.»

“باولو!” نادى. “باولو!” ثم بدأت ترطن بالإيطالية بسرعة.

كان باولو راقدًا على ظهره فوق لوح خشبي على البلاط في حجرة الطعام الخالية. وثمة مروحة تنزّ أزيزًا مزعجا إلى جواره. تطلع إلينا. فحّت بشيء إليه ثم التفتت إليّ وقالت: «تأذى ظهر باولو أثناء النقل. لديه دائما ظهر مريض..» نهض باولو متألما. كان رجلا طويلا ثقيل الحركة، له صدر غليظ وذراعان مشعران.

قالت: «هذا ماك.»

قلت: «مارك. أعيش في البيت المجاور.»

تصافحنا.

قالت رافعة الزجاجة: «يحضر لنا نبيذا.»

ابتسم باولو ابتسامة عريضة. تساءل وعلى وجهه تعبير متعجب: «أين تشتري هذا؟»

قلت: «صناعة منزلية. إنه ليس فائق الجودة. لقد تذوقته من قبل.»

قال باولو: «النيبيذ هو النبيذ.»

قلت: «ستتسجم مع بابا.»

تساءل: «قابلت جيانكارلو ومارشيللو، ولداي؟»

“لا.”

“تعال.”

تبعته إلى داخل المطبخ وخرجنا من الباب الخلفي إلى الساحة. كان جيانكارلو ومارشيللو يلعبان في التراب بلعب على شكل جرارات.

قالت ماجدالينا: «هما لا يباليان بالحرارة.»

“هذا ماك..” قال باولو لهما.

قلت: «مارك.»

رفعا عيونهما للحظة ثم عادا إلى لعبهما.

قال باولو: «تعال العب مع ولديّ في أي وقت يا ماك.»

نظرت إلى الولدين. كانا في السادسة وفي العاشرة من عمريهما، أو نحو ذلك. «بالتأكيد..» أجبته شاعرا بالإهانة على نحو ما.

أوصلتني ماجدالينا إلى الباب. قالت: «اسمي ماجدالينا.»

“كان من اللطيف لقائك يا ماجدالينا.”

“اشكر ماما وبابا على النبيذ.”

وعدتها أنني سأفعل.

“كيف حال الجيران؟” سألني أبي عندما عدت إلى البيت.

“بخير. الرجل يُدعى باولو. وقد تحمس للنبيذ.”

“ما اسمها؟”

“ماجدالينا.”

“جميل..” قال أبي.

فقط في وقت لاحق بدأت أعيد التفكير في قيمة الصداقة الوثيقة مع جيانكارلو ومارشيللو. فعليا كان

كل من أعرفه قد رحل لقضاء الصيف بعيدا، وكنت قد ودعت فتاتي ليز منذ أسبوع. قبل أن ترحل تبادلنا الحب في واحد من الأزقة عند طرف حينا. كان الزقاق مظلمًا ورطبا، وتسربت إلينا الأصوات من السوق العربي أسفل التل. بصوت قوي وخشن، نادى بائع متجول على بضاعته. شعرت ليز بالإثارة.

همست لي: «أحب ذلك الصوت. وكأننا في واحد من تلك الأفلام القديمة.»

انزلقت يدي داخل سروالها.

“ليس هنا..” قالت وهي تتسحب مبتعدة، لكنها كانت تبتسم لي.

قبل شهر كانت قد طارت إلى مالطا لتقويم أسنانها، وعادت بمشابك التقويم. أحيانا بعد أن تأكل كان بمقدوري رؤية بقايا صغيرة من غذائها عالقة أسفل المعدن. كان كل هذا الحديد يثير توتري؛ فهو مكان خطر لأي لسان.

“فظيع جدا، هه؟” قالت بعد أن لاحظت تحديقتي.

“لا تكوني سخيفة.” قلت مطمئنا لها. “بالطبع لا.”

كنا قد عدنا لبيتها، لكن المزاج كان قد تبدد وصارت هي منز عجة.

قالت: «سأراك عندما أعود من الولايات المتحدة.»

قلت: «لا بأس.»

لذا فقد شكرت باولو على عرضه، وبدأت أحوم حول جيانكارلو ومارشيللو. لعبنا كرة القدم في فنائهم الخلفي. وكانت ماجدالينا دائما هناك. أحيانا كانت تجلس على الدرجات الخلفية للمطبخ نتفرج علينا. كنا نلعب واحدا ضد واحد والثالث يقف حارسا للمرمى. كان بمقدوري المرور ببساطة سواء من جيانكارلو أو مارشيللو، لكن عندما كانت نتفرج كنت أعتقد أنه من الأفضل كل فترة وأخرى أن أترك الكرة أو أسمح بدخول هدف.

“أنت أكبر من اللازم على ولدي يا ماك!” هذا ما قالته لي بعد أداء مثير للشفقة على نحو خاص من جانب ابنيها. “ربما يحتاجان للمساعدة.”

قلت: «لا بأس.»

قفزت واقفة وركلت حذاءها عن قدميها وقالت: «سأريك كيف تلعب..»

بدأ جيانكارلو ومارشيللو في التذمر.

“باستا! باستا!¹⁴!” صرخت فيهما. “يعتقدان أنهما ليسا بحاجة للمساعدة. لكنهما يلعبان مثل فأرين صغيرين ضريرين.» رفعت شعرها وثبتته على هيئة كعكة وانضمت إلى مارشيللو.

كان جيانكارلو هو حارس المرمى وكانت معي الكرة. راوغت مارشيللو بسهولة، وكنت في مجال التهديف في جيانكارلو، وهي ليست بالمشكلة الكبيرة لأنه كان بمقدورك دائما تقريبا أن تحرز في

جيانكارلو. كان الأمر وكأنه لا يوجد حارس مرمى على الإطلاق. كان يخشى للغاية من أن ترتطم به الكرة بقوة أكبر من اللازم؛ حتى أنك لو اقتربت منه مسافة خمسة أقدام سيتكوم قرب الأرض ويبدأ في النشيج.

هاجمتي ماجدالينا من الجانب الأيسر وأطاحت بالكرة بعيدا. قالت: «الأمر ليس بالغ السهولة الآن يا ماك!» كانت ترتدي فستانا قطنيا بُنيًا اضطرت للاستمرار في رفعه أعلى ساقها عندما تجري.

استعدت الكرة مرة أخرى للعب. هاجمتي مرة أخرى، لكني هذه المرة ركلت الكرة متجاوزة إياها وعابرة مباشرة بين ساقى جيانكارلو محرزا هدفا. بدأ جيانكارلو البكاء على الفور.

قلت: «ربما ينبغي أن تري إن كان باولو يريد المساعدة؟»

أجابتي بحدة: «باولو في العمل. ربما أنت فقط محظوظ.»

تحصّل مارشيللو على الكرة. تحركت نحوه، فمررها لماغدالينا. همّت ماجدالينا بركلها، لكني اعترضتها بقدمي، وتعثرت. جلست القرفصاء في سحابة من الغبار، ممسكة بكاحلها. سقط شعرها الأسود في كتلة متشابكة على كتفيها. نهضت، ونفضت فستانها، وساقاها مكشوفتان بلونهما الذهبي حتى منتصف فخذاها. كان الوقت ظهرا، وكانت الحرارة في ذروتها وكان التراب يحرق عيني.

كانت قد لوت كاحلها في سقوطها، وساعدتها في الدخول إلى البيت. ظللت في المطبخ وهي تعرج إلى الحمام. من المطبخ كان بمقدوري رؤية جيانكارلو ومارشيللو في منتصف شجار. قام جيانكارلو بركل مارشيللو. رد له مارشيللو هديته وبدأ جيانكارلو يبكي.

نادت ماجدالينا: «ماك! من فضلك.. كوب من الماء.»

صبيت لها كوبا من الماء وذهبت للبحث عنها.

قالت: «هنا يا ماك.»

كانت جالسة في حجرة النوم على حافة السرير، تدلك كاحلها. «هل أنت بخير؟»

«رجلي فقط منفوخة قليلا بعض الشيء..» قالت موضحة، وفهمت من ذلك أنها تقصد أن كاحلها متورم قليلا.

ناولتها الكوب.

«شكرا يا ماك.» ملّست بيدها على كاحلها المصاب، ثم على سمانتها المكشوفة وحتى تجويف ركبتيها.

قلت: «أنت جميلة..»

قالت: «كن ولدا طيبا يا ماك.»

قلت: «سأعود إلى البيت الآن.»

ابتسمت. «ولداي يحبانك.»

من نافذة حجرة نومها كان بمقدوري رؤية السور العالي عند طرف ساحتنا الخلفية، وفوق القمة تماما، السقف المائل لكشك نبيذ أبي. تموجت لمعة ضبابية من الحرارة منعكسة من فوق سطحه المعدني. قلت مقترحا: «ربما يمكننا لعب كرة القدم مرة أخرى في وقت لاحق.»

قالت: «نعم.»

ذلك المساء عندما أخذ والداي للنوم تسللت خارجا إلى الساحة الخلفية. في وقت سابق من ذلك اليوم بينما كنت واقفا في حجرة نوم ماجدالينا، بدأت تتشكل فكرة فيما يتعلق بنقطة مراقبة معينة وفرها كشك نبيذ أبي. في الظلام، سحبت سلما خشبيا من الجراج وتسلقت جدران الكشك. تمددت على بطني فوق السقف المائل، محتضنا المعدن المموج. من هناك كان باستطاعتي التلصص على حجرة نوم الزوجين مورينو. كانت النوافذ مفتوحة والنور مطفاً، لكن الزاوية كانت ممتازة. استطعت تمييز الخطوط العامة المبهمة للسريير، وظليلين لشخصين نائمين. لم يكن مجثمى فوق السطح مريحا مع دفء النهار الذي كان ما يزال يشع صاعدا من الكسوة الجانبية المعدنية ويصليني صهده، ومع الأزيز المستمر لجهاز تكييف الهواء في الكشك الذي كان يدمدم في عظامي. لكن الحرارة انحسرت مع المساء، وبين برهة وأخرى كان يهب نسيم خفيف من الساحل في اتجاهي. وبينما أنا متمدد على السقف، وجسدي يهتز متذبذبا مع مكيف الهواء، رنوت إلى حجرة نوم ماجدالينا المعتمة وفجأة بدا الصيف محتملا تماما، بل ومرحبا به.

نمت قرير العين تلك الليلة، وفي اليوم التالي صحوت مبكرا وسرت إلى نادي الشاطئ. كان شاطئا خاصا، يتردد عليه المغتربون الأوروبيون والأمريكيون. كي أصل إلى هناك من بيتي كان علي أن أسلك الطريق الترابي المار بمدينة الصفيح - وهي مساحة ميل من أكشاك الصفيح العشوائية تتأخم حينا وتمتد شمالا إلى البحر. ثمة صمت مقلق يحيط بتلك العشوائيات كان يجعلني مضطربا دائما. من وقت لآخر كنت أستطيع سماع وليد بيكي أو محرك سيارة يدور. وأحيانا كنت أتمكن من التقاط صوت راديو يذيع موسيقى عربية. لكن في العادة لم أكن أسمع شيئا إلا الأمواج من بعيد، والنسيم الساحلي يحف بالعشب القصير على الكثبان الرملية التي كانت تفصل الأكواخ عن البحر. ورائي كان الطريق الرئيسي المؤدي إلى داخل المدينة. كان الطريق الممهّد الوحيد في المنطقة. كل شيء آخر كان يغلب عليه التراب، والطرق الجانبية محفوفة بأسوار من الحجر الجيري. كنت قد اعتدت على الأزقة في حينا وصرت أنطلق مسرعا على دراجتي عبر مسارها المتعرج. لكن هنا، رغم أن بمقدورك أن تنظر إلى ما وراء أكشاك الصفيح إلى البحر المفتوح في الشمال، والأحياء المتناثرة إلى الشرق؛ إلا أنه كان ينتابني شعور بكوني على الحافة من كل شيء - على طريق ضيق بين البحر والسماء، مضيقا عيني أمام الوهج الساطع للصفيح والتراب الذي تثيره قدمي أو سيارة عابرة. لذا كنت أسرع من خطوي، وأهرع إلى بوابات نادي الشاطئ المصنوعة من الحديد المشغول. أبرز تصريحي، وأدخل.

داخل النادي كنت أختار بقعة قريبة من الماء. كانت بضع عائلات متناثرة قد نصبت بالفعل مظلات الشاطئ. تمددت على منشفتي، واستندت في رقتي على كوعي وحدقت في البحر المتوسط، وسطحه الأزرق اللامع الرائق يذكرني ببحيرة تاهو¹⁵ في الشتاء. بعد بضع دقائق انقلبت على بطني وانجرفت في النوم مفكرا في ماجدالينا مورينو.

«مارك.»

كانت أمي.

«ساعدني.»

كانت تحتضن مظلة شاطئ بذراع وتحمل برّادا في الآخر. صفقتُ.

«توقف عن هذا..» قالت نافذة الصبر.

فردت المظلة وثبتت قاعدتها بعمق في الرمال.

قالت أمي: «لا ينبغي أن ترقد تحت الشمس مباشرة هكذا. ستصاب بسرطان الجلد.» كانت ترتدي طاقيّة وفسّانا أبيض فضفاضاً. دعكت الكريم الواقي من الشمس على ذراعيها، ثم فردت كتلة كبيرة منه على سمانتيتها المكسوتين بالنمش. «لقد دعوت السيدة مورينو وولديها. هم يسجلون أسماءهم في مكتب الاستقبال. ابق عينيّك مفتوحتين عليهم.»

بعد لحظات لمحت ماجدالينا ولوحت لها. قلت: «مرحباً..»

«مامتك لطيفة جداً يا ماك. البيت حار أكثر من اللازم.»

قالت أمي: «هذا البلد حار أكثر من اللازم.»

قلت: «على عكس فريسنو.»

قالت أمي: «لا علاقة لهذا بالموضوع.»

كان مارشيللو قد اندفع بالفعل نحو الماء. وكان جيانكارلو يحاول الانضمام إليه، لكن ماجدالينا كانت تحول بينه وبين ذلك ممسكة به وهي تدعكه بالكريم الواقي من الشمس. انتهت من جيانكارلو وخلعت فسّانها. أسفله كانت ترتدي بيكيني من قطعتين، وجلدها بلون القهوة بالكريمة، أملس كخشب بلوط مصقول. قادت جيانكارلو إلى حافة الماء. راقبتها وهي تسير؛ وانقلبت على بطني متفرجاً.

قالت أمي: «يا للمسيح! هذه ليست الريفييرا.»

تركت الولدين على الشاطئ يطاردان الأمواج، ثم سارت إلى داخل البحر. لعق الماء جنببها. وغاص وركاها في الماء. وصل الماء إلى نهدبها. التفتت ولوحت للولدين، ولأمي ولي تحت المظلة. لوحت لها بدوري.

قالت أمي: «أتاك خطاب من ليز هذا الصباح.»

غاصت في الماء. وصعدت منه تلتمع.

«عنوان المراسلة فيرفاكس، فرجينيا. ظننت أنك قلت إنها من مينيسوتا؟»

غاصت مرة أخرى. هذه المرة ظلت تحت الماء وقتاً أطول، ثم خرجت فجأة إلى السطح. شلال من الضوء.

قلت: «إمم، لا أعرف.»

نادتنا كي ننضم إليها.

قالت أمي: «اذهب أنت، سأبقي عيني على الولدين.»

“فلتبقيا أنتما الاثنان على الشاطئ..” قلت لمارشيللو وجيانكارلو وأنا أمر بهما. لم أكن قط متأكدا من مقدار ما يتحدثاه من إنجليزية، أو إن كانا حتى ينصتا إلى أي شيء قلته. سبحت حتى ماجدالينا.

“مامتك لن تأتي؟”

“لا، لا أعتقد أنها تحب أن تبتل. قالت إنها سترقب الولدين.»

“ماك، هذا الماء جيد جدا.”

كان الماء ما زال يصل إلى صدرينا فقط، وكان دافئا، وعلى البعد كان مجرى من الزرقة يتحد بالسماء. سألتها: «كيف حال ساقك؟»

“رجلي بخير. ماك، هيا نسبح أعمق.” وصاحت بشيء إلى ولديها. صاح مارشيللو ردا عليها. سبحت تحت سطح الماء، وصعدت أمامي ببضع ياردات، ممتدة على الماء.

نظرت خلفي إلى الشاطئ. من بعيد تمدد وسط المدينة تحت سماء كابية محملة بالتراب.

“ماك، أشعر بحرية كبيرة هكذا. يمكنني التنفس. لوقت أطول من اللازم يا ماك، كأنك لا تستطيع التنفس. فقط تراب وشمس وطفلاي بيكيان طوال الوقت.” بدأت تعوم من جديد. تبعتها وهي تتقدمني في السباحة أعمق مما ذهبت من قبل على الإطلاق. كان الماء أبرد، وأمانا ببضع ياردات يتحول إلى اللون الأسود بسبب جزيرة عريضة من طحالب البحر الطافية.

قلت: «بلغنا عمقا كبيرا.»

“أكثر قليلا يا ماك. نتجاوز هذه وإلى الماء الأزرق..» قالت مشيرة إلى ما وراء الطحالب البحرية.

التفت ورائي إلى خط الساحل. كانت أمي واقفة على الشاطئ مع الولدين، تتطلع من أسفل طاقيتها نحونا. بدت صغيرة ومضطربة بعض الشيء في البعد. لوحت لها ولوحت لي بدورها.

قلت: «أعتقد أنها قلقة.»

قالت ماجدالينا: «لا توجد مشكلة.»

سبحت إلى داخل طحالب البحر وتبعتها، كان بمقدوري الشعور بتلك الطحالب، سميقة وزلقة، على ذراعيّ وصدري، وحتى ساقَيّ. كان الماء غامقا. حاولت أن أرى قدمي، لكنني لم أستطع.

قلت: «إنه أكثر برودة من المستطاع، سأعود.»

“هيا يا ماك. فقط أكثر قليلا.»

“إنه بارد للغاية.”

قالت: «ماك، أنت خائف.»

«لا، لست خائفاً. أنا فقط أشعر بالبرد.»

«صبي صغير، أظنك خائفاً.»

استدرت وسبحت عائداً إلى الشاطئ. عبرت ماجدالينا الماء الغامق وانطلقت إلى عرض البحر الصافي. وهناك على الشاطئ سألتني أمي: «هل لديها وجهة معينة في بالها؟»

قلت: «ربما. لا أعرف.»

جلست تحت المظلة وجففت نفسي. راقبت ماجدالينا وهي تعود مجتازة طحالب البحر وتتوجه إلى الشاطئ. بعد أن عادت إلى البر عصرت شعرها، ثم جلست على الرمال ولعبت مع ولديها. وفي لحظة التفتت إليّ ولوحت.

لاحقا عصر ذلك اليوم عدنا إلى البيت في السيارة معا. جلست مع مارشيللو وجيانكارلو في المقعد الخلفي، وأمي وماجدالينا في الأمام. قادت أمي السيارة. مررنا بمدينة الصفيح. ثمّة ولد صغير كان واقفاً على جانب الطريق. أمسك بعصا في يده، وكان يدفع بمحور معدني لعجلة دراجة بين ساقيه. راقبنا ونحن نمر بالسيارة ثم عبر الطريق جرياً، مستخدماً العصا لدحرجة العجلة أمامه.

قلت: «عندما كان الإيطاليون يملكون هذا البلد، كان على كل العرب العيش في أكشاك مثل هذه.»

قالت أمي: «كان هذا منذ زمن طويل. قبل البترول.» وفي مرآة الرؤية الخلفية رمقتني بنظرة حادة.

قلت: «ذلك عندما كان الإيطاليون هنا. أي شخص كان يعارض الإيطاليين كان يتعرض للتعذيب.»

«مارك!» قالت أمي. «ما خطبك؟»

قلت: «حقيقي! لهذا كثير من الرجال المتقدمين في السن عُور.»

قالت أمي موجهة حديثها إلى ماجدالينا: «ذلك من المرض. كانت أمراض العيون متفشية هنا.»

قلت: «ذلك من التعذيب. أسألي بابا. لو قبضوا على أحد بتهمة العمل ضد الإيطاليين كانوا يركعونه أرضاً ويغرسون إبرة معدنية ساخنة في إحدى عينيه. كان ذلك هو العقاب.»

قالت أمي: «يكفي هذا يا مارك..»

قالت ماجدالينا: «لو أن هذا صحيح، فهو فظيع.» ولم تتوقف عن النظر خارجاً من نافذتها.

قلت: «هو صحيح.»

قالت ماجدالينا: «أنا أسفة جداً على هذا. عليك أن تكون شجاعاً جداً كي تحارب من أجل الحرية. شجاع جداً. لا تخشى أي شيء. ولا حتى التعذيب. ولا حتى الطحالب البحرية.»

ظللنا صامتين بقية الطريق إلى البيت.

«مارك، أكان هذا ضرورياً فعلاً؟» تساءلت أمي بعد أن أنزلنا عائلة مورينو عند باب بيتهم. «لا

يتوجب على الجميع سماع رواية أبيك من التاريخ.»

قلت مُصرا: «هي صحيحة.»

«ولو..» قالت أُمي.

ذلك المساء رقدت منبطحا فوق سطح كشك النبيذ وتمنيت أن أحظى بالأفضل. كان ضوء حجرة النوم مضاء، وكان أول من رأيت باولو. وقف قرب النافذة، وجرمه الضخم يكاد يسد عني الرؤية. ثم تتأهب وجلس على طرف السرير. خلع فاندلته الداخلية، وبرز كرشه الوردي متدليا فوق نطاق سرواله. هرش فروة رأسه أسفل مساحة مجعدة من الشعر، ثم خلع سرواله وتمدد على السرير. من مكمني، لم أستطع أن أرى إلا ساقيه - غليظتين ومشعرتين.

ثم رأيت ماجدالينا وقفز قلبي نابضا. كانت ترندي قميص نوم وقد دخلت للتو إلى الحجرة. ضغطت على زر النور، وغرقت الحجرة في وهج أكثر خفوتا صادر عن مصباح إلى جوار السرير. وقفت عند طرف السرير وراقبتها وهي تتضو عنها ثوبها. كانت عارية أسفل قميص نومها. صعدت على السرير واعتدل هو في جلسته وأخذها بين ذراعيه. كان بمقدوري رؤية الانحدار الأملس لظهرها، ومؤخرتها كخوخة مشقوقة. أما عن باولو، فكان عليّ فقط أن أتحمل منظر ساقيه المشعرتين وهما ناتئتان كجذعي شجر على جانبي ماجدالينا. جثت بين ساقيه، ولبرهة ظلت رأسها تقوم بحركات متأرجحة صغيرة، ثم اعتدلت في جلستها، وطوحت شعرها خلفها، ومسحت فمها بظهر كفها. جثم باولو خلفها وركعت هي في مواجهتي بنهديها الكبيرين والمتأرجحين. للحظة كدت أقسم أن عيوننا التقت. ثم أخفضت رأسها وارتج جسدها إلى الأمام والخلف. ملت على جنبي، مشرئبا بعنقي كي أرى، عابثا في بنطلوني. وعند ذلك أدركت أنني كنت أنزلق من فوق سطح الكشك، وقبل أن أعي الأمر، كنت قد سقطت على الأرض.

أضاء المصباح في مطبخنا. وسمعت صوت أُمي تنادي: «مارك، أهذا أنت؟»

صحت بصوت أجش: «بلى..»

قالت: «اذهب إلى سريرك.»

كنت غارقا في العرق. وكسا التراب ذراعيّ ووجهي. ثمة ألم خفيف كان في كتفي حيث ارتطمت بالأرض. لكن للحظة بقيت حيث كنت، سعيدا إلى حد يسمح بتحمل أي مشقة، وقلبي يتخبط بين ضلوعي بينما أتذوق انتصاري الصغير.

كانت هناك مساحة من أرض ترابية تتاخم نهاية حينا أقرب إلى مكان السوق، وأحيانا كان أولاد في مثل سنّي يلعبون كرة القدم هناك في الصباح قبل قيظ الظهيرة، أو في المساء قبل حلول الظلام. كانوا يأتون من الأحياء المحيطة بمكان السوق. وكانوا يلعبون الكرة بأقدامهم الحافية؛ ويقومون بتصويبات طويلة قوية نحو المرمى - وهو مساحة بين قوالب مصفوفة من الحجر الجيري. كانوا يدوسون

بسهولة على التراب المفتت؛ ببطون أقدامهم الصلبة والقاسية. لا بد أنهم لاحظوني وأنا أراقبهم، رغم أن وجودي لم يكن معترفاً به قط.

خلال العام الدراسي، كانت لنا مواسم لعبنا في كرة القدم وكرة القدم الأمريكية والبيسبول. كنا نقيم المباريات في عطلات نهاية الأسبوع، مع هامبرجر وهوت دوج مشوي ومستورد من أمريكا. كل نهاية أسبوع كانت أشبه بكرنفال؛ حيث يحتشد مجتمع المغتربين إلى جوار أسوار المدرسة العالية - خليط من اللغات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية. كان صبية من العرب المحليين يجثمون فوق أسوار المدرسة ليتفرجوا. داخل فناء المدرسة كانت هناك فتيات يرتدين شورتات وملابس قادة التشجيع. بعد قليل من صفارات الاستحسان التي أطلقها المتفرجون المعلقون شكوا بعض الآباء. وتقرر في اجتماع لمجلس إدارة المدرسة نثر قطع من الزجاج المكسور أعلى الأسوار.

«شيء سخيف ومثير للاشمئزاز.» قال أبي وهو يستثيط غضبا.

ردت عليه أمي بحدة: «لو كانت لك ابنة ربما لم تكن لتشعر بهذا الإحساس.» كانت عضوة في مجلس إدارة المدرسة، وكان قد دار فيه كلام كثير عن «تلك الثقافة» وعن «أمان فتياتنا الصغيرات.»

قال أبي: «هؤلاء الأولاد لم يكونوا اليمسوهن. لم يكونوا ليضعوا إصبعاً عليهن.»

بعد ذلك رفض أبي حضور أي أنشطة ترعاها المدرسة. وقال لي موضحاً: «لا ينبغي أن تشعر بأنك ملزم بقراري. في النهاية، أنت صغير وذلك هو المكان الذي يوجد فيه أصدقاؤك.»

شعرت بارتياح طبيعي لسماع هذا.

أضاف: «فقط طالما أنك لا تسمح لهم بتغمية عينيك بأي تفسيرات تفننر للمنطق.»

قلت: «بالقطع لا.»

قال: «لقد بنينا الجيتو الصغير الخاص بنا.»

هكذا في عطلات نهاية الأسبوع كان يجلس وحده في ساحتنا الخلفية، ليشوي قطعة من الهامبرجر، ويشرب نبيذه، ويقرأ. كان يقول دائماً إنه يستمتع كثيراً بهذا الوقت وحده، وأصبحت حفلات شوائه الوحيدة حدثاً معتاداً. واستمر في عاداته تلك خلال الصيف، وفي واحدة من عطلات نهاية الأسبوع تلك، قرب المساء، دعا آل مورينو. كانت أمي غائبة في رحلة نظمتها السفارة الأمريكية، تقوم بجولة في الأطلال الرومانية (كانت قد سمعت أن زوجة السفير قد تكون هناك).

دخل أبي الكشك وانتقى أربع زجاجات نبيذ. قال: «الأفضل. مخزون المالك.»

رتبها في صف على مائدة الحديقة. قبيل وصول آل مورينو، كان قد أشعل نار الشواية وبدأ التعامل بدوره مع الزجاجاة الأولى. انطلق صوت المغنية تامي وينيت من جهاز التسجيل. «احتفال..» قال وهو يصفح باولو. «نبيذ جيد، طعام جيد، أناس جيّدون وزوجتي ليست هنا.»

ضحك باولو ورمق النبيذ. فتح أبي زجاجة أخرى وصب كأساً لباولو، ثم كأساً لمامجدالينا وثالثاً لي.

هتف باولو: «لا يوجد نبيذ أفضل من هذا في إيطاليا كلها!»

ضحك أبي: «في الصحراء الكبرى كلها..»

كان مذاق النبيذ أشبه بالخل. نظرت نحو ماجدالينا التي منحتني ابتسامة مغصوبة. دخلت البيت وسحبت زجاجتيّ كوكا من الثلاجة. كان باولو وأبي واقفين قرب الشواية يشربان. وكانت تامي وينيت تغني ملععة في الغروب الشمال إفريقي. دي-أي-شي-أو-أو-آر-سي-إي¹⁶.

سألتهما: «أين الصبيان؟»

قالت ماجدالينا: «أكلا بالفعل. يريدان لعب كرة القدم في البيت. أقول ما من مشكلة.»

قال أبي شيئاً عن الهامبرجر وضحك باولو ومسّد كرشه بيديه الغليظتين. قال: «ما من مشكلة. ما من مشكلة.»

قال أبي: «يمكنك أن تأخذ بعضها معك إلى البيت لو لم تتمكن من أكلها كلها.»

قال باولو: «أكلها كلها، ما من مشكلة.» صب النبيذ لنفسه ثم لأبي.

كنا جالسين على الدرجات الخلفية للمطبخ. فردت ماجدالينا ساقيها أمامها. قالت: «ماك، ليس لديك فتاة؟»

قلت: «ليس فعلاً..»

«ماذا تعني ليس فعلاً؟»

«تعني أنها في الولايات المتحدة لقضاء الصيف.»

«في أمريكا؟»

«هذا صحيح.»

«كيف هي أمريكا يا ماك؟»

قلت: «كبيرة.»

قالت: «ربما ذات يوم تُريني أمريكا.»

قلت: «بالطبع.»

«لكن يا ماك، ماذا تفعل هنا طوال الصيف؟»

قلت: «لا شيء. لا شيء هناك لأفعله.»

«ليس لديك عمل؟»

«لا.»

«أنت بحاجة لعمل، يا ماك. ربما دهان البيوت.»

قلت: «الجو أشد حرارة من القيام بذلك.»

فكرت للحظة ثم قالت: «ربما تجالس ولديّ؟»

«ربما.»

قالت: «نعم، في المرة القادمة التي نخرج فيها أنا وباولو تعتني بولديّ.»

«لا بأس.»

صاحت بشيء ما بالإيطالية نحو باولو الذي كان مع أبي واقفا قرب الشواية يحتسي الشراب.

رد عليها صائحا: «سي. سي. فكرة جيدة.»

قالت ماجدالينا: «الآن لديك عمل.»

أكلنا الهامبرجر المحروق وغطسنا في كيس كبير من شيبسي البطاطس البايطة يعود تاريخ انتهاء صلاحيته إلى أبريل الماضي. وتمدد أبي وباولو على مقعدَي الشيزلونج يتشاركان زجاجتهما الثالثة من النبيذ. كان شريط تامي وينيت قد انتهى واستبدله أبي بجورج جونز. كان عشقه لموسيقى الكانترى مصدرا آخر للخلاف مع أمي. ظللنا أنا وماجدالينا على درجات الباب نتطلع من وراء أسوار الساحة الخلفية إلى الغروب. وكان نسيم مالح متعب قد هب من الساحل. سقط باولو نائما على نغمات غناء جورج جونز: «لقد توقف عن حبها اليوم»، وسرعان ما تبعه أبي، وكأس النبيذ الخالي يرقد مائلا على صدره صاعدا وهابطا برفق مع كل نفس.

نظرت ماجدالينا إليهما، ثم إليّ وسألتني إن كنت أريد الرقص. قلت نعم ووقفنا ورقصنا رقصة بطيئة، أولا في الفراغ الترابي الصغير بين مقعدَي الشيزلونج والشواية، ثم عند طرف الساحة الخلفية قرب كشك النبيذ. أبقيت يديها خفيفتين على كتفيّ، وأمسكت بها من فوق وركيها تماما، شاعرا بجسدها لينا ودافنا تحت فستانها، واعيا بتوتري المتصاعد.

قالت بصوت هامس: «أنت مجرد صبي يا ماك. أنا سيدة كبيرة.»

لم أكن واثقا من الطريقة التي ينبغي أن أخذ كلماتها على محملها، لكنني أردت فجأة أن أخبرها بكل شيء. كيف شاهدتها مع باولو وما زلت أتذكر كل جزء من جسدها. كيف للحظة بدا أنها قد رأنتي، وحقق أحدها مباشرة في الآخر. لكنني بدلا من ذلك رقصت معها خلف كشك النبيذ حيث خبا صوت جورج جونز. ثم وجدت نفسي أحقق في تلك العينين الواسعتين السوداوين، وعرفت فقط أنني عاشق وأناي أشتعل بالرغبة وأنه لا يهمني أي شيء آخر. قبل أن تتمكن من الاعتراض كنت قد قبّلتها تماما على شفتيها، وتلويت بلساني قليلا في فمها وضغطت بجسدي على جسدها. تراجعت برأسها إلى الوراء، ليس بحدة، فقط ببطء وعزم. للحظة ابتسمت لي بحزن ثم قالت: «ماك.» كانت نبرتها تحمل عتابا رقيقا، لكنها أبقيت يديها على كتفيّ وكنت ما زلت ممسكا بها فوق وركيها تماما.

عدنا إلى الساحة حيث كان باولو وأبي ما زالائمين وجورج جونز ينتهي من غنائه ويخبو صوته تدريجيا. جلست على درجات المطبخ. جلست إلى جوارها وأمسكت بيدها في يدي وكنت سعيدا عندما أبقيتها هناك. قالت: «لقد عرفت رجلا واحدا فقط. أحبه وأطفالي كثيرا جدا.»

قلت نعم وأنهم محظوظون بوجودها. ثم بدأت تبكي بهدوء؛ عيناها السوداوان مخضلتان لكن وجهها جاف.

قلت: «أفهم.»

ضحكت ومسحت عينيها. قالت لا وأني لا أفهمها بالفعل وكيف لي أن أفهمها. غير أنها مؤخرا أحست ببعض الراحة في صحبتي ومع البحر، عندما عامت وحيدة، ولم يكن هناك شيء غير الماء والسماء، بلون الألم. قالت: «أزرق كالألم.»

بعد سنوات كثيرا ما فكرت في ذلك الوقت. كيف دخلت هي وباولو وابناها في الإيقاع البطيء لحياتنا ذلك الصيف. لم تكن نزواتنا المخططة هي المؤثرة إلى هذا الحد، بقدر ما كانت اللقاءات اليومية التافهة التي ربطت حياتهم بحياتنا - صوتها في الصباح وهي تتادي مارشيللو أو جيانكارلو، أو عادتي في الجلوس على السور بين ساحتي الأماميتين مراقبا إياها وهي تنشر الغسيل. أحيانا كانت تعاني صعوبة في تعليق المفروشات، وكنت أقفز إليها وأساعدها في تثبيت ملاءات السرير، ثم أقف جانبا وهي تعلق سراويل باولو وقمصانه، وسراويل الولدين، وسراويلها -بالدانتيل الأبيض والسوداء- والتي كنت أوليها انتباها خاصا. كانت تلاحظ تحديقتي، وتبتسم لي، وتدعوني ببطلها الرياضي الصغير، وتقول إنها لو حدثت وفقدت أيا من ملابسها الداخلية ستعرف أين تذهب للبحث عنها.

عند الظهيرة، عندما تكون الحرارة في ذروتها، كنت ألوذ بداخل البيت، أحيانا إلى مائدة المطبخ، حيث كنت أحرق من النافذة الخلفية إلى كشك النبيذ ووراءه سطح بيته. ثم كنت أسمع صوتا قادما من حجرة نومها؛ التسجيل المخربش لنفس الأوبرا الإيطالية «لا ترافياتا»، والتي بدا أنها كانت ميالة على نحو خاص لتشغيلها في وقت ذروة العناء عندما تغدو الشوارع مهجورة، ويبدو أن كل شيء تحت الشمس قد ذبل وتطاير بعيدا. كانت تشغلها مرة بعد مرة، وكنت أتخيلها وحيدة في حجرة نومها والباب مغلق، وجهاز التسجيل على أعلى درجات الصوت، وهي جالسة إلى طاولة زينتها تحرق إلى انعكاسها في المرآة. أو ربما تقف قرب سريرها، بقبضتين مضمومتين إلى جانبها، مأخوذة تماما، في مكان آخر، حتى يأتي صوت طفليها وهما يطرقان باب حجرة نومها ثم يدقان عليه بقوة، أو صراخهما في الرواق، ليجبرها على العودة. في الليل، في الظلام، كنت أسترجع ما قد رأيته من ماجدالينا، حتى لكأنني هناك في حجرتها، لأنذا من سماء الظهيرة، أشاركها ملاءات فراشها الباردة.

عندما أتت فرصة مجالسة جيانكارلو ومارشيللو، قبلت. دُعيت هي وباولو للعشاء في بيت رئيس باولو في العمل. عندما وصلت إلى البيت كانت ماجدالينا تضع الولدين في الفراش. من مدخل حجرة نوم الطفلين شاهدتها تتحني وتطبع قبلة على جبين كل واحد منهما، ثم تقول شيئا ما بالإيطالية مع ذكر اسمي، لذلك تخيلت أنها تقول لهما أن يحسنا السلوك وألا يتسببا لي في وقت مزعج. لم أكن قد قمت بمجالسة أطفال إلا بضع مرات من قبل. كانت المرة الأخيرة لصالح زوجين من الأرجنتين لديهما طفل مفرط النشاط أطلقا عليه: بابوش. أرهقني بابوش تماما حتى أنني قرب نهاية الأمسية انهزت على الأريكة بينما كان بابوش ما زال يجري بجنون في البيت. عندما عاد الأبوان كنت أعط في النوم

وبابوش مشغول باللعب بالشوكة والسكاكين، واختبار الأجهزة الكهربائية عشوائيا. اعتذرت بشدة، ورفضت قبول المبلغ الذي كانا ما زالنا لطيفين لدرجة أن يعرضه، وتركت البيت في حرج دائخا. لذا شعرت بالارتياح لأن طفلي ماجدالينا كانا بالفعل في طريقهما إلى النوم.

تتبعنا ماجدالينا إلى المطبخ. مررنا بحجرة النوم حيث كان باولو واقفا أمام المرأة يضبط ربطة عنقه. قال: «تشاو، ماك!»

قلت: «هاي!»

في المطبخ فتحت ماجدالينا باب الثلاجة وقالت: «لديك أي شيء تريده يا ماك. أشتري آيس كريم من أجلك ولو أنت جوعان تفضل ولا تخجل. لا تكن خائفا بالضبط كأنك في البيت.»

شكرتها ثم شكرت باولو الذي دخل المطبخ للتو، وقلت لهما ألا يقلقا من شيء، وأوصلتهما خارجا إلى سيارتهما. عند السيارة أحاط باولو ماجدالينا بذراعيها، وقبلها قبلة طويلة، ثم نظر إلي وقال: «هي جميلة الليلة، صح؟»

«كل ليلة..» قلت، وفي نفس الوقت كان هناك ألم طاعن في أحشائي.

قبلتني ماجدالينا على وجنتي ودخلت السيارة. دخل باولو بيضاء جالسا إلى مقعد السائق، وهو يشكو من ظهره. انحسر في مقعده، ثم أسقطه إلى الورااء ليستوعب حجمه بشكل أفضل. أطلق تنهيدة متألمة، وحياني وصفق الباب ليغلقه. وبينما كانت السيارة تتطلق مبتعدة، التقت ماجدالينا ولوحت. لوحت لها ثم دخلت البيت.

نظرت لأطمئن على الطفلين. كان جيانكارلو نائما، لكن مارشيللو جلس في الفراش عندما رأيته أدخل. سألتني شيئا بالإيطالية لم أفهمه.

قلت: «ما الأمر؟ أنت جائع؟»

نظر إلي ببلادة، وكرر سؤاله مرة أخرى، لكن عندما وجد أن كل ما كان باستطاعتي فعله هو أن أبتسم له ابتسامة غبية وأداعب شعره، جذب الأغطية فوق رأسه ومضى لينام. سرت إلى داخل حجرة المعيشة وتمددت على الأريكة. ثم تذكرت الآيس كريم في الفريزر، بالشيكولاتة، فنهضت وجلبت لنفسني مغرقتين كبيرتين. عندما انتهيت تمددت على ظهري فوق الأريكة ممسكا برواية عن لغز جريمة قتل كنت قد جلبتها من البيت. قبل أن يمر وقت طويل كنت نائما.

كان الوقت قد تأخر عندما استيقظت. كنت جائعا. لذا عدت إلى المطبخ من أجل مزيد من الآيس كريم. ثم اطمأننت على الولدين اللذين كانا ما زالنا نائمين. في طريقي للصالة مررت بحجرة نوم ماجدالينا. كان الباب مغلقا، وللحظة وقفت بالخارج آكل الآيس كريم، محاولا أن أقرر إن كنت سأدخل أم لا. اتخذت قراري، وأدرت الأكرة ودخلت.

كان المصباح بجوار الفراش مضاء. وكان السرير غير مرتب، وفوق طاولة الزينة في مواجهته كانت زجاجات عطرها وماكياجها متناثرة بإهمال. كان بنطلون باولو الجينز معلقا على مقعد مستند إلى الجدار. أرحت الستائر ونظرت خارجا من النافذة إلى سور الفناء الخلفي وسطح كشك نبيذ أبي.

ثم أغلقت الستائر، ووضعت سلطانية الأيس كريم بالشيكولاتة الذائب على المنضدة المجاورة للفرش وجلست على السرير.

بينما كانت ترتدي ثيابها من أجل السهرة، كانت قد ألفت بملابسها الداخلية على السرير قرب الوسادة. وبما أنني وحدي في حجرتها، فقد تمددت على السرير وتفحصت ملابسها الداخلية. كان سروالها من الدانتيل السوداء، قديم بعض الشيء، بال عند نطاقه، وأشعر بالحرج إذ أقول إنني رفعتة إلى وجهي وشهقت بعمق، متشمما رائحة عطنها المكثور. كان هذا بالطبع سلوكا شائنا، وخطأ حقيقيا، وتخليا تاما عن الثقة والنزاهة، وغيابا كاملا للحكمة بالنظر إلى الوقت المتأخر. لكن في ذلك الحين اتخذت النزاهة واحترام النفس مقعدا خلفيا في الطرف القصي من صيف طويل موحش. كنت بالطبع واقعا في الحب بشكل فطيع، والآن وحدي مع سروال ماجدالينا الداخلي ملفوفا حول وجهي، وحريره الناعم على بشرتي العارية، كنت منعزلا كما يمكن للمرء أن يكون عن أي نوع من التأمل المتبصر. بدلا من ذلك كنت على حافة الماء، أشاهدها وهي تصعد منه، بشعر لامع، والأمواج تلحق برفق وركيها ثم فخذها البنين. وكنت أجبها إلى الأرض، وأكتشف نهديها، وأمرر يدي على ظهرها العاري، على البلبل الرطب لمؤخرتها العارية، شاعرا بالندوة بين ساقيهما، واضعا لساني بقوة عميقا في فمها. وهي تستجيب لعناقِي - تقوس ظهرها، وتضغط نهديها على وجهي، وتتمتم بأنها قد سقطت في حبي من أول لحظة رأنتي فيها.

سمعت اسمي ينادى. انفتح الباب، دخل باولو، ومن خلفه ماجدالينا.

ليس هناك الكثير مما يمكن للمرء أن يقوله في لحظات مثل هذه. يمكن للمرء أن يحاول، لكن الخيارات محدودة. «أهلا باولو، كنت فقط أتفحص ملابس زوجتك الداخلية.» تبدو سطحية بالنسبة للموقف. أو ربما: «كيف كانت سهرتكما؟ لم يمثل الطفلان مشكلة على الإطلاق. لا مشاكل هنا.» أو ربما فقط: «أنا عاشق لزوجتك. أحلم بها كل ليلة. ماذا يُفترض بي أن أفعل؟»

في الحقيقة، أي محاولة للتفسير محكوم عليها بالفشل. وبإدراكي لهذا، تركت فقط سروالها ينزلق من فوق وجهي، ووضعت جانبا، وأغلقت أزرار بنطلوني ونهضت. كان آيس كريم الشيكولاتة على المنضدة المجاورة للسرير، كتلة ذائبة. كانت ماجدالينا قد تركت الحجرة، وكنت وحيدا مع باولو، وجسده الضخم مؤطر بإطار الباب. كان رجلا مهذبا؛ وثمة حزن ما في عينيه عندما نظر إليّ.

قال: «لا مشاكل مع الطفلين يا ماك؟»

«لا..» قلت، ثم أضفت: «أنا آسف بشأن هذا.»

هز كتفيه وخطا جانبا لييسم لي بالعبور.

كانت ماجدالينا جالسة في الظلام في حجرة المعيشة.

«تصبحين على خير يا ماجدالينا.» قلت وأنا أمر بها في سيرتي.

«تصبح على خير يا ماك.» أجابت دون أن تنظر إليّ.

عندما أعود بتفكيري إلى الوراء أرى أن الأشياء الصغيرة فقط هي التي تغيرت. لكن معها تفككت البقايا الهيكلية لبناء كامل. كان أبي ليقول وهو يرشف نبيذه إن هذا شيء جيد؛ حيث تسقط الحواجز أخيراً، في ملعب مفتوح على اتساعه. في الصباح كنت ما زلت أسمع صوتها توبخ طفليها. وفي الظهر كان ينتهي إلى مطبخنا صوت أوبراها الإيطالية، وكنت أغلق عيني متخيلاً إياها. لمحتها مرات في الفناء وعند حافة الشارع تُخرج الزبالة. لو رأيتي كانت تبتسم لي ابتسامة صغيرة وبعد ذلك تمضي بعيداً. لم أعد أساعدها في تعليق غسيلها أو أراقبها من فوق كشك النبيذ. ولم تعد تدعوني مرة أخرى ببطلها الرياضي الصغير.

في حيناً المهجور فعلياً مع إغلاق مدرستنا طوال الصيف، كنت وحيداً. في بعض الأيام كنت أسير إلى الشاطئ وأسبح أبعد مما ذهبت مع ماجدالينا، متخيلاً للحظة أن هذا الفعل قد يعيدها، ويسمح لي بإعادة خلق نفسي في عينيها. وأحياناً وأنا وحدي، محاط بالماء، كنت أصدق هذا بالفعل، وأشق طريقاً إلى الشاطئ متفجراً بعزم مبهم. فقط بعد ذلك وأنا أسير عائداً إلى البيت مروراً بمساحة العشوائيات، مضيقاً عيني أمام التراب ووهج الشمس الساطع، كانت تفتت همتي، وتتبدد أفكارني عن الخلاص سريعاً أمام الصمت البالي لأكشاك الصفيح.

قرب نهاية الصيف بدأت العواصف الرملية. السماء التي كانت عادة زرقاء صافية بلا غيوم، صارت رمادية وبعد ذلك سوداء عند الأفق. تخيلت أنني سمعت هدير حريق هائل من بعيد، وهواء الظهيرة الراكدة تحول إلى هبات قصيرة حارة من الرياح. وبعد ذلك بدأت الرمال في التحرك. رمال تهب من الصحراء في الجنوب، أو من الطرق الترابية الملتوية، ومن الخط الساحلي الطويل الضيق. كانت تملأ الأنوف، وتكسو اللسان والفم، وتحرق العيون وتغزو فروة الرأس ومسام الجلد. رمال تكتسح كل شيء بجنون هائج، متسربة عبر مدخل البيت إلى الردهة، ومن خلال الشقوق عند حواف النوافذ إلى حجرات النوم وحجرة المعيشة. أغلق الشيش على النوافذ وحُشيت أعقاب الأبواب بالخرق. عادة ما كانت تستمر لأيام قليلة فقط. لكنني كنت قد كبرت على الذعر من العواصف، متوتراً من الشعور بالانحباس داخل البيت. في الخارج كان العالم نائياً دائماً، والآن وسط الضباب المشوش للرياح والرمل، صار حتى أكثر نائياً، أكثر انعداماً للرحمة والغفران. لذا كنت أضيء كل أنوار البيت، وأشغل شرائط فريق إيجلز. وأتخيل كاليفورنيا في الربيع.

13- مدينة ملاهي في مدينة سانتا كروز بكاليفورنيا، أنشئت عام 1907 وتُعد أقدم مدينة ملاهي في كاليفورنيا.

14- بالإيطالية تعني هذا يكفي!

15- بحيرة تاهو هي بحيرة مياه عذبة كبيرة في منطقة سييرا نيفادا بالولايات المتحدة.

16- أغنية شهيرة لتامي وينيت (1942-1998) المغنية والكاتبة الأمريكية تحكي فيها عن والدين كانا يتهجان حروف الكلمات التي لا يودان لابنهما الصغير ذي الأربع سنوات أن يسمعها، ومنها كلمة Divorce أي الطلاق الذي يحدث بين الوالدين في النهاية.

النزل

في سيدي عبد الرحمن، بعيدا عن الطريق السريع الرئيسي، كانت الطرق منزوعة الأحشاء مليئة بالحفر والأسفلت المكسور. أوقف نبيل السيارة خارج متجر أشبه بالكهف تقيض بضائعه على الرصيف المكسور: أواني طهي ومقالي مربوطة معا بحبل بال، كرات قدم بلاستيكية محزومة في شبكات ممزقة، قمصان وأثواب زاهية الألوان على مشجب معدني وأسفلها صف من الصنادل واللعب الرخيصة.

صاحب المحل، الذي كان يرتدي شبشبا وجلابية بهتت بفعل الشمس، كان جالسا باسترخاء على مقعد بلاستيكي في الظل، يدخن.

التقت نبيل إلى جوان وقال: «لا بأس. هل أنت متأكدة أنك تعرفين ما تحتاجين إليه؟»

أومات جوان برأسها وأخرجت ساقيها في حركة رشيقة من السيارة. كانت ترتدي تنورة قصيرة بدت مقبولة في المنتجع هذا الصباح، وإن بدت الآن أقل قبولا.

«السلام عليكم.» قال نبيل محييا صاحب المحل.

كانا قد هبطا في الإسكندرية بالأمس تماما عندما بدأت المظاهرات تشتعل. ناور سائق سيارتهما المؤجرة منطلقا على أطراف وسط المدينة ليتجنب الحشود، لكن كان بمقدورهم رؤية سحب الدخان الأسود من بعيد، وأصوات السارينات تخترق هدأة الأصيل. وحتى عندما انطلقوا في الطريق الصحراوي إلى هذا المكان المهجور، على مبعده 80 ميلا من الإسكندرية، لمحوا قافلة عسكرية تتطرق إلى الواجهة المعاكسة، نحو الاضطرابات. كانت جوان قد ابتسمت بشجاعة عندما ضغط نبيل على يدها.

خارج المدينة، أنزلت زجاج نافذتها لتأمل هبوط الظلام تدريجيا على الصحراء من حولهم، ورائحة عوادم البنزين والكبريت تتحسر رويدا، أمام هبة من رائحة شجر اليوكالبتوس. في المنتجع نامت نوما عميقا. أما هو فظل قلقا، يتجول في الغرف قليلة الأثاث ببيتهما المؤجر على الشاطئ في أرض المنتجع، والاضطرابات المحيطة بهما تثير لديه قلقا أقل من ذلك الذي تثيره حقيقة أنه قد عاد الآن إلى المكان الذي أقسم أبوه أنهم لن يعودوا إليه.

تطلعت جوان إلى نصبة الخضروات متفحصا حبات الخيار والطماطم التي بدت أصغر، وقشرتها أقل نضارة مما اعتادت عليه هناك في ديارها. رفعت خيارا إلى وجهها وتشممتها.

تساءل: «لطيفة؟»

قالت: «ناضجة بعض الشيء.»

«سأنتظرك في الخارج.»

تركها تتطلع إلى صف عجيب من المنظفات وعلب الحبوب الجافة، وأوما برأسه إلى صاحب المحل، الذي رفع كفا متشققا جافا، وتجول خارجا.

تمشى صاعدا التل إلى نهاية الطريق الترابي. إلى الشرق من هنا تماما كانت العلمين وأضرحتها الموحشة المخصصة للموتى -جنود من كل أنحاء أوروبا- والأديرة المشيدة بالحجر الجيري المجلو، وأشجار الجهنمية المتسلقة. غرب الإسكندرية، شواطئ الرمال البيضاء، مقابر الحرب من بعيد، شواهد القبور أشبه بأسنان صفراء تتفجر من الأرض.

كانت جوان قد سألته من قبل وحكى لها عن أصياف طفولته هنا، وارتباط أبيه بالأرض، وغرق أمه، وفكرة مراوغة عن العودة، بعيدة بخطوة واحدة، كأنك تطارد ظلاً.

قالت بلطف: فلتركب طائرة. جاءت في الأصل من ذلك الامتداد الذي لا يعوقه شيء لمنطقة أو كلاهما بانها نادل؛ حيث السماوات الفولاذية على مدى البصر. بلا خوف.

جفل نبيل عندما سمع جوان تتأديه. التفت بحدة وراها خارج المتجر تلوح. نزل التل عائداً وهو يهرول.

قالت: «يجب أن أدفع للرجل ولا أستطيع فهمه.»

في الداخل تأمله صاحب المحل قبل أن يسأله: «مصري؟»

أجابه نبيل بأنه نعم، مصري.

«والهانم، أجنبية؟» تساءل الرجل بلطف أكبر، وهو يناول نبيل باقي النقود، ويومئ برأسه نحو جوان.

قال نبيل: «أمريكانية.» ثم ولسبب ما أحس أنه بحاجة للتوضيح: «أنا أعيش هناك.»

أجابه صاحب المحل: «قلبي معاك..»

انطلقا إلى الشاليه وأنزلا حمولتهما. غيرت جوان ثيابها مرتدية ثوب سباحتها القرمزي الرائع في تناقضه مع بشرتها الشاحبة. كان جسدها ما زال رشيقاً، ومؤخرتها أشبه بخوخة مشقوقة. لو أنها أحست بتوعك من الحمل، فإنها لم تذكر شيئاً لنبيل. أو صدت النوافذ الفرنسية، وأسرت بالخروج على الفناء المبلط المستطيل، ومن حولهما الصحراء الشاسعة في كل مكان ما عدا ظهر البيت الذي كان يفتح على البحر، والذي كان بدوره هلالاً من الزرقة.

تدرجت الصحراء إلى داخل الامتداد البارد من الماء. من حيث وقفوا لم تكن المسافة إلى البحر تزيد عن 100 ياردة عبر الرمال البيضاء. كان الشاطئ مهجوراً، وهواء الظهيرة ثقيل بشكل مزعج.

قالت: «ينبغي أن تأتي معي.»

قال نبيل: «سأرا قبك من هنا.» يالها من نظرة جميلة تلك التي منحتها له! وشعرها الكستنائي يلتصق في نور الشمس القاسية.

تحركت بخفة عبر الشاطئ الرملي إلى حافة الماء. خاضت فيه، بالكاد موجة صغيرة، والماء يصل

إلى مستوى وركها. تذكر أمه، وأباه إلى جوارها، وجسدهما يميلان على أحدهما الآخر، متعانقين أمام الأمواج المتكسرة. لقد بدا والداه قريبين في تلك اللحظة، حميمين تقريبا.

قفز لدى سماعه صوت طرق على الباب الأمامي: رجل غريب. قصير، مدكوك الجسد، يرتدي قميصا فضفاضا بكمين قصيرين، وعلى جانبيه تطريز مزركش، وبنطلونا رماديا.

«أتمنى ألا أكون مصدرا للإزعاج..» قال الرجل بإنجليزية جيدة على نحو مدهش. «آسف على الإزعاج. فحص أمني روتيني.»

قال نبيل، الذي اضطرب من حضور الرجل: «هل هناك مشكلة؟»

ضحك الرجل بدمثة: «لا. لا. من فضلك. إطلاقا. أنت وصلت في وقت متأخر جدا ليلة أمس. اسمي السيد أبو بكر. وضابط الأمن لدي لم تتسن له فرصة القيام بالفحص العادي لجواز السفر في مكتب التسجيل، هذا كل شيء.» ارتسم على وجهه تعبير أسف على ضجر البروتوكول الرسمي. «أنا آسف جدا على إزعاجك. سيستغرق الأمر لحظة فقط.»

تتحى نبيل جانبا ليدع الرجل يدخل: «لو منحنتي لحظة، سأعثر على جوازي سفرنا.»

في حجرة النوم أطل من النافذة على الشاطئ بحثا عن جوان ولم يرها. تناول جوازي السفر من الدرج، ثم أسرع عائدا إلى المدخل، عازما على أن ينهي الأمر مع أبو بكر بأسرع ما يمكن ويطمئن على جوان.

لم يكن الرجل قد تحرك. تصفح جواز سفر جوان بسرعة، لكنه تصفح جواز سفر نبيل ببطء أكبر. تطلع أبو بكر وراء نبيل عندما لاحت جوان بثوب سباحتها، والقماش ما زال مبتلا، مجسدا نهديها، ومشدودا على امتلاء وركيها الرقيق. تمنى نبيل لو أمكنه أن يلفها بالمنشفة المعلقة على كتفيها.

لم يبد أي انزعاج على جوان: «ومن أنت؟»

«سيدتي العزيزة. أنا كابتن عزت أبو بكر، رئيس الشرطة هنا.»

قالت جوان: «مدهش! لدى الفندق قسم الشرطة الخاص به؟»

توقف أبو بكر متأملا جوان للحظة، بلامبالاة في البداية، ثم ابتسم ابتسامة عريضة وقال ضاحكا: «لا، فقط للبلدة بأكملها، لسوء الحظ. مسؤولية أكثر تقاهة بكثير.»

قال نبيل: «فحص أمني روتيني. أعتقد أننا انتهينا؟»

أوما أبو بكر برأسه، وتلكأت نظرتة على جوان، رغم أنه تحدث إلى نبيل: «أما زلت تتحدث لغتك الأم أم فقدناك تماما؟»

قال نبيل بالعربية: «اتشرفنا.»

«الشرف كله لي.» أجابه أبو بكر بالإنجليزية، وهو يرمق نبيل الآن مباشرة.

«شخصية غريبة..» قالت جوان بعد أن غادر أبو بكر. ولفت منشفة الشاطئ حول شعرها. «لست متأكدة من أنه كان يريد أن يرحل.»

قال نبيل: «كان يستمتع بالمنظر.» وجذبها قريبا منه، فطبع ثوب سباحتها اللبل على قميصه، وقبلها. في حجرة النوم أكملت نزع ثوب سباحتها، والتصقت به. جرى بشفتيه بين نهديها، وتذوق الجلد المالح حتى سرتها وأسفلها حيث كان جزء منه يسكن الآن، الطفل الذي لم يرده قط.

كان المنتجع يقدم خدمة طعام محدودة؛ بعد أن تركته القلائل فارغا تقريبا. أرشدهما مكتب الاستقبال إلى مطعم صغير يمكن الوصول إليه سيرا.

كان مطعم (نينا) يقع على مبعدة نصف ميل بامتداد الطريق السريع، بالكاد داخل البلدة؛ التي لم يكن بها الكثير - بضع أميال من البيوت والمتاجر الواطئة المشيدة بالحجر الجيري، والطرق الضيقة. كان المطعم نظيفا ومتواضعا؛ مساحة صغيرة لتناول الطعام تقود إلى بار خافت الإضاءة. كان الديكور بسيطا، أغلبه لوحات للقاهرة القديمة والإسكندرية خلال العصر العباسي تصور رجالا يرتدون عمام وأثوابا واسعة يتجمعون حول أسواق مزدحمة، أو يخيمون جماعات في امتداد صحراوي خارج القلعة. وفوق رأسيهما انطلقت موسيقى ذات ضوضاء خشنة.

طلب نبيل زجاجة من البيرة لنفسه، وماء معدنيا لجوان.

قال نبيل: «هذه هي المطربة أم كلثوم. لقد تربيت عليها. كانت مطربة أبي المفضلة. في نيوجيرسي بعد أن وصلنا في البداية إلى أمريكا كانت هي كل ما يسمعه. كل ليلة عندما كان يظن أنني نائم. كان يجلس في حجرة المعيشة في الظلام ونفس التسجيل يدور ليلة بعد ليلة، مألئا المكان بدخان السجائر.»

قالت جوان: «هذه تفاصيل فعلية عنه أكثر مما حكيته لي من قبل يا نبيل.» في الديار، كانا يعيشان على مبعدة ساعتين. وكان يرى جوان في عطلات نهاية الأسبوع. كانت تعمل محللة مالية في مؤسسة في سان فرانسيسكو. وكان هو يعيش خارج مدينة ساكرمينتو، ككاتب تقني في شركة هندسة مدنية. أما الحمل فحدث صدفة، للحظة فقد كلاهما توازنه العقلي، معتمدين هذه المرة على الانسحاب في الوقت المناسب. حدثت مقاطعة لمقاطعة الجماع!

رشف نبيل من بيرته. «كانت أمي تكره هذا المكان. هل قلت لك هذا؟»

هزت جوان رأسها، وتأملته قبل أن تقول: «لا. بقدر ما أتذكر الخط الرسمي لحكايتك هو أنك لا تتذكر أي شيء عنها.»

«كانت من الإسكندرية، ابنة مدينة، مدرسة خاصة، اللغة الفرنسية ممتزجة بالعربية في البيت، دروس بيانو. كان أبي يناوشها بسبب هذا. لماذا ميرسي؟ ما الضرر في شكر؟» هنا كان يستعيد مكانه. يعود إلى جذوره. كنت أشعر بهذا. كل شيء أصعب. أفسى. لغته تتغير. ضحكته.»

قالت: «يالها من طفولة كئيبة يا نبيل. ظننت أن طفولتي سيئة بما فيه الكفاية.» مالت جوان بظهرها

في مقعدها. كانت ترتدي بنطالا من الجينز وبلوزة بيضاء تركت ذراعيها عاريين. قالت: «المكان هنا يفيض أمنا وسلاما. ألم يكن هناك بالفعل أي شيء تحبه أمك في هذا المكان؟»

هز نبيل رأسه: «كانت تمقت الصيف. شهور طويلة لا شيء فيها غير الصحراء والبحر، وثلاثتنا وحدنا. حتى وأنا طفل كنت أشعر بهذا وهي تجهز للرحلة إلى هنا. وكأنها كانت تضع بعضا منها في المخزن.» توقف قليلا.

«هناك مرة أذكرها بوضوح. كانت تمسك بيدي، ملتقطة ورائها لتتنظر إليه.» أبوه في الشمس والغيش، بقميص أبيض، كماه مرفوعان إلى منتصف ذراعيه، وبنطلون أسود. «كنت أتملص منها وظلت ممسكة بي، تجذبي، وتتملقتني كي أعبّر الطريق السريع معها حتى استسلمت أخيرا. ووقفنا هناك عند حافة الطريق وشاهدناه يقترب.»

أتى الساقى ليسجل طلباتهما. أشار نبيل نحو البار الفارغ وسأله: «أين زبائنك؟»
لوّح الساقى في اتجاه الفندق وقال: «يحاول الناس الرحيل، لكن المطار مغلق.»

قبيل وصول الطعام: كباب لنبيل، ودجاج لجوان، كان البار قد امتلأ قليلا.

قال نبيل: «موضوع المطار ليس بالخبر الجيد. أفكر الآن في أن هذا كله كان خطأ. لم يكن ينبغي أن تأتي.» تعكر مزاجه. حدق في طبقه، وعلى ملامحه استقر تعبير قلق.

تعرفا على بعض الوجوه من الفندق - ميزت جوان زوجين ألمانيين كانا قد قابلاهما لوقت قصير في بهو الفندق، وكذلك شابا له شعر مشعث رملي اللون ويرتدي تيشرتتا عليه علم أستراليا. وكانت هناك حفنة من أشخاص آخرين جلسوا في مجموعات من اثنين أو ثلاثة؛ بدا أغلبهم وكأنهم سياح من الصين.

تحسن الوضع مع ثرثرة الزبائن وسرعان ما صارت الأجواء في المكان مريحة أكثر، وقد تراجعَت الأحداث التي تموج في كافة أنحاء البلد للحظة إلى الخلفية. استرخى نبيل، وهدأت مخاوفه، ووجد في نفسه القدرة على الأكل. انهمكت جوان في طعامها، ولم تتوقف إلا لتراقب امرأة لم يلاحظها من قبل وهي تخطر عبر قاعة الطعام وتثرثر مع بضعة زبائن. خلفها، رأى نبيل لدهشته رئيس الشرطة، أبو بكر. ألقى نظرة عابرة نحو نبيل وجوان، وأوما برأسه على سبيل التحية، وجلس على مبعدة بضعة أقدام منهما فوق مقعد بار إلى النضد. نظرت جوان نحو أبو بكر قليلا، ولوحت ببضع إشارات غامضة بأصابعها في اتجاهه، ثم عادت لتركز انتباهها على عشائها.

سارت المرأة إلى البار. كانت كبيرة السن، نحيلة، صغيرة الحجم، ترتدي فستان سهرة أسود، وشعرها الفضي مرفوع في كعكة، وعقد من اللؤلؤ يلتصق عبر جلد رقبتها الشاحب. بدت مبالغفة في التأنق بالنسبة للمكان، لكنها بطريقة ما مرتاحة في حضورها، كما لو كانت في مكان آخر في ذهنها، تشرف على نوع مختلف من الزبائن في نوع مختلف من الأماكن.

قالت جوان: «أهذه نينا بلحمها ودمها؟»

راقباها وهي تطوف بالطاولات وتحيي الضيوف. وسرعان ما توقفت عند طاولتهما. قالت: «هالو»
بانجليزية ذات لكنة فرنسية. كان وجهها بيضاويا تماما وقد وضعت ماكياجها بعناية: كحل وتظليل
للعينين، أحمر للخدود والشفاه، لطيف لكنه مع ذلك فشل في إخفاء سننها. قالت نينا لجوان: «لا بد أنكما
النزيلاان الأمريكيان. يأتينا قليل جدا من الأمريكان في هذه السنوات القليلة الماضية. إنه لشيء مخز.
17. Malheur de la politique» كان لها صوت أجش، وعادة مط كلمات معينة على سبيل التأكيد،
وأسلوبها في الحديث تعبيرى بشكل مفرط، وكأنها كانت خطبة تدربت عليها وألقتها مرات لا حصر
لها من قبل. «Le monde est vraiment petit n'est-ce pas»¹⁸ لا حاجة لكل هذه المشاكل.»
سمع أبو بكر الحديث، ضحك، ومال في اتجاههم وقال: «يا نينا، ربما يمكن لصديقنا الأمريكيين أن
يخبرنا لماذا بحق الله يكرهوننا إلى هذا الحد؟»

قالت نينا: «تجاهلاه. لسوء الحظ عليّ أن أتحمّل وجوده.»

قال نبيل للمرأة: «نحن أمريكيان، لكن كانت عائلة أبي من هذه المنطقة. كنا نمتلك أرضا بالقرب من
هنا.»

أومات نينا مشتتة الانتباه. اتخذت تعبيراً نائياً، وطفا إصبعان من يدها للحظة عبر صدغها وكأنها
تبسط خطوط قلق دقيقة في وجهها. «حسنٌ، لقد شجبت في الإسكندرية، لكنني أفضل هذا المكان بشدة،
بشدة. أنا هنا منذ زمن طويل جدا، جدا. وقعت في حب الصحراء. بجنون. الفراغ الرهيب، الرائع فيها
كلها. وتاريخ هذه المدينة. الحروب التي اندلعت.» وأشارت شرقا في اتجاه ميادين القتال القديمة في
العلمين.

توقفت، ومررت إصبعها بذهن شارذ عبر خصلة شعر نافرة. تساءلت: «ما اسم العائلة؟»

أجابها نبيل: «عوض.»

مر بوجهها سريعا تعبير أقرب للتعرف على أحد ما. دارته بمزيد من الإسهاب في الكلام. «ينبغي أن
تجينا كل ليلة. لا شيء آخر يمكن فعله هنا. يمكننا الحديث أكثر.» وبعد ذلك ألقت عليهما بتحية
المساء، وتوقفت للحظة قرب أبو بكر عند نضد البار.

رأتها جوان تتبادل بضع كلمات مع أبو بكر، وألقى الاثنان نظرة سريعة في اتجاههما. ثم نهض أبو
بكر من مقعده وتبعها عائدين إلى داخل قاعة الطعام.

كان نبيل ينظر في أنحاء البار وشد انتباه الساقى.

«هل هناك أي أخبار حول متى سيعاد فتح المطار؟» تساءل نبيل، محاولا أن يبدو غير مهتم أكثر مما
كان يحس.

هز الساقى كتفيه. «لا أحد يعرف شيئا.» أوماً برأسه، وتجاوزهما بنظره إلى قاعة الطعام، وتركز
انتباهه هناك حيث كانت أكثر ازدحاما.

في الخارج، كانت بضع سيارات مصفوفة بزوايا عجيبة في الزقاق الترابي عند واجهة المطعم. كان هناك شيء ما بدا مألوفا على نحو خاص بالنسبة لنبييل في هذا المكان.

قال نبييل: «في مكان هنا.. يبدو مختلفا الآن. أظن أننا كنا واقفين بالقرب من هنا. كانت تحاول العبور.»

كانا قد توقفا عند حافة الطريق السريع. كانت الشمس منخفضة، وحمت جوان عينيها بيديها من وهج الصحراء الغسقي الأحمر.

لمح نبييل القافلة العسكرية أولاً. المركبات المدرعة على الطريق السريع، في البداية بدت غائمة من بعيد، لكنها كانت تقترب سريعا منهما، ثم مرت بهما وهي تثير سحباً من الغبار. تغطت مقطوراتها بقمماش القنب الأخضر، لكن الرفارف الخلفية كانت مفتوحة لتكشف عن صفوف من الجنود الجالسين، وفي أيديهم البنادق. مرت آخر مركبة هادرة بنفير يقبض القلب من بوقها. تجمدا وراقبا حتى غابت القافلة عن الأنظار، مسرعة في اتجاه الإسكندرية.

ترددا على مطعم نينا كل مساء. شيء يشغل الليالي الطويلة. وكان أبو بكر دائما يتهاذى داخلا في وقت متأخر، ليجمثم على مقعده عند البار متفحصا المشهد. في نهاية إحدى الأمسيات، وفي محاولة لرفع الحالة المزاجية وسط زبائننا الذين تقلص عددهم، وضعت ميكروفونا عند طرف البار وغنت مع إديث بياف، وجاكلين فرانسوا. تمايلت مع الموسيقى. وقبيل وقت الإغلاق كانت قد ثملت.

«هذا ما يحدث عندما تبقى وتبقى وتبقى، لوقت طويل حتى أنك لا تستطيع أن تتخيل الرحيل..»
أسرّت نينا دامعةً لنبييل وجوان. «سوف أفلس.»

«عزيزتي نينا! ما كل هذا؟» قال أبو بكر، وهو ينزل عن مقعد البار ويجذب مقعدا إلى طاولتهما.
«لماذا الدموع؟»

ردت عليه بحدة: «البلد تشتعل. وماذا أنت فاعل؟ أنت يا رئيس الشرطة الكبير؟»

«كل واحد منا يفعل ما بوسعه. لماذا أنا هنا كل ليلة، هه؟» أجابها أبو بكر بفضافة. «أبقي عيني على كل شيء عن قرب. أبقي الفوضى بعيدة عن ابتلاعنا.»

ضحكت جوان بصوت عال وقالت: «حقا؟ أتلك هي وظيفتك؟»

حملك نبييل فيها، وهز رأسه بحدة.

ابتسم أبو بكر وقال: «نتكيف مع الوقت، هه؟ بالضبط مثل أصدقائنا في أمريكا. يرقصون معنا في الأوقات الطيبة، وينسلون مبتعدين في الأوقات الصعبة، معلنين براءتهم. دائما براءتهم.»

هزت نينا كتفها، ونهضت بحدة، وقالت لأبو بكر: «¹⁹! Vous m'ennuyez! ثم انسلت من جانبه. غيرت الأسطوانة. صار الإيقاع الآن سريعا وصاخبا.

هتقت جوان بسعادة: «فريق جيبسي كينجز. بامبوليو.. أحب هذه الأغنية.»

نهض أبو بكر، ومد كفا سميناً نحوها وقال: «إذا هل تسمحين برقصة؟ لا شيء يبعث في نينا العجوز البهجة مثل مرأى أصدقاء جيدين يرقصون.»

تدخل نبيل: «أعتقد أننا جميعاً أكثر إرهاقا وتعبا من أن نرقص.»

لم ترد جوان، وأبقت ذراعها معقودين أمامها.

أما أبو بكر فقد تجاهل نبيل وقال بإصرار: «أم أنك خائفة؟ هل ستهربين؟»

حدقت جوان فيه.

قال نبيل: «ربما في وقت آخر.»

ضحكت جوان، ودارت بحدقتيها في عينيها ثم قالت: «لا بأس. لم لا؟»

تهادت مارة بجوار أبو بكر، ودار هو على عقبيه وراءها، لحقها وجذبها قربه. حاول أن يدور بها حول المساحة الصغيرة الخالية أمام البار، وتحرك بطريقة خرقاء معها عبر الأرضية، ووجهه اللامع يكاد يلمس وجهها. أراحت يديها بحذر شديد على كتفيه، متجنباً بقعتي العرق الكبيرتين اللتين تشرب بهما قميصه. كأنها عصفور مغرد على ظهر وحيد قرن مندفع، هذا ما دار بخلد نبيل. همّ بالنهوض، لكن نينا أشارت له كي يجلس، وتولت الأمر بنفسها: «دعها أيها المهرج! ²⁰Dégoûtant! إنها تغرق في عرقك.»

توقف أبو بكر بحدة، وترك يديه تسقطان عن خصر جوان وخطا للخلف. التفت إلى جوان، رافعا كفيه، مقدما انحناءة مبالغاً فيها.

لكن جوان حملقت فيه، ثم استدارت على كعبيها العاليتين وأوسعت خطاها إلى نبيل مباشرة.

«ربما لست راقصاً جيداً بما يكفي..» قال أبو بكر وهو يسير وراء جوان عائداً إلى الطاولة. «أنا، كما يقولون، تعلمت تعليماً ذاتياً.»

«أنت، كما يقولون، أحمق..» قالت نينا بحدة. وقفت فجأة، واندفعت إلى جوار أبو بكر، وسارت من خلف البار إلى المطبخ.

نظر أبو بكر إلى نبيل ثم إلى جوان، وثمة تعبير نادم على وجهه. «أنا آسف جداً. لم أقصد أن أزعجكم. من فضلكم فلنجلس قليلاً.»

كان التليفزيون يذيع صوراً من القاهرة، والمرور يتحرك بسلاسة عبر كوبري قصر النيل.

قال نبيل: «لا شيء عن المظاهرات؟ ولا كلمة واحدة؟»

ضحك أبو بكر. «متى قلت إنك كنت في مصر آخر مرة؟»

قال نبيل: «تركتها عندما كنت في العاشرة. منذ زمن طويل.»

«نعم، لقد غبت لزمن أطول من اللازم. هؤلاء الناس الذين تراهم يتظاهرون في التليفزيون، لا يعنون

شيئا. يقولون كثيرا من الأشياء. نعم، بل أحيانا يفعلون أشياء فظيعة. ثم يهربون. يحزمون أمتعتهم، ويأخذون بناتهم أو أبناءهم، أيا كانوا، ويهربون. أحيانا إلى أمريكا، هه؟”

رد عليه نبيل: «لست واثقا من فهمي لما تشير إليه..»

ضبط أبو بكر مؤخرته على المقعد، الذي أصدر صريرا ردا على ذلك، وتجاوز بنظرته نبيل إلى جوان التي كانت جالسة بوجه حجري. «عزيزتي جوان، عزيزتي، جوان الأمريكية الخالصة. أنا لست العدو. نحن هنا راضون. بالطبع نحن كذلك. لقد روضنا الفقر، روضتنا القرون. نحن مخلفات التاريخ.»

انتظرت جوان لحظات قليلة وقالت: «أعتقد أن هذا شيء مثير للأسى جدا.»

تثاءب، وتمطع بذراعيه أمامه. بدا سعيدا بمونولوجه.

قال نبيل: «طيب، لقد تأخر الوقت.»

نظر أبو بكر إلى جوان وزحفت على وجهه ابتسامة ناعسة. “أنت مؤمنة، أليس كذلك؟ تؤمنين بالطاقة البشرية، بالقدرة التحويلية للروح البشرية، بقدرة الإنسان على تغيير قدره ومسار الأحداث الإنسانية. روح قادرة على الفعل! القدر المتجلي²¹! الغرب الأمريكي القديم بتخومه البعيدة! كم هو ثمين! كم هو أمريكي! أما نحن هنا فقد ظللنا نكدح في نفس الشريحة الضيقة من الأرض لآلاف السنين. تلك هي تخومنا وحدودنا.»

خرجت السيدة المسؤولة عن التنظيف من المطبخ حاملة حاوية كبيرة من المطاط لجمع الأطباق القذرة. أشار إليها أبو بكر كي تأتي. وقال لجوان: «مثال..»

قال نبيل: «لا، هذا يكفي.»

قال أبو بكر: «لكن من فضلك.. من المهم أن أوضح الأمور. منيرة.. تعالي هنا.»

اقتربت منيرة مترددة، وعلى وجهها ابتسامة متذبذبة. قال لها أبو بكر: «ماذا! أتظنين أنني سأعضك؟ أنت تتحدثين القليل من الإنجليزية، صحيح. فقط لدي سؤال لك.»

أومأت منيرة برأسها.

“صديقي هنا قادمان من أمريكا. تعرفين يو إس إيه! يو إس إيه! يو إس إيه!”

أومأت منيرة برأسها مرة أخرى. «يريدان أن يعرفا الطريق إلى تمثال الحرية. تعرفين ذلك التمثال الشهير الذي أتحدث عنه. أين هو بالضبط؟ أهو في مكان ما على طول الطريق السريع؟»

قالت: «بلى.»

“قبل مرسى مطروح؟”

“قبلها ببضع أميال. قبلها بمدينتين أو ثلاث.”

قال أبو بكر: «شكرا يا منيرة. لم يكن هذا بالأمر السيء!»

بعد أن غادرت التفت إلى جوان وقال: «أفهمت ما أعنيه؟ تمثال الحرية. لا فكرة لديها. مجرد نعم يا افندم. تمام يا افندم. كما تقول يا افندم.»

قالت جوان: «هذا هراء. إنها تسخر من غبائك.»

في الظلال بالقرب من مدخل المطبخ، رأى نبيل منيرة تحقق فيهم بدورها.

لوح أبو بكر بإصبعه نحو جوان. ومن بين أسنانه غنى: «يو إس إيه! يو إس إيه!»

في نهاية أمسية أخرى من تلك الأمسيات -حيث لم تعد هناك أي أمسيات أخرى تقام- دعتهما نينا كي يبقيا. قالت: «كأس أخير. ثلاثتنا فقط.»

وراء البار، صبت نينا كأسا من السكوتش لنبيل، وكأسا من الكونياك لها.

قالت جوان: «فقط ماء معدني لي..»

أمالت نينا رأسها، ورمقت جوان للحظة. «لقد لاحظت هذا من قبل، لكن الآن أنا متأكدة. عزيزتي، أنتِ حامل.»

ابتسم نبيل وأوما برأسه.

“²² Mon Dieu! Félicitations مبروك!»

ردت جوان بجفاف: «أشكرك..»

أضاف نبيل: «لم يكن مخططا لذلك بالضبط.»

قالت جوان: «مسألة معقدة بعض الشيء.»

لوت نينا وجهها، وهزت رأسها. «إلى أي حد هي معقدة؟ آه،²³ oui. Je comprends. لستما سويا، سويا حقا بتلك الطريقة. لستما متزوجين.»

صبت لجوان ماء معدنيا. «ابنتي. هي في كندا الآن. عادت منذ سنين عديدة بعد أن توفي أبوها، من أجل جنازته. وافقت أن تراني. لوقت قصير.»

وفجأة ارتجت ألواح الزجاج في الأبواب المؤدية إلى الشرفة وكأنها ستتحطم في أطرها وتناهي هدير يصم الأذان لطائرات مقاتلة تطير فوق الرؤوس على ارتفاع منخفض.

انهارت نينا في مقعدها، وغاص وجهها بين يديها. «من يدري ماذا سيحدث..» قالت عندما مرت الطائرات. «هل سيتحسن الوضع؟ فعلا، الأمر فظيع في كل مكان عبر البلاد. ويسوء أكثر. لا حرية. ولا مستقبل. لكن هنا في هذا الركن الصغير من الصحراء نشرب ونغني ونرقص. انتصار صغير. انتصاري الوحيد.»

مدت جوان يدها ولمست يد نينا وقالت: «يمكنك الرحيل. ابنتك في كندا. كم ستكون سعيدة الحظ بك!» نينا، التي كانت تشمل جوان بنظرة حنون، ألقت برأسها إلى الوراء وضحكت. ثم قالت: «لن تشعر ابنتي بأنها سعيدة الحظ. أنا بالنسبة لها مهمة للغاية. هي مثل أبيها. فهو كان ينحدر من عائلة من البنائين. كلهم يعشقون وضع قالب مثالي من الطوب فوق الآخر. يفعلون هذا بحرص. ولا يهم حقا ما هو الشيء الذي يُبنى، طالما فقط هو مستقيم وقوي وكل أجزائه متوافقة بشكل مثالي وخلاط المونة لا يفسد الأمر. أما أنا فلا ألتهم على الإطلاق.»

توقفت وهزت رأسها؛ وفجأة أضاء وجهها بإلحاح الإشارة إلى نقطة ما. «هل أخبرتكما بأن أمي كانت من باريس؟ ظلتت على اتصال ببضع أقارب هناك. وذهبت إلى هناك. لكن ليس لوقت طويل. عدت. تظنين أنك من مكان ما. وتقنعين نفسك بذلك. لكن هذا ليس حقيقيا. فجأة تكونين فقط حيث أنت. ركبت الطائرة المتجهة إلى باريس من الإسكندرية. كنت لم أعد إلى الإسكندرية منذ زمن طويل، لكن في كل مرة أعود إليها أكاد لا أتعرف عليها. كيف يمكن أن تصبح أكثر ازدحاما، أكثر تلوثا، أقدر، بها المزيد من البواعث المجاري المفتوحة، والوسخ يزداد بها في كل مكان؟ يدهشني هذا دائما. موهبة مدهشة في الانحدار. عندما أفلعت الطائرة، قلت أخيرا سأخرج من هنا. انتهى كل شيء. وأهبط في باريس وأجد هواء أبرد، شوارع أنظف، نظاما، بداية ونهاية لليوم. كل صباح أصحو في شقتي الصغيرة. أعد القهوة، لكنها ليست مثل القهوة التي أعرفها. ليست طينا. في الخارج الشوارع أنظف، ولا يوجد غبار، ولا البواعث مفتوحة. الدنيا نظيفة. العالم نظيف. لا حمير تجر عربات محملة بالبضائع. لكن الناس لا يكادون ينظرون إليك وأنت تسيرين إلى جوارهم. وهناك ذلك الشعور بالمعدن ورائحته في كل مكان، الفولاذ، وبريقه، ونور الشمس مقطر في الفراغ، حاد كسكين، بلا دفء. هذا ما انفك يصيبني بالصدمة. يهبط الليل. ويذهب الليل. كل شخص في مهجعه الصغير.²⁴ Isolement عندئذ بدأت أفقد الصحراء. الروائح، امتزاج الليل بالنهار، والماء بالرمل، والماضي بالحاضر. عدت. ²⁵ Je suis revenue وحدي. هنا في بيتي. ديارى.»

قال نبيل: «زوجك.. ماذا عنه؟ كيف كان شعوره حيال هذا المكان؟»

“زوجي المرحوم. لا. عشنا منفصلين لسنوات عديدة قبل موته. ظل في الإسكندرية، مع ابنتي.” اعترت نبيل موجة من السخط. «إذا ذات يوم قلت: ‘سأترك زوجي وابنتي وأنتقل إلى الصحراء، وأبني مطعما.’»

ألقت جوان نظرة عدائية نحو نبيل، لكن لو أن نينا شعرت بالإهانة من هذه الكلمات فهي لم تُبدي ذلك. قالت: «يجب أن تفهم شيئا عن هذا. هذا ليس امتلاكًا. ثم، ربما أيضا لم يكن مقدرًا لي أن أكون زوجة لأي رجل.»

أخذت الكأس الفارغ من يد نبيل. «لكني لم أشعر دائما بالوحدة هنا. ذات صيف، بعد قليل من افتتاحي للمطعم، قابلت شابة. كانت من الإسكندرية. اعتادت أن تمر على المطعم كل صيف تأتي فيه إلى هنا مع عائلتها. كانت تتحدث الفرنسية، وهو شيء لطيف. كانت جميلة ووحيدة وكان هناك تفاهم من نوع ما. انجذاب لم نستطع إنكاره. صرنا مقربتين. كنت أتطلع إلى قدوم الصيف فقط كي أراها. كنا نتبادل الخطابات بقية العام. لم تسمح لي بزيارتها في الإسكندرية، لكن هنا، هنا كان الأمر مختلفًا. كانت

تكره هذا المكان، وكنت ملاذها.» توقفت نينا، وابتسمت، وهزت كتفيها الضيقتين.

نهض نبيل فجأة وقال: «الوقت تأخر. ينبغي أن نذهب.»

نظرت إليه نينا لحظة وقالت: «لم يتأخر كثيرا يا نبيل. ²⁶ Mais bien سأراكما ليلة الغد مع ذلك.» ثم أضافت بسرعة: «ومن فضلكما، لا يمكنكما الرحيل دون رؤية المقابر.»

جرّب الأسترالي حظه في المطار. وقرر الزوجان الألمانيان في آخر لحظة أن يذهبا معه. أما مجموعة السياح الصينيين فقد رحلوا، أيضا، متكومين في حافلة صغيرة ظهرت ذات صباح خارج بهو الفندق، وقام السائق بمراجعة الأسماء في قائمة مطبوعة على لوحه المشبكي.

كل يوم بعد الظهر كان نبيل يرى المزيد من القوافل العسكرية تدرج غربا على الطريق السريع؛ وكل ليلة كان هو وجوان يسمعان الرفيف المتلاطم لطائرات الهليكوبتر الحربية فوق الرؤوس وزعيق الطائرات المقاتلة وهي تطير على ارتفاع منخفض. اتصلت جوان بالسفارة الأمريكية في القاهرة وقيل لها إنهما لو تمكنا من الوصول إلى القنصلية في الإسكندرية، فربما يمكن القيام بشيء ما لإخراجهما من البلاد. لكن لم تكن هناك أي ضمانات بخلاف ذلك. بدا احتمال قيامهما بالذهاب إلى الإسكندرية احتمالا مريعا، خاصة بالنسبة لنبيل. تخيلهما عالقين في العاصفة، وجواز سفرهما الأمريكيان مبعث حرج، ومكان ميلاده نقطة ضعف إضافية. وفكرة أنه يمكن أن يفصل بشكل ما عن جوان لم تفعل شيئا إلا أن زادت من القلق. فاتفقا أن ينتظرا حتى تنجلي الأمور.

أمامهما أسبوعان آخران من العطلة، في نهايتهما يمكنهما إعادة النظر. حل على مباني المنتجع هدوء غريب. بقي طاقم هيكلي من العاملين، وتقلصت الخدمة إلى حد انعدام الوجود. في الفندق بأكمله كانت القاعات مهجورة. وعندما تمشى نبيل وجوان عبرها ذات صباح، تردد صدى وقع أقدامهما فوق رخام البهو.

سما لنفسيهما بتمشيات طويلة على الشاطئ. على البعد امتزجت الكثبان الرملية بامتداد الصحراء. كانت السماء زرقاء شفافة وقاسية. وقبيل الظهر كان وهج الشمس يغدو مغشيا للأبصار. وبينما كانا يمشيان متمهلين في اتجاه الغرب عبر امتداد من الكثبان، بعيدا عن خط الشاطئ ومتوغلين في الصحراء، حام صقر وحيد بالأعلى، يبحث عن صيد، وأثار عصبية نبيل، مضاعفا من الشعور بالخواء حولهما.

ضحكت جوان من ذعره، وقالت: «أنا في سلام تام مع هذه العزلة.»

قال نبيل مدافعا: «إنها السهول بداخلك. الخلاء من أجل الخلاء. لكن رغم ذلك غادرتيها.»

قالت متأملة: «كنت أحب الخلاء، لكنني كنت أكره الخواء. لست خاوية هنا. أتخيلك طفلا صغيرا. لا يمكنني أن أصدق أنك كنت هنا ذات يوم.»

«لا أتذكر الكثير.»

“اخترت ألا تتذكر الكثير.”

“أخبرتكم بما أتذكره. كانت هنا ذات يوم، وفي اليوم التالي ماتت. أتذكر جنازة ما وبعدها ببعض الوقت، أسابيع، شهور، لست متأكدا، الرحيل. الطيران عبر العالم إلى بلد جديد. ليست هناك صور محفوظة. لا شيء. انقطاع تام. ماذا كنت لتتذكر من طفولتك دون قصص وصور؟”
توقف فجأة؛ ومشطت عيناه السماء الخالية بينما كان صرير طائرة مقاتلة يمزق الهواء الساكن من مكان بعيد ما.

“كان لديك بيت، مكان تُريني إياه يا فتاتي يا ابنة الجبال..» قال نبيل، محاولا ألا يبدو جادا أكثر من اللازم. لكنه كان جادا جدا. «هذا هو الاختلاف. لا يوجد مثل هذا المكان بالنسبة لي.»
“إنه هذا المكان..» قالت جوان بلهجة قاطعة.

في الأمسية الثالثة تلقيا رسالة قصيرة من نينا عن طريق مكتب الاستقبال. فتح نبيل المظروف - رائحة اللافندر، الكتابة بالقلم الحبر، كتابة تميل دون تساوي بحروف متشابكة لينة بطول الورقة الوحيدة.

“Mes chers, il est unimaginable²⁷ أن تغادرا دون رؤية الجبّانة. إنها المكان الذي تصادمت فيه العوالم. ما تبقى.” قرأها نبيل بصوت عال، ثم أضاف: «لا أتق فيها..»
قالت جوان: «إنها مجرد امرأة عجوز وحيدة. كيف لنا أن نرفض؟»
“فقط نقول لا.”

“ذات يوم يمكن أن أكون أنا في هذا الموقف. وحيدة في مزرعة مواشي أبي. أطارد الدجاج عبر فناء قذر. وأحرق في أميال من العدم.”
أضاف نبيل: «حافية القدمين..»
“بالطبع، حافية القدمين.”
“فستان قطني حائل.”

قالت جوان: «نعم وحامل أيضا. حمل طويل جدا، جدا. أحفوري.» توقفت للحظة. «ماذا تريد أن تفعل يا نبيل؟»

“لا أعرف. لم أرغب في التفكير في ذلك.”

“إنه ليس بالقرار الذي أتخذه وحدي يا نبيل. يمكنني ذلك لكنني لن أفعله.»

في وقت متأخر من صباح اليوم التالي توقفت سيارة نينا خارج الشاليه. قالت نينا: «Chérie, لقد

افتقدتكما كثيرا.» ثم تأوهت فجأة وقالت: «إنها مجرد ثلاث ليالٍ من الفراق، لكنها تبدو وكأنها دهر. كم اعتدت سريعا على الاحتياج إلى صحبتكما. هذا مخيف فعلا. Mon Dieu!»

ارتدت نينا نظارتها السوداء بسرعة وقالت: «عندما لم تظهر مساء أمس، فكرت: أه يا خبر! لقد أثرت خوفهما.»

السائق، وهو رجل هزيل منطوي على نفسه، في أواسط الثلاثينات من عمره، تعرف فيه نبيل على واحد من العاملين في المطعم؛ قاد بسرعة أكبر، منطلقا عبر الطريق الصحراوي، غربا نحو الإسكندرية.

حدق نبيل من نافذة السيارة بينما كانوا يمرون بقطعة أرض مقفرة وراء حافة البلدة، حيث كانت بضعة بيوت مشيدة بالحجر الجيري متناثرة في البقعة القاحلة، ورجل على عربة يجرها حمار يستحث الحيوان الهزيل بعصا كي يتقدم. بعد قليل انعطفوا مغادرين الطريق السريع إلى طريق ترابي أقدم لمسافة قاربت ربع ميل إلى الجبانة وتوقفوا عند حافة مساحة انتظار للسيارات مفروشة بالحصى.

تخلف السائق قرب السيارة مدخنا سيجارة بينما مشوا معا عبر درب مكسو بالحصى إلى الساحة الأمامية للجبانة. صعدوا مجموعة درجات عريضة إلى الضريح المشيد بالحجر الجيري، والذي يبلغ عرضه حوالي 200 قدم، ثم مروا عبر ثلاثة أقواس إلى داخل المساحة الداخلية الرخامية. وهناك احتموا من نور الشمس وصار بمقدورهم التطلع إلى منظر لا يعوقه شيء للجبانة الفسيحة والصحراء من خلفها.

أسفلهم كان يرقد الموتى: صف فوق صف من شواهد القبور المفصولة بنظام، أكثر من 7000 في الإجمالي. من إنجلترا وفرنسا، وبولندا، واليونان وأستراليا. في الطرف البعيد من الجبانة، أشارت نينا إلى صليب الفداء²⁸ الشاهق.

هبطوا الدرجات إلى داخل الجبانة بأكملها. كان هناك قليل من الخضرة حولهم، لا شيء غير الصحراء بين صفوف الشواهد. هب نسيم من الساحل جلب معه رائحة مفاجئة لليوكالبتوس والياسمين. قادتهما نينا عبر شواهد القبور الجيرية البيضاء.

«كل هؤلاء الشباب الصغار!» صاحت نينا ليعلو صوتها على الريح. «أكان من الممكن لهم أن يحلموا بأن ينتهي بهم الأمر هنا، على بُعد أميال وأميال من أي شيء يشبه الديار؟»

لاحظ نبيل صندلها، لاحظ كم كان لون قدميها وسمانتيها شاحبا، وثمة عروق زرقاء هشة تتقاطع على جانبي ظهر الجلد المكشوف، وكأنها لم تتعرض قط لضوء الشمس. انحنت لتلتقط بعض القمامة التي حملتها الريح عشوائيا من الطريق، وتخليها فجأة كامرأة متشردة، واحدة من الجيش الصغير الذي يجوب شوارع سان فرانسيسكو.

لاحظ نبيل أن السائق كان يراقبهم من أعلى الدرجات، مستندا بطريقة عفوية على السور الخلفي للضريح. لمح نظرة نبيل، فحيأه نصف تحية. فكر نبيل أنها طبيعية إلى حد كافٍ، لكنها جعلته يشعر بالقلق. كانت الجبانة مترامية الأطراف مهجورة. أثارت الرياح الساخنة شياطين من التراب في

الممرات بين متاهة الشواهد. دارى نبيل عينيه. كان رجل آخر قد انضم إلى السائق، رجل يرتدي جلابية بنية اللون، ويعلق على كتفه بندقية. عرض السائق على الرجل الآخر سيجارة، وأشعل عودا من الكبريت من أجله، وكوّر يديه ليحمي اللهب.

فيما وراء الجبّانة، كان بمقدور نبيل أن يرى شريطا رفيعا أزرق من الساحل. أما في كل مكان آخر فكانت الصحراء الفسيحة الكئيبة، والمنيعية. كان يعرف كم لا بد أنهم يبذون جميعا - غرباء في مقبرة للغرباء.

ألقي نبيل نظرة وراءه نحو الضريح. اختفى السائق عن الأنظار. وكان الرجل ذو الجلابية والبندقية وحيدا، يراقبهم.

صرخ نبيل: «فلنذهب. ينبغي أن نذهب. ينبغي أن نرحل حالا.»

ذلك المساء، تناولوا العشاء في شرفة نينا المطلة على الشاطئ.

“هيا..” قالت وهي تقودهما خارجا إلى الشرفة، وإلى مائدة أعدت بالفعل للعشاء. أعلنت: «وجبة مصرية تقليدية! حتى لو كانت مامي فرنسية، فأنا مصرية حتى النخاع! وقد أعددت الطعام بنفسني! محشي فلفل أخضر وكوسة بالأرز واللحم المفروم. وملوخية كمان!» الحساء المصري التقليدي، كما يعرفه نبيل، في سلطانية خزفية ملونة، وبالطبع ثمة سلطانيات أخرى أصغر بها أرز يتصاعد منه البخار لتصب فوقه الملوخية، وخبز بلدي طازج مقطّع إلى أرباع، وفخذ خروف، وزجاجة نبيذ أحمر، ثم زجاجة أخرى من النبيذ الأبيض.

سببت لجوان ماء معدنيا، ولم تتوقف عن الكلام، موجهة كلماتها غالبا إلى جوان التي ظلت منتبهة. “هدأت إذا؟” قالت نينا لنبيل أخيرا.

قال: «ما زلت أفكر في رد فعلي في الجبّانة. أنا محرج منه. كل شيء هنا غريب جدا بالنسبة لي.»

ضحكت نينا، ورفعت يديها. «رجل لا تعرفه يمسك ببندقية - 29. très comprehensible.»

هز نبيل كتفيه وقال: «ذكر السائق لي أن هناك كلاما يدور بأن الرئيس سيتتحي الليلة. هناك شائعات بأنه قد غادر القاهرة بالفعل.»

“ربما هو في قصره الجميل في الإسكندرية..” قالت نينا مخمّنة. “أو القصر الآخر في شرم الشيخ. ليس هناك ما يكفي قط، يا حبيبي. وينطبق الأمر نفسه على مقربيه وأتباعه - قصور، سيارات، ملابس فاخرة. عصابة من اللصوص.» فجأة، اندفعت نحو السياح، وأطلت على الشاطئ المظلم. ثم قالت ضاحكة: «تكلم عن الشيطان يظهر لك! هل أنت خارج للتمشية؟»

ظهر أبو بكر من بين الظلال. «مساء جميل، أليس كذلك؟» قال وهو يميل بجرمه إلى الأمام مستندا إلى السياح، ومبتسما ابتساما عريضة.

قالت جوان: «كان كذلك بالتأكيد..»

قال نبيل: «يالها من مصادفة!» ودفع بمقعده أقرب إلى جوان وأحاط كتفيها بذراعيه.

«أبو بكر، كنت لأدعوك كي تتضم إلينا، لكني أخشى أن صديقي قد يعترضان.»

قالت جوان: «لا اعتراض من جانبي. إنه أقل ما نقدمه مقابل كل هذا الأمن.»

ابتسم أبو بكر مرة أخرى. «يالها من تقدير كبير من جانبكم! طيب، فقط لو لم تصرخوا..»

قالت جوان ببرود: «بالطبع نُصر.» ومالت بظهرها في مقعدها، وأطلت من فوق كتفها إلى امتداد الشاطئ من خلفها والبيوت القليلة المعتمة التي اصطفت محاذية له.

انحنى أبو بكر نصف انحناءة قبل أن يستقر بجسده في مقعد بلا ذراعين أمام المائدة. أوماً برأسه، وتتبع نظرة جوان عبر مقدمة الشاطئ. «بلد جميل.» قال أبو بكر بحزن دون أن يوجه حديثه إلى أحد بعينه. «أتخيل أنكما ستغادرا أنا قريبا.»

قالت نينا: «أقرب مما تتخيل! لا أعرف ماذا سأفعل دون صديقيّ الجديدين.»

قال أبو بكر: «زوروني كل سنة مرة..»

ضحكت نينا وقالت على سبيل التوضيح لنبيل وجوان: «إنها أغنية شهيرة. تتوسل فيها المغنية لأصدقائها كي يزوروا حتى ولو مرة كل عام.»

قال نبيل: «أعرف الأغنية.»

مد أبو بكر يده ليتناول سلطانية الملوخية من نينا، وقطع نصف رغيف من الخبز البلدي، غمسه في الملوخية وقضم قطعة كبيرة.

قال نبيل: «بالهنا والشفاء..»

قال أبو بكر: «شكرا..» تلمظ بشفتيه، ومسحهما بقوة في منديل سفره. «أنت تعرف من العربية أكثر مما ظننت، بالنسبة لشخص رحل منذ زمن طويل إلى هذا الحد. والأغنية، كيف عرفتها؟»

قال نبيل: «اعتاد أبي تشغيلها.»

هز أبو بكر رأسه. وابتسم غالبا لنفسه، ثم تطلع إلى نينا وقال: «مدهش، صح؟ الطريقة التي تسير بها الدنيا. يغادر الأب فقط ليجد الابن يعود، متحدًا نفس اللغة، عارفا نفس الأغاني. هه!»

قال نبيل: «وما الغريب إلى هذا الحد في ذلك؟»

«ليس غريبا. ليس غريبا. فقط القدر. القدر. تحاول أن تبتعد. وتبتعد. تقطع نصف العالم، وربما لا تعود قط. ثم بعد سنين، ثمة عودة. وتكمل الدائرة.» تناول ملاعق كبيرة من الملوخية بسرعة، وهو يستنشقاها.

قال نبيل: «هاجر أبي إلى أمريكا، وهو حدث ليس غريبا إلى هذا الحد.»

«نعم. نعم. أفهم ذلك. إنه مجرد مجاز. الهروب من مصر، من ماضي المرء، وبداية جديدة. إنها قصة

قديمة. ” تطلع إلى جوان متفحفا ثم إلى نبيل وقال: «اسمع. أنتما آخر الأجنب الباقين هنا.»

قال نبيل بجفاء: «سنگادر قريبا.»

“بالطبع. هذا متوقع. بالنسبة لأمانكما، أفعل ما أستطيع.”

قالت جوان: «ماذا يعني هذا بالضبط؟»

هز أبو بكر كتفيه وقال: «عزيزتي، هناك فوضى في البلاد. الناس يسقطون قتلى بالرصاص في شوارع القاهرة. وحتى في الإسكندرية.. على مبعدة مسافة قصيرة بالسيارة من هنا!»

ثم نهض فجأة، والتفت إلى نينا وقال: «طعامك لذيذ كالعادة يا مدام نينا.»

أومأت نينا برأسها شاكرة.

أسرع بنشاط هابطا الدرجات، ومن أسفل الشرفة قال لنبيل وجوان: «سفرية آمنة لكما معا. ربما نراكما هنا مرة أخرى في العام القادم. رحلة حج منتظمة إلى ماضي المرء، إلى ديار المرء، كما أمل.»

راقبوه وهو يتحرك مبتعدا على الشاطئ.

تمتت جوان: «يالها من شخص سمح!»

تتهدت نينا وهزت رأسها. «الأحمق المسكين. لقد وضعوه في هذا المكان لسنين، ليبقي عينه علينا جميعا وعلى السياح. ونسأه أولياء نعمته تماما. لكنه ما زال ³⁰chien fidèle ميووس منه.»

قالت جوان: «يبدو أنك متعاطفة بعمق يا نينا.»

ابتسمت نينا وهزت رأسها: «وكيف لي ألا أتعاطف، فقط قليلا؟ في الماضي أعلن نفسه حاميا لي. أعتقد أنه عاشق بعض الشيء لنينا العجوز المسكينة.»

“أنت وحيدة للغاية هنا يا نينا..” قالت جوان، وهي تريح رأسها على كتف نبيل. “ماذا عن صديقك؟ المرأة التي اعتادت المرور على المطعم. باعتبارها شخصا ازدت قريبا منه. ماذا يا ترى حدث لها؟»

“كان هذا منذ زمن طويل جدا. لكني لم أنس قط. لقد قُتلت. حادث مأساوي.”

قال نبيل: «حادث؟»

“قال زوجها إنه كان يعلمها السباحة. قال إنهما علقا في تيار سحب الأمواج.» ثم تتهدت. «كانت تعيسة. وبالطبع صرت أحبها بجنون. إنها طريقي، هكذا. بدت الصحراء دائما أمنا مكان للأسرار، لكن هذه البلدة...» خفت صوتها. «وحبي دائما عالي الصوت أكثر من اللازم.» توقفت نينا، وهزت رأسها. «كنت أعرف أنها تريد الهروب. أخبرتني وبالتالي رسمنا خططا مجنونة يائسة؛ أن نرحل معا إلى الإسكندرية، ونختفي هناك لفترة، ثم نأخذ سفينة تشق بنا البحر إلى فرنسا أو إيطاليا أو إسبانيا.»

قالت جوان: «وهل فعلتما ذلك؟»

«لم نبتعد كثيرا. ولا حتى خرجنا من البلدة. جردنا من ثيابها، وقيدنا إلى السرير. تركها هكذا طوال الليل. اتصلت بي بعد ذلك. قالت إنها تحبني.»

مالت جوان إلى الأمام نحو نينا وقالت: «هل رأيتها بعد ذلك مرة أخرى؟»

هزت نينا رأسها. «لا. أبدا.» توقفت، وحدقت بعينين خاويتين في الفضاء أمامها. وأخيرا قالت: «كان هناك ولد صغير. أحضرته معها ذات مرة إلى المطعم؛ تسلل الولد إلى المطبخ، وتصادق مع الطاهي، وحشا معدته بالحلوى والساكر. كانت منزعة جدا عندما أدركت ما حدث. ثم غضبت مني بشدة عندما لم أستطع التوقف عن الضحك.»

نهض نبيل. أصابه اختناق مفاجئ في حضور نينا.

صرخت نينا: «هل سأراكما مرة أخرى؟» كان هناك ثمة شيء وحشي في عينيها. «لا بد أن أراكما قبل أن ترحلا.»

حلم نبيل برأس شعرها أسود كثيف مقبوض عليها بقوة تحت الماء. نوبة جنون مفاجئة، حركة متفجرة، في عباب متلاطم بيوم مشمس. استيقظ لاهثا متقطع الأنفاس، ونزل من الفراش وارتدى ملابسه في عجلة. كان البيت صامتا، في العتمة. نادى جوان لكنه لم يسمع ردا. خارجا في الفناء المرصوف كان الشاطئ ممتدا أمامه، وهلال من الفضة يذوب في سواد البحر. في ضوء القمر، كان بمقدوره رؤية الزبد الأبيض الطافي من بعيد، توهُّم بطبيعة صامتة تتدحرج في الأمواج الصغيرة التي كانت تتكسر على خط الشاطئ. تطلع مرة أخرى في الماء، وهتف باسمها بينما كان يندفع فوق الرمال، باحثا عن ظل في الأمواج، وبعد ذلك جاب بعينه الكئيب الرملية الغارقة في ضوء القمر من بعيد.

«جوان!» صار نداؤه الآن صراخا، وصوته له صدى أجوف بلا نغم.

«أنا هنا..» هتفت أخيرا من مكان ما على امتداد الشاطئ المظلم. «هل أنت خائف؟ ألا تراني؟»

عندئذ رآها، ترتدي فستانا قطنيا حائلا، محاطة بأميال من العدم. لم تتحرك حتى صار إلى جوارها.

17- ويل للسياسة.

18- العالم صغير حقا، أليس كذلك؟

19- أنت تزعجني.

20- المقزز!

21- القدر المتجلي أو القدر الساطع أو المصير الواضح هو مصطلح أو فكرة تعني الاعتقاد بأن الولايات المتحدة هي أمة متجهة إلى التوسع من ساحل المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادئ. وتستخدم هذه الفكرة أيضا من قبل أنصارها لتبرير عمليات الاستحواذ الإقليمية الأخرى.

22- يا إلهي، تهاني..

23- نعم، أفهم.

24- عزلة.

25- عدت.

26- لكن لا بأس.

27- عزيزي، لا يمكن تخيل..

28- نصب تذكاري للحرب صمم في عام 1918 من قبل السير ريجنالد بلومفيلد للجنة قبور الحرب الإمبراطورية. وهو موجود في مقابر حروب الكومنولث.

29- مفهوم جدا.

30- كلب مخلص

الفرعون

نورا أخت فوزي، وزوجها عادل، كانا في انتظاره بالمطار في سان فرانسيسكو. اندفعت نورا لتحتضنه، وبعد ذلك، وبسرعة أكبر من قدرة فوزي على الإجابة؛ أمطرته بالأسئلة عن العائلة هناك في الوطن. كان عادل قد أطلق لحيته، وارتدت نورا معطفا أسود سابغا ووضعت طرحة على شعرها. كاد فوزي ألا يتعرف على أي منهما. لكن بعد ذلك بدا كل شيء غريبا عليه في هذه المدينة في الطرف الآخر من العالم. مطار من الحديد والزجاج، يلتصق كسكين مسحوب في ضوء الشمس. على النقيض تماما من نظيره المتداعي في الإسكندرية بدهانه المتقشر والجنود المشعثين بأزيائهم العسكرية الرثة ومدافعهم الرشاشة المعلقة.

منذ أقل من أربعة وعشرين ساعة، اصطحبت أمه وأبوه إلى المطار، مستقلين سيارة أجرة أوقفها عمه محسن في الرابعة صباحا عند نهاية شارع بورسعيد قرب كلية سان مارك. انطلقوا في صمت، وحدّق فوزي في الكورنيش الذي غامت ملامحه في الضوء المغبش لأعمدة الإنارة، وفي الامتداد الأسود للبحر من خلفه. مروا بمحطة الرمل وفندق سوفيتيل سيسيل ومقهى تريانون. ميدان سعد زغلول مهجور ورمادي في الصباح البازغ. تركوا الكورنيش إلى شارع أبو قير، مروا ببعض الباعة الذين كانت محلاتهم ما زالت مفتوحة، والضوء الأصفر ينسكب منها على الرصيف. امتدت أمامه الحياة الليلية الساكنة والمتجهمة للمدينة الوحيدة التي عرفها في حياته، والمقاهي الصغيرة الساهرة التي تخدم قلة من المتشردين المسطولين. كان فوزي يعرف أن أمه تراقبه، ومن أجلها كبت موجة من الذعر انتابته من فكرة الرحيل. انعطفوا يسارا وبعدها كانوا يتحركون خارجين من وسط المدينة، تاركين الإسكندرية خلفهم.

سألته نورا: «أي مشكلة في وكالة الهجرة؟»

طمأنها فوزي أنه لم تكن هناك أي صعوبات على الإطلاق.

قال عادل: «حظ المبتدئين. مرحبا بك في أمريكا.»

بدا عادل أكبر سنا مما تذكر فوزي. كان رجلا طويلا، لكن الآن ثمة قليل من الانحناء في مشيته، وقلق منطبع على وجهه. أصر عادل على حمل حقيبتي سفر فوزي، وأمسكت نورا بيد فوزي وهم يشقون طريقهم إلى طابور سيارات الأجرة المنتظرة.

في الخارج، كان مذاق الهواء على شفثيه أول ما لاحظته على الفور، مذاق حاد ومعدني بوضوح، وضوء الشمس بارد وساطع. تفحص شبكة الطرق السريعة بالأعلى، والتلال الخضراء في البعد، وسماء غائمة رمادية حامت فوق امتداد من خلاء مفتوح لا يمكن سبر أغواره. وبينما كانوا ينطلقون مغادرين المطار على الطريق السريع، أشارت أخته إلى سان فرانسيسكو، التي لاحت فجأة أمامه كمكان متخيّل في حلم؛ طاغوت من الخرسانة والحديد.

قالت نورا: «لسنا بعيدين للغاية عن هنا. إنها شقة صغيرة، لكنك ستشعر بالارتياح. أغلقنا المحل إكراما لك. وهو صغير جدا أيضا.»

كان محل البقالة الذي يديرانه واحدا من محلات شبيهة عديدة تملأ شارعاً ضيقاً. لم يرَ فوزي قط خليطاً غريباً من الناس مثل هذا في مكان واحد. وكان زوج أخته ينظر إليهم جميعاً بارتياح موحد. «هذا ليس حياً عظيماً. الكل هنا إما مخمور أو مخدر أو مجنون..» قال محذراً فوزي. «ويعتقدون أننا أهل العنف.» أرشد فوزي لزر الطوارئ خلف النضد. كان هناك أيضاً مضرب بيسبول مسنود على الحائط الخلفي، وقد تقدم بطلب ترخيص مسدس.

كان فوزي حريصاً ألا يمثل عبئاً، ولذا عمل ساعات أطول مما هو متوقع منه في المحل. أحس براحة ما داخل حدود جدران الأربعة. كان عازماً على استكشاف المنطقة المحيطة بالمحل، لكنه أحس أيضاً بالخوف. كانت سارينات البوليس لا تنقطع. في مصر، كان قد شاهد أفلاماً أمريكية طافحة برجال العصابات والبنادق، وترك هذا لديه انطباعاتاً لا يُمحى ببلد عنيف وعصبي على التنبؤ. وأثناء سيره في وسط المدينة، كان يتوقع أن يتعرض للهجوم أو التهديد بنصل سكين. ولم تساعد تحذيرات عادل على تهدئة مخاوفه. «لا تستخف بقدر الكراهية التي يحملونها ضدك..» هكذا أخبر فوزي. «منذ 11 سبتمبر ستكون ملوماً على كل شيء. ينظرون إلينا على أننا الشيطان. أغلبهم لا يستطيعون العثور على بلادهم فوق الخريطة، لكن الجميع يعرف (محور الشر). هذا هو ما علق في الأذهان من كل شيء.»

سأل فوزي أخته: «ما خطبه؟»

هزت نورا كتفها وقالت: «سيبك منه.»

قام عادل بمساعدة فوزي في تمييز الأعراق والجنسيات المختلفة للأشخاص الذين كانوا يترددون على المحل: من أصول إسبانية، صينيون، فيتناميون، من أرخبيل تونغ، أمريكيان أفارقة، إثيوبيون، صوماليون، أفغان، إيرانيون، والعرب غريبو الأطوار. كان عادل يحتفظ بسجادة صلاة خلف نضد المحل. وكان يلتزم على نحو صارم بطقس الصلوات الخمس اليومية. وأحياناً كان فوزي يخدم زبونا بينما عادل يركع مصلياً في الحيز المحدود وراء النضد. وكان بمقدور فوزي أن يرى عيني الزبون تستقران بفضول قلق على الجسد الراكع خلفه. ذات مرة تهامس زوجان صينيان مسنان بتوتر أحدهما إلى الآخر، وهرعا خارجين من المحل تاركين طلبهما المكون من ثلاث علب تونة ورغيف خبز على النضد دون دفع الثمن. وفي مرة أخرى جاء مراهق أبيض برأس حليق ووشم لحيوان زاحف من نوع ما يتلوى صاعداً على رقبتة إلى مؤخرة رأسه، وسأل فوزي: «ماذا يفعل ذلك الشخص هناك بحق الجحيم؟» بدأ فوزي يجيبه لكن عادل الذي كان قد انتهى للتو من الصلاة نهض وسأل الصبي ما المشكلة.

قال الفتى: «لا مشكلة، فقط لم أستطع تخيل السبب الذي جعلك تجثو ومؤخرتك مكشوفة في الهواء.»

قال عادل: «أنت وتلك السحلية على وجهك بحاجة إلى الزحف بعيداً.»

أشار الفتى بإصبعه بعلامة النصر، وهز لسانه بينهما إلى عادل.

التقت نورا بعادل بينما كانا طالبين في كلية التجارة بجامعة الإسكندرية. أراد عادل أن ينتقل إلى الخليج، وأن يعمل في شركة أوروبية أو أمريكية في البحرين أو دبي. وكان قد سجل نفسه أيضا في قائمة الهجرة إلى الولايات المتحدة، لكن لم يكن لديه أمل كبير في اجتيازها. كان له ابن عم في ويسكونسن يكفله. أما نورا فلم تفكر قط في مغادرة الوطن. لكن عادل كان قد أقنعها بأن الحياة في مصر طريق مسدود، وعاجلا سيفوت الأوان على تغيير المسار. وقتها كان يبدو لها حالماً شغوفاً، يضع أمامها عالما من الاحتمالات مثل لوحة على نسيج مطرز. ومع الوقت أصبحت شوارع الإسكندرية المزدهمة والمتكسرة خانقة وميؤوسا منها بالنسبة لها تماما كما بدت له منذ وقت طويل.

في ضربة من ضربات الحظ، جاء دوره وذهب إلى أمريكا قبلها. ذهب إلى ميلووكي حيث كان ابن عمه يمتلك دكانا لبيع الأطعمة الشرق أوسطية. وفقا للأوراق المقدمة إلى وكالة الهجرة الأمريكية، كان عادل خبازا متخصصا، وذا أهمية كبيرة لنجاح المشروع. لكن الخطابات التي كان يكتبها إلى نورا من ميلووكي كانت تبعث على اليأس. كان ابن عمه وغدا غير متعلم، بدا أنه يستمتع بتكليفه فقط بأكثر المهام وضاعة. لم يفهم الأمريكيان. كانوا متقلبي المزاج جدا. يوما يكونون حريصين على الانخراط في الحديث وإقامة الصداقة، وفي اليوم التالي بالكاد يتعرفون عليك. السود يتكلمون وكأنهم يزعمون، وهو ما كان يزيد الطين بلة لأنه لم يكن يستطيع فهم ما كانوا يقولونه أصلا. نور الشمس في الشتاء، لو أمكن تسميته بهذا، كان خدعة؛ خاليا من الدفء. لم يشعر من قبل بكل هذه البرودة. وثمة مكان يُدعى كاليفورنيا كان يتطلع إليه. كان يفنقدها على نحو رهيب.

أخيرا انضمت إليه نورا في كاليفورنيا. قبل وصولها كتب إليها: هذه أفضل بكثير. تشبه ما كانت عليه الإسكندرية.

كانت نورا أيضا منجذبة إلى سان فرانسيسكو. لكن بمقدورهما أن يكونا معا في أي مكان، وسيكون هذا طيبا بالنسبة لها. في الإسكندرية، بعد زفافهما، عاشا في حجرة نوم إضافية في شقة والديه. لم تبال نورا كثيرا بالشقة أو الحياة مع والدي عادل. لكن كان بمقدورها أن تتحمل الكثير من أجل بضع ساعات مع عادل في الفراش وحدهما. كانت شهوتها الجنسية تخرجها، في البداية حاولت أن تكتم استجاباتها، راقدة في انتظار سلبي لأصابعه على جلدها العاري وشفثيه على نهديها. بعد ذلك كان يضغظ بساقه واضعا إياها بين ساقيه، وكانت هي تتحرر ببطء، وتمتطي ركبته، وتصل إلى الذروة في صرخة مكتومة في كتفيه. كان قد انتظر شهرا قبل أن يدخلها، وكل محاولة تثير الألم من جانبيها لم تكن لديه القدرة على تجاوزها.

على شاشة التليفزيون كان مستوى الخطر في المرحلة البرتقالية. ليست هناك تعليمات أخرى. رأى فوزي الصور الخاطفة للجموع الغاضبة؛ عرب بلا وجوه ولا أسماء في غزة، والضفة الغربية، والقاهرة، وبيروت، ودمشق، وبغداد. بعد ذلك سلسلة من المعلقين في الاستوديو، وطننتهم ما هي إلا حجرة صدى مجوفة مليئة بالتكرار. مئات الملايين يجري اختزالهم إلى رعاغ غاضبين. بالكاد كان باستطاعة فوزي أن يميز الناس الذين اعتقدوا أنهم يصفونهم. فكر في أمه وأبيه، في السير إلى المدرسة مع أصدقائه في الصباح الباكر بينما الشمس تدفئ الأرض. وفي العصر، رائحة الطبخ

المحبوسة والمتسربة في غبشة الغسق. فكر في صلاة الجمعة في المسجد الصغير على مقربة من شقة والديه، وبعد ذلك احتساء القهوة في مقهى حمدي المطل على البحر. كم كان الأمر يبرون العالم على نحو مختلف!

«هذا الإنذار البرتقالي من أجلك.» قال عادل وهو يشير إلى شاشة التليفزيون. «لم يتحول عن اللون البرتقالي منذ هبطت بك الطائرة هنا. لا بد أن السلطات تعرف أنك هنا.»

لو كان مقصودا بها أن تكون مزحة، فإن الحدة في صوت عادل سلبتها القدرة على المزاح. لم يقل فوزي شيئا، لكنه أحس في تلك اللحظة في حجرته العائلية الضيقة، أنهم جميعا غرباء عن المكان على نحو يائس.

كانت نورا الآن مختلفة للغاية عن الشابة المرححة التي عرفها من قبل. أسرت إلى فوزي قائلة: «كل عام يسوء الأمر أكثر. والآن صار صعبا جدا. تأتي الحالة على شكل أمواج. كل مرة يسمع فيها شيئا في الأخبار يزعجه، ينغلق أكثر، ويحاول أن يأخذني معه.»

قال فوزي: «ينبغي أن تتجبا أطفالا.»

«حسنٌ، تلك مشكلة أخرى. لقد حاولنا كثيرا.»

في يوم خريفي مشمس، اصطحبت نورا أباها إلى جسر جولدن جيت. بقي عادل ليعتني بأمر المحل. استقلا سيارة أجرة إلى مرسى (مارينا)، وبعد ذلك تتبعا الحشد الصغير على ممر المشاة عبر الجسر. منذ وصوله إلى سان فرانسيسكو قبل بضعة شهور، تمحورت حياته حول المحل. كان قد رأى الجسر من بعيد، لكنه لم يتوقع الجمال الخالص للمنظر الذي كان يطل عليه. التلال الوارفة، الخضراء والبنية، على خلفية من سماء زرقاء مرقشة. جزيرة أنجل آيلاند، جزر فارلون آيلاندز، أسماء تبدو سريلية بعض الشيء، حلم من الصفاء إلى جانب ما كانت عليه المياه اليوم من سكينه في الخليج. على تخوم هذه الخلفية الرائعة، كان الجرم المهيب والمباغت لجزيرة وسجن الكاتراز، وكأنها تذكير جهم لما يمكن أن يسير دائما على نحو خاطئ.

ضربتهما الرياح وهما يجتازان الجسر، وضبطت نورا طرحتها، ولفت معطفها المنفوخ حول جسدها على نحو أكثر إحكاما. مال فوزي على السياج ليحظى برؤية أفضل للخليج، وتشبثت نورا بذراعه، وهي تحته كي يحترس خشية أن ينزلق من فوق السياج. ضحك من قلقها عليه. كانت أخته الأكبر، ولطالما عاملته كطفل. أخذت استراحة عند نقطة المراقبة في الجانب المطل على مدينة ساوساليتو، قبل رحلة عودتهما عبر الجسر. كان الجو أكثر دفئا هنا، ولم يتعرض نور الشمس لأي فلترة من سحابة عابرة فوقهما. رفعت نورا وجهها الشاحب إلى السماء، وفي الغبش الذهبي للضوء بدا جمالها براقا. في الريح انزلقت طرحتها إلى الوراء، كاشفة عن شعرها الكثيف والأسود في ضوء الشمس. «آه..» قالت ومدت يدها لتضبط الطرحة.

قال فوزي: «لا بأس، هي لم تكن قط تليق بك كثيرا على أي حال.» هناك في مصر كانت أمه وكل

خالاته و عماته، وأغلب بنات عمومته، يرتدين ثيابا مثل هذه من منطلق الاختيار والاقتناع. لكن نورا لم تفعل ذلك قط. «الجو دافئ هنا يا نورا. اخلي المعطف.»

أشخاص قليلون فقط من كانوا يشاركونهما الفرجة في المكان، ولم يبدُ أن أحدا يولييهما أي انتباه. ضحك فوزي وقال: «لا تقلقي. عادل مشغول في المحل. لا يمكنه رؤيتك من هذا المكان.»

قالت: «أحيانا لا أكون واثقة إلى هذا الحد.»

خلعت معطفها، وناولته إياه. علقه على ذراعه. كانت ترتدي بنطلونا وبلوزة. كانت نحيلة، ومنحنياتها القليلة الرقيقة تجعلها أقرب إلى الغلمان. عقدت ذراعيها على صدرها، وبدأت تضحك، ثم قالت: «هذا سخيف جدا، فعلا.»

أولته ظهرها، وسارت إلى السياج المطل على ساوساليتو. انضم إليها هناك، واستغرقه الأمر لحظة قبل أن يدرك أنها تبكي.

قال: «نورا، أنا آسف جدا. كنت فقط أمزح معك.»

بدأت مندهشة للحظة ثم قالت: «آه، لا يا فوزي، أنت لا تفهم. كنت أفقد الوطن كثيرا، وأنا سعيدة جدا لأنك هنا.»

ظلا على ذلك المَطَل الضيق حتى زحف قليل من البرودة على النسيم القادم من الخليج. وضعت نورا معطفها عليها فانزلق فوقها وضبطت طرحتها.

قال فوزي: «عُدتِ إلى ثوبك من جديد.»

ضحكت نورا، وشبكت ذراعها في ذراعه وهما يقفان عائدين فوق الجسر.

مع الوقت، ضجر فوزي من العالم المحدود بين الشقة والمحل ضجرا كافيا للتغلب على قلقه، وبدأ يتجول في الأحياء المحيطة به. وما إن بدأ في استكشاف المدينة سيرا على قدميه، حتى أصبحت جولاته أسهل. لم يكن غريبا على مكان من قبل أبدا، وبدأ يفهم الدافع وراء قيام السياح الذين كان يراهم في الإسكندرية بالتسكع في الشوارع المتربة حاملين حقائبهم الطويلة على ظهورهم، مأخوذين بأكثر المناظر اعتيادية وكأنهم على أعتاب كشف ما. تمشى في حي ميشن، مارا بالمشردين المتكومين في مداخل البيوت، وعفونة الكحول والبول، ومارا بالشباب السود الذين حذره عادل منهم بشكل خاص إلى حد الخوف. تهادى عبر أزقة اصطفت على جانبيها بيوت مضغوطة أنيقة، وعبر شوارع منحدرية وملتقة، حتى وصل إلى منطقة سيثريك سنتر وجادة ثان نيس العريضة بواجهات محلاتها ودور السينما بها. وتمشى قاطعا كل الطريق إلى واجهة الإمبركاديرو ومساره الموازي للخليج والمطل عليه، مروراً بمحطة المعديات ومصد الأمواج إلى منطقة فيشرمان وارف. بعض ما رآه ذكره بالإسكندرية - مدينة على حافة الماء، فنادق، مطاعم ومقاهي مزدحمة تطل على البحر، وعندما انتشع الضباب، ثمة فيض متألق من نور الشمس. غابت أيضا فوضى السيارات والبشر والبهائم التي كانت محتشدة في الطرقات الضيقة ذات الأسفلت المكسر. وحل محلها عالم جديد

وضاغط في نفس الوقت، متوج بكفاءة مميكنة براءة.

كانت نورا قد زينت المحل بتذكارات من مصر؛ تقويم حائط به صورة للأهرامات معلق على الباب الخلفي، تمثال رخامي لأبي الهول على رف المدفأة خلف نضد دفع الحساب، وأسفله ورقة بردي مؤطرة ومسمرة في الحائط، تصور فرعوناً يركب عجلة حربية تجرها الخيول. علاوة على رفوف البقالة والأطعمة المعلبة والحلويات الشرقية والخبز وبعض الكماليات، كانت هناك أيضاً كحوليات ومجلات في مؤخرة المحل. منذ بدأ فوزي العمل في المحل، رفض عادل التعامل مع المجلات الإباحية. صار الخيار في يد فوزي؛ أن يُنزل هذه المجلات من شاحنة التسليم، ويرصها على الرف بطول الحائط الخلفي. والأمر ذاته ينطبق على النبيذ الرخيص والبيرة. لم تكن لدى فوزي مشكلة في أي من المهمتين. وبين الحين والآخر كان يأخذ إحدى المجلات إلى حجرته. لم يكن قد رأى قط شيئاً مثلها. كان في الثامنة عشر، لكنه لم يتخيل قط أن الرجال والنساء يمكن أن يتخذوا كل هذه الأوضاع الكثيرة، أو أن امرأة تسمح لنفسها بالتصوير في مثل هذه المواقف الفاضحة. ومع ذلك، أثارته الصور، وفي وقت متأخر من الليل، عندما كان يتأكد أن أخته وعادل نائمان في الحجرة المجاورة، كان يستمني عليها في فراشه.

في الحجرة العائلية كان التلفزيون مفتوحاً، والألوان تشرق خاطفة. كانت الشرطة قد أغلقت حي المال في نيويورك. كان إنذار الإرهاب ينبض على الشاشة. جرى اعتراض تهديد معين وبعد ذلك لمح أحدهم بعض الرجال ذوي المظهر الشرق أوسطي يتصرفون بطريقة مريبة.

قال عادل: «هجمة أخرى، وسيكون كل واحد منا مرتدياً (عفرية) برتقالية خلف سلك شائك في مكان ما. ينبغي أن نعود. أعرف أن فوزي قد وصل للتو إلى هنا، لكننا بحاجة إلى وضع الأمر في الاعتبار.»

قالت نورا: «هذا سخيف.»

صاح عادل: «نحن غير مرغوبين هنا. إذا لم تكوني قد سمعتِ فهم يقولون إن ثقافتنا متعفنة، وديننا مختل، ونحن بحاجة إلى التطور!»

قالت نورا: «اهدأ..»

«الديمقراطية! لم تكن لتوجد قاعدة أمريكية واحدة في الشرق الأوسط لو كانت هناك ديمقراطية! لن يكون هناك مزيد من البترول الرخيص القدر لو كانت هناك ديمقراطية.»

«لدينا جيران يا عادل.»

«تخافين أن يسمعونا؟ ماذا، أيتحدثون العربية الآن؟»

قالت نورا: «هذا ليس بالسلوك المهدب..» ونهضت من فوق الأريكة وغادرت الحجرة.

قال عادل لفوزي: «هي تعتقد أنني مجنون. أختك تعتقد أنني أفقد عقلي. لكنها ترفض أن ترى إلى أي حد نحن في وضع هش.»

قال فوزي: «لكن ربما لا. انظر فقط إلى الناس الذين يأتون إلى المحل. الأمر كله معقد. ولن يكون بسيطاً إلى هذا الحد.»

«تريد البقاء؟ يعجبك المكان هنا؟»

فكر فوزي لبرهة ثم قال أخيراً: «ينبغي علينا البقاء حالياً.»

بعد أسبوعين، تعرض عادل للسطو تحت تهديد السلاح. كان الرجلان اللذان دخلا المحل قرب موعد الإغلاق هما الزبونان الوحيدان. وضع أحدهما مسدساً في رأس عادل، وجعله يوصد الباب الأمامي ويفتح ماكينة النقود. أجبر عادل على الرقاد ووجهه أرضاً خلف النضد بينما انتزع الرجلان النقود من الماكينة. مد أحدهما يده مفتشاً عن محفظة عادل، وعندما بدا أنه سيقاوم، أطلق النار فأصابه في خصرته. ثم فر المعتديان. كان فوزي ونورا قد عادا إلى البيت في وقت سابق، وعرفا بأمر الحادثة عندما تلقيا اتصالاً من المستشفى. فيما بعد مسح الدم المتناثر على الجدران، وبركة الدماء على الأرضية التي امتد خيطها إلى مدخل المحل. أغلقا المحل لبضعة أيام، وأخفيا الخبر عن العائلة في مصر.

احتاج عادل إلى تدخل جراحي، فغر قولون³¹ مؤقت وفترة نقاهة طويلة، لكنه نجا. في المستشفى، رفض أن يقول الكثير لفوزي ونورا، موفراً أي تصريحات لديه من أجل الشرطة. وما إن عاد إلى البيت حتى التزم صمتاً متجهماً. والأوقات الوحيدة التي كان يعتدل فيها مزاجه كانت عندما يعود فوزي أو نورا ببطاقات أمنيات بالشفاء من مالكي المحلات الآخرين في الحي. إحداها كانت بحروف صينية لم يستطع قراءتها، لكنها ضمت سطرًا بالإنجليزية على الغلاف الداخلي، يتمنى له سرعة الشفاء.

خلال فترة نقاهة عادل تولى فوزي مسؤولية إدارة المحل. كان هناك الكثير مما يجب تعلمه، خاصةً لأن نورا كانت تقضي أغلب وقتها في البيت مع عادل. كان على فوزي أن يستمر في متابعة ما يجب أن يطلبه ومتى، ومقدار ما يجب أن يبقيه مخزوناً من أي سلعة، ومتى يدفع الفواتير وكيف يحفظ السجلات. في البداية، كان عادل يتصل به عدة مرات في اليوم، مقدماً له التوجيهات من البيت، مساوماً حول تغييرات السعر ومصرراً على تقرير ثلاث مرات يومياً من فوزي. لكن إصابته كانت قد استنزفت قواه، ولم يستطع الإبقاء على هذا الإشراف لوقت طويل. بل إنه تجنب التلفزيون، وفي النهاية قضى أغلب وقته يقرأ كتب رحلات كانت نورا تستعيرها له من المكتبة العامة. من منطلق الاحترام، ظل فوزي يتصل به عند الظهر ويراجع أحداث اليوم معه في المساء.

تتألم لدى فوزي الإعجاب بذلك الشعور بأنه يدير المحل. استمتع بإدارته لوقته. في الصباح الباكر كان يجلس على مقعد خشبي في مدخل المحل مع قهوته، ويراقب نور النهار وهو يتمدد فوق الطريق أمامه؛ أزرق متدرج يفسح المجال للرمادي المغبش لصباح مشبع بالضباب. تعرف على أصحاب المحلات الآخرين في شارعهم، وتبادل معهم الدعابات اليومية والشكاوى المعتادة من أحوال العمل. صار لديه إحساس بالمكان كان قد افتقده منذ قدومه إلى أمريكا. وكانت نورا تضحك عندما تلاحظ

كيف اعتاد بسهولة على دوره الجديد.

قالت: «من الأفضل ألا يراك عادل بذلك الاختيال والنتيه.»

كانت نورا تمر على الأقل مرة واحدة كل ليلة وتجلب لفوزي العشاء - محشي ورق عنب، محشي فلفل، حمص، تبولة، خبز بلدي ساخن، كفتة. كانت تطهو ما تعرفه. لكنها كانت تشعر بالقلق نحوه وحيدا في المحل ليلا. «إنه بلد عنيف.» هكذا كانت تقول كلما أثير موضوع إطلاق النار على عادل. أرادت أن تنتقل إلى حي أفضل؛ إلى متجر أكبر في واحدة من ضواحي جنوب سان فرانسيسكو. كانت تريد أطفالا، ومحاولة تربيتهم في المدينة ستكون صعبة. سيكون الأمر أسهل في الضواحي؛ أكثر براحا وأمنا. قرأت عن فرصة في مكان يُدعى فريمونت، على مبعده حوالي 30 دقيقة إلى الجنوب، وعندما صارت لدى عادل القدرة، استقلوا جميعا القطار إلى فريمونت ليلقوا نظرة على الموقع. كان المتجر في مركز المدينة القديم، والمحلات المحيطة به أغلبها أفغاني.

قال عادل: «عظيم، والآن سيظنون أننا من طالبان. نحن أكثر أمنا في سان فرانسيسكو.»

قالت نورا: «لا تكن هكذا، إنها مساحة كبيرة. ستناسب متجرا كبيرا.»

أعجب فوزي بالمنطقة كثيرا. كانت أهدأ وبدت الضواحي مثيرة لإحساس لطف بالنسبة لهم. لكنه كان قد اعتاد على سان فرانسيسكو، وهذا الشريط الطويل ذو النصف ميل من المحلات في بلدة بلا اسم، أثار فيه الشعور بأنه يتعرض للاقتلاع وإعادة الغرس مرة أخرى. ومع ذلك، كانت نورا مأخوذة على نحو واضح بالمكان، وسارت المناقشات التمهيدية مع المالك على نحو طيب.

ذلك المساء، بعد العودة إلى المحل، بدأ فوزي يرسم خططا لانتقالهم. شخبط التفاصيل في مفكرة صفراء، وبعد ذلك أعاد كتابتها بشكل منظم على ورقة جديدة ليعرضها على عادل. فقط قليل من الزبائن قاطعوا عمله، ولم يلاحظ مرور الوقت.

قرب وقت الإغلاق، دخل رجل إلى المحل وسار على مهل نحو الخلف حيث كانت المشروبات الكحولية والوجبات الجاهزة مخزونة. أبقى فوزي عينا عليه وهو يعمل. بدا أن الرجل يأخذ وقتا طويلا على نحو مفرط كي يقرر أي نوع من البيرة سيشتريه، لكنه أخيرا جاء إلى النضد حاملا عبوة بها ست زجاجات من بيرة (بابست بلو ريبون) ووجبة جاهزة ماركة (هانجري مان) تضم ضلوع خنزير مقددة بالبيرة. كان رجلا ضخما، وبشرته سوداء بلون السترة الجلدية السوداء التي كان يرتديها. وثمة ندبة غاضبة تقطع الجانب الأيسر من وجهه، بدءا من الشفة. ألقى بالبيرة والوجبة المجمدة على النضد، وتطلع في أرجاء المكان بكسل.

تساءل: «من أين أنتم يا جماعة؟» كان صوته عاليا، هادرا، بدا لفوزي أقرب إلى مطالبة منه إلى سؤال.

للحظة، لم يرد فوزي. لمعت أمامه تحذيرات برتقالية وصفراء وحمراء. سقطت عيناه على التقويم

بصورة الأهرامات التي كانت نورا قد ثبتتها بالمسامير على الباب الخلفي.

قال فوزي: «نحن فراغنة.»

قال الرجل: «فراغنة..» وكررها: «فراغنة.. أنت تمزح معي، صحيح؟ فراغنة ملاعين!»

على نحو غريزي تحرك فوزي مقتربا أكثر من زر الطوارئ. وتحسس بأصابعه باحثا دون أن ينظر عن مضرب البيسبول أسفل النضد.

«فوزي؟» قالت نورا، وهي تدخل عبر الباب الخلفي. كانت ترتدي طرحتها، والمعطف الشتوي السابع، والذي كانت تبدو بداخله أشبه بقطعة صغيرة التفت حولها ملاءات السرير.

«أنت فرعونة أيضا..» قال الرجل الأسود لنورا. «سحقا! لعلني أريد أن أكون فرعوننا. لدي الحق في ذلك مثلي مثل أي شخص.» وبدأ يضحك.

شرع فوزي في توضيح الأمر لنورا. لكن الرجل كان يضحك بقوة شديدة حتى أن فوزي فجأة لم يستطع إلا أن ينضم إليه، في جنون، شاعرا بالضحك يُغرق خوفه.

31- فغر القولون أو تقويه القولون هي عملية جراحية تشمل توصيل جزء من القولون بجدار البطن الأمامي، تاركا للمريض فتحة بالبطن تسمى فغرة.

الممزق

كما هو مخطط، كانت السيدة المسؤولة عن التنظيف تنتظر سيف عند المدخل الخلفي لمعمل التشريح. ناولها سيف رزمة النقود وناولته السيفان. كانت المرأة حافية، ترتدي فستانا قطنيا ملطخا به نقوش زهرية حائلة وطرحه تغطي جانبا من شعرها. بدت متسلية على نحو غامض بالشباب الواقف أمامها، رغم أنها لم تقل شيئا.

كان سيف قد وصل من جلاسجو، دون أمتعته، قبل يوم. وكان ما زال يرتدي السترة الكحلية الخاصة بالمدرسة العامة الأسكتلندية والبنطال الرمادي اللذين اختار أن يرتديهما في رحلة طيرانه إلى الإسكندرية. كان قد رأى الأولاد الآخرين في المدرسة الداخلية يفعلون الأمر نفسه في طريقهم إلى باكستان أو الهند؛ وكان الزي المدرسي يمنحهم سمنا معيننا من التميز عند وصولهم عائدين إلى أوطانهم.

التقت عائدا إلى سيارة عمر، وفي كل يد كيس بلاستيكي يضم أجزاء الجسد الملفوفة في قماش مشبع بغاز الفورمالديهايد. أحرقت الرائحة اللاذعة عينيه، وأهاجت حلقه. رغم كل جهوده لإبداء رباطة الجأش، كانت مشيته متصلبة وخجولة. كانت السيارة على مبعده بضع ياردات، وبينما كان يقترب من مؤخرتها، كان بمقدوره أن يرى مؤخرة رأس عمر ابن عمه.

لمحه عمر في مرآة الرؤية الخلفية، فقفز خارجا من السيارة وفتح الصندوق متسائلا: «هل أعطيتها المال؟»

أوما سيف برأسه.

«لا مشاكل؟»

قال سيف: «لا شيء.»

أخذ عمر الكيسين من سيف، ووضعهما في صندوق السيارة. انطلقا خارجين من الحرم الجامعي إلى شارع أبوقير.

«مرة أخرى، أسف لتوريطك في هذا الأمر. لم أستطع المجازفة بأن يراني أحد. لو لم يكن هناك كل هذا العدد من الطلاب...» وتوقف للحظة قبل أن يضيف: «إنها الطريقة الوحيدة للحصول في أي وقت على الجثث. أنا متأكد أن الأمر مختلف في جلاسجو.»

فهم سيف تعليقات ابن عمته على أنها تعني أنه ليس لدى الجميع امتياز التعليم الأوروبي. هز سيف كتفيه وقال: «ربما. لم أكن لأعرف شيئا عن كلية الطب.»

كان سيف متلهفا على قضاء أجازة الصيف في مصر. كان يذكر ذلك الوقت قبل وفاة أخيه، قبل أن يغادروا مصر جميعا. كم بدا ذلك الوقت مختلفا بالمقارنة؛ وكل ذكرى مقطرة إلى جوهرها الذهبي ببريق نور الشمس على البحر المتوسط. كانت تحبته فكرة انقسام وقته بين شقة أبيه الصغيرة خارج

(الطريق الغربي الكبير)، وبيتهم القديم في شارع (ميتر رود) حيث كانت أمه ما زالت مقيمة بعد الانفصال. كان في السادسة عشر وقد أصبح هو الصلة المقلقة الأخيرة التي تربط والديه أحدهما بالآخر. لكنه لم يعد إلى مصر منذ مغادرتها قبل ستة أعوام. وقد بهنت لغته العربية، وأحس بالقلق من فكرة إن كان بمقدوره إعادة تأسيس روابطه بشكل له معنى مع الأقارب الذين تركهم وراءه. أثناء طفولته كان قريباً من ابن عمته الأكبر عمر، وعندما انتقلوا إلى جلاسجو ظل هو وعمر يتراسلان. لذلك عندما عرضت والدة عمر أن يقيم لديهم في الإسكندرية خلال الصيف، وافق.

ما إن عاد إلى شقة والديه، حتى فرد عمر الأعضاء البشرية على منضدة عمل مرتجلة في الشرفة المطوقة بالزجاج. تشبّع الهواء برائحة الفورمالديهايد، ودفع سيف مصراع نافذة واستنشق نسيم البحر. كان باستطاعته رؤية البحر المتوسط، مزبداً تحت سماء ملبدة بالغيوم. التفت إلى حيث كان ابن عمه يعمل. كانت الرأس في طرف المنضدة. على أحد جانبيها، كان الوجه قد تعرض للتشريح قبل ذلك، وقد تدمت مزقات من اللحم المدبوغ منفصلة عن عظام الوجنة البيضاء. كان الفك العلوي مكشوفاً من خلال جرح فاغر بدا عبره صف لامع من الأسنان. الجانب الآخر من الوجه كان ذليلاً كحبة من الزبيب، سليم إلا من مقلة عين خرجت من محجرها كشيء على وشك أن يولد. في منتصف المنضدة كان الجذع، ما زال ملفوفاً بالقماش، وأسفل ذلك ذراع وساق رقد أحدهما فوق الآخر على شكل صليب. لم يكن بمقدوره أن يحدد إن كانت أعضاء الجسد تخص رجلاً أم امرأة، فرداً واحداً أم عدة أفراد.

وقف سيف يتفرج بينما ابن عمه، بفضاز مطاطي وملاقط ومباعد، بدأ يحدد كل هذا العدد الكبير من العضلات والأوعية والأوتار، مطابقاً تشريحه بأطلس مفتوح إلى جانبه. بعد بضعة دقائق، كان سيف قد رأى ما يكفيه وذهب عائداً إلى داخل الشقة.

كانت الشقة تخص عمته. وكانت في الطابق الرابع من مبنى عمره مائة عام على مبعده مرتبعين سكنيين من البحر، ويطل على طريق تجاري مزدحم به محلات صغيرة غائرة كالكهوف. كانت حركة المرور تبدأ في الصباح الباكر، ولا يهدأ طنين السيارات إلا بعد وقت لا بأس به من منتصف الليل. في المساء على الفرائش، بدأ وكأنه معلق فوق منتصف الطريق.

على الفور تقريباً أثارت عمته مسألة زواج والديه ووضعهما. عند الضغط عليه أجاب بأنه لا يعرف. وكيف له أن يعرف؟ كان في مدرسة داخلية، وأبواه يعيشان منفصلين. ومع ذلك، لن يكون الطلاق أمراً مطروحاً للتفكير مهما كانت ترتيبات العيش، هكذا أكدت له عمته. "أخي لن يسمح بذلك أبداً." هكذا قالت معلنة. لكن ماذا عن أمه؟ ماذا كانت تريد؟ لم يستطع الإجابة. كان طارق هو حبيبها، وقد رحل.

ذات مساء من يوم جمعة، بعد بضعة أيام من وصوله، انطلق سيف مع عمر بالسيارة إلى الساحل الغربي، خارج الإسكندرية مسافة ساعة.

قال عمر: «هل أنت واثق أنك تريد أن تفعل هذا؟»

أوما سيف برأسه.

أوقف عمر السيارة خارج الطريق قرب مجموعة من الأبنية المتداعية المشيدة بالحجر الجيري التي كانت في زمن ما تكتات للجيش البريطاني. انعكست الأضواء الأمامية للسيارة المتوقفة على الامتداد الأسود القاتم للشاطئ. خرج سيف، وراقبه عمر وهو يسير إلى خط الشاطئ.

عندما خرج الغواص أخيرا من الماء، جعلته بدلته يبدو أشبه بشيء به جزء واحد فقط إنساني ينبثق من البحر. بين ذراعيه، كان جسد طارق رخوا ومتكوما، وشاحبا بشكل غريب. عندما جرى سيف إليه، تمكن من رؤية مسحة من الزرقة على قدميه ويديه، وأحاط اللون الأزرق بشفتيه وفكه. للحظة، بدا والده، خلفه ببضعة أقدام، متجمدا في مكانه. ثم مادت ركبتاه بأسفله، وانكفاً وجهه على الأرض، متأوها وضاربا الرمل الساخن بقبضتيه. كان غافلا عن كل من حوله، وعن ابنه ذي الثمانية أعوام الباكي إلى جواره. كان يضرب الأرض وكأنه يسحق تيار الأمواج الذي سحب ابنه الأكبر، وكأنه يهدم كل ذكريات ما كان يوما عالما مألوفا. وعندما رفع وجهه أخيرا متطلعا إلى سيف، كان وجهه ملتويا، محشوا بالرمل، ولا يمكن التعرف عليه تقريبا.

نادى عمر على سيف. كان قد أطفأ الأضواء الأمامية للسيارة، وفي ضوء القمر كان كل ما يمكن لسيف تمييزه هو الإطار الخارجي المبهم لجسد ابن عمته.

“لحظة واحدة..” صاح مجيبا. وبعد بضع دقائق شق طريقه عائدا إلى السيارة.

قال عمر: «كم تحتاج من هذا؟»

“انتهيت.”

انطلقا عائدين إلى الإسكندرية في صمت. تلك الليلة، اتصل سيف بأمه في جلاسجو. كان الوقت متأخرا من المساء وظن سيف أنها بدت ناعسة أو ربما كانت تشرب.

قالت: «حبيبي، كيف حالك؟ كيف حال عمك؟»

“أنا بخير. الجميع بخير.”

“هل تقضي وقتا لطيفا؟ كيف حال الإسكندرية؟”

“ماما، لقد عدت إلى الشاطئ.”

“نعم. هذا لطيف. هل كان ممتعا؟”

“ماما، لقد ذهبت إلى ذلك الشاطئ. أخذني عمر إلى هناك.»

صمتت للحظة ثم قالت: «حبيبي، ينبغي أن تتصل بأبيك، سيحب أن يسمع منك أيضا.»

لم تكن أمه موجودة عندما غرق طارق. لم تكن تحب الشاطئ. كانوا هم الثلاثة فقط، وقد سقطوا نائمين تحت الشمس الحارة. في لحظة ما لا بد أن طارق قرر أن يسبح وحيدا. يتذكر سيف أنه استيقظ فجأة، وأبوه نائم إلى جواره، ولا أثر لطارق في أي مكان. كان الشاطئ مهجورا. تطلع إلى الأمواج المتكسرة، ولم ير شيئا إلا الانعكاس الزجاجي للماء. ماذا أيقظه؟ بعد سنين سيتساءل إن كان قد سمع شيئا؛ هل ناداه طارق؟ هل صرخ باسمه قبل أن يُسحب إلى أسفل للمرة الأخيرة؟ «البحر هنا يمكن أن يكون هادئا على نحو مخادع.» هكذا قال قائد شرطة المنطقة لأبيه، بالضبط قبل أن يُخرج الغواص جسد طارق من الماء.

نادرا ما تحدثت أمه معه عن ذلك اليوم. ذات مرة قارنت فقدانها لطارق بقطعة من لحمها قطعتها ببطء سكين ثلثة. في جلاسجو، بعد أن انتقل أبوه للعيش في مكان آخر، كان سيف ينام إلى جوارها لفترة. ذات مرة مد يده ولمس بأطراف أصابعه شاردا ظهرها العاري حيث انزلق قميص نومها. كانت نائمة، لكنها على نحو غريزي تحركت مبتعدة عن لمسته.

كانت تُحضر للبيت رجالا آخرين. رجال كانت تلتقيهم في العمل أو في نادي الكتاب الذي انضمت إليه. كانت تتحاشى الأنماط الإثنية؛ ببشرتهم الزيتونية كبشرتها، وعيونهم السوداء التي تفشل في إخفاء وهج رغباتهم اللافح. ذات مرة ظن أنها تبكي، طرقت على باب حجرة نومها، والرجل الذي خرج كان ملفوفا بملاءة سرير، كرشه الوردي مكشوف، وخصلة صغيرة من الشعر الأشقر المشوب بالحمرة في عظم صدره. قال: «لا بأس يا صغير.» وقالت أمه الجالسة على السرير، بكتفين عاريين، وبطانية تغطي ثدييها: «سيف، كل شيء بخير. اذهب إلى فراشك.»

في أيام الصيف الملتهبة كان الكورنيش المتلوي بطول ساحل الإسكندرية هو المهيمن على ساعاته. كان المشي على امتداده من كامب شيزار إلى سان استيفانو يعني استنشاق هواء برائحة كبريت كريمة، ومشبع بالملح، ومن مكان ما آخر تأتي رائحة الذرة المشوية. كان مندهشا من انطباع الأجنبي الذي كان يتركه. لم يكن يبدو مختلفا بأي حال من الأحوال عن أي عدد من المراهقين الذين كان يراهم كل يوم مرتدين الجينز والتيشرت. في المتحف اليوناني الروماني مع عمر، أرادت السيدة الجالسة في الكشك أن تغرمه رسوما سياحية إضافية، حتى تدخل عمر لصاحبه. والباعة على جانب الطريق بامتداد الكورنيش كانوا يقتربون منه بإنجليزية مكسورة محاولين البيع له. وعندما كان يجيبهم بالعربية كان يرى لمحة من الارتباك تعبر وجوههم، لكنه لم يكن يشعر بأي متعة من وراء إحباط محاولاتهم في التلاعب بالسعر. حتى عمر وسط أي محادثة، كان يتوقف أحيانا ويسأل: «أنت تتابع ما أقول، أليس كذلك؟»

غالبا كان مصابا بقلق ممض، خاصةً عندما يتعلق الأمر بالتفاعل مع الغرباء. كان يُدكر نفسه بأنه وُلد هنا، مثله مثل أجيال من عائلته من قبله. كانت تلك مدينته وبها منطقة ما زالت تحمل اسم عائلته. لكن مهما حاول جاهدا، كان كل هذا التاريخ يبدو وكأن لا علاقة له به. كان ليفضل مكانا أقل غموضا؛ إما أن يكون ابن بلد أو سائحا. أما هذا المكان العالق في المنتصف فقد ترك به حنيننا غائما.

هناك مقهى صغير في الطابق الأول من فندق سيسل. نوافذه العريضة تتيح رؤية الكورنيش والبحر. كان المقهى مكيف الهواء واختار هو وعمر مائدة قرب النوافذ الكبيرة. طلب عمر قهوة ومخبوزات. "بالنسبة لي، كان أكبر خطأ على الإطلاق هو الرحيل.. " قال عمر وهو يسحب نفساً من سيجارة. "لم العيش في الخارج، وحيداً، بعيداً عن العائلة؟ زائد أنهم يكرهون العرب في إنجلترا. أقصد إن كانا متلهفين إلى هذا الحد على الهجرة، فلماذا لا تكون أمريكا؟"

"وهل كان هذا ليشكل أي فارق؟ خاصة الآن؟"

"لا بأس. لكن لماذا ذلك البلد الغائم الرطب؟ هذا ليس بالمكان الذي يشكل بداية."

فيما بعد ذهباً للسباحة في شاطئ على مسافة قصيرة بالسيارة عبر الكورنيش. سبح عمر أمامه. كان الجو غائماً ومن بعيد تدرجت رؤوس الأمواج بذوَاباتها البيضاء على خيط رفيع من السماء. هذا الشعور بسماء واطئة تتداعى، ذكر سيف بصورة التَّقَطُّت قبل سنين بعد قليل من وصولهم إلى جلاسجو. كان ذلك في الشتاء، وكان هو في حقل خالٍ إلى جانبه كانت أمه. كانا كلاهما ملتقين بمعطفين ثقيلين، وفي نور الشمس الضعيف حدقا في الكاميرا بتعبيرات جوفاء على وجهيهما. لا بد أنه كان أباه على الناحية الأخرى من الكاميرا، يلتقط صورتهما. لا بد أنه قال «ابتسما» لرفيقي السفر هذين المذهولين، وثمة أثر من يأس في صوته، وما كان مألوفاً ذات يوم صار يبتعد منجرفاً عن بؤرة الصورة.

جفل سيف من تحول مفاجئ في التيار. نادى عمر الذي التقت ولوّح إليه. للحظة رأى نفسه؛ هيكلاً وحيد يرتجف في دوامة البحر المفتوح. أزدبت المياه من حوله كدوامات صغيرة تجذبه إلى داخل مجرتها الخاصة المنفصلة. اعترته موجة من الذعر، وبدأ في السباحة عائداً، شاقاً المساحات الرمادية، ساعياً نحو الشاطئ.

أقامت عمته حفلاً على شرف عودته. جاءت العائلة بأكملها. أشخاص لم يرههم منذ الطفولة، وجوه لم يكن يتذكرها إلا على نحو غامض، وأسماء نسيها. أصبح نكتةً ذلك الغياب للذاكرة. «ما اسمي؟» هكذا كان يسأله واحد من الأعمام كيفما اتفق. «لا بد أن تتذكرني! كنت أحملك على كتفي في البحر. وكنا عندما نصل إلى عمق كبير تبدأ في البكاء!» كانت عمته قد أعدت وليمة، رصتها على مائدة الطعام بطريقة احتفالية، وفي المنتصف تورتة مكتوب عليها بالإنجليزية بهجاء خاطئ: «Wellcom Home».

"لم تسعده قط." كانت عمته قد قالت هذا عن أمه خلال واحدة من محادثاتها في وقت متأخر من الليل. قدمت له ساندوتشات جبن بالخيار وشايا ثقيلاً معداً على نار هادئة فوق موقد غازي. جلسا يأكلان على مائدة مبقعة في مطبخها الصغير.

"كنت ضد هذا الزواج من البداية. امرأة أنانية. هي في الأصل ابنة وحيدة. وقد جعلها ذلك على حالها ذلك. لا شيء يرضيها أبداً. بعد وفاة أخيك تقدمنا جميعاً، تجمعننا معاً كما ينبغي لعائلة. لكن كل ما كان بمقدورها الحديث عنه هو مغادرة مصر. كانت تكرهها. قالت إنها لا تستطيع تحمل العيش هنا لحظة

أخرى. كان بحاجة لعائلته في وقت كهذا. ولم تكن لديها أي عائلة تستحق الذكر، لذا لم يكن هناك ما تهتم به. لكن أبائك كان بحاجة لأن يكون محاطا بعائلته وليس ضائعا في بلد أجنبي، وحيدا. والآن انظر إلى حالهما. على أي حال ينبغي لك أن تبقى هنا. لست بحاجة إلى الرجوع. ابق هنا على الأقل حتى يحل الاثنان الموضوع. يمكنك مشاركة عمر حجرته. سأحدث إلى أبيك.»

قال لعمته: «عمر يعتقد أنه كان ينبغي أن نذهب إلى أمريكا. وأنا أفكر لم لا. ربما للدراسة في الكلية. أعرف أحدهم في المدرسة الداخلية والذي انتهى به الأمر في جامعة في أوكلاهوما.»
«أوكلاهوما!» هتفت عمته. «لم أسمع قط بهذا المكان. بحق الله ولماذا لا تذهب إلى القمر بالمرّة؟»

في جلاسجو، قبل أن ينتقل أبوه للعيش بعيدا، استيقظ سيف على ضجة خارج حجرته. كان هذا في منتصف الليل. وقف أبوه بالبيجامة في حجرة المعيشة، وقبضتاه مطبقتان بإحكام فوق أذنيه.

قال أبوه بصوت عال: «لا أستطيع أن أسمع، لا أستطيع أن أسمع شيئا.»
كانت أمه هناك أيضا بقميص نومها. كانت تتحدث بهدوء محاولة أن تجذب يدي أبيه إلى أسفل.
«ليس خطأك..» قالت، جاذبة أصابعه برفق بعيدا عن أذنيه.

قال: «لم أسمع شيئا. لم أسمعه قط. أقسم على ذلك.»

قالت: «أعرف. أعرف.» لمست وجهه وبدا أن شيئا ما في صوتها أو لمستها يمتص الطاقة منه. بدأ ينشج بالبكاء وأمسكت هي به، ممسدة على ظهره، هامسة إليه. عندئذ رأت سيف وحاولت أن تبتسم، ثم قالت: «رأى أبوك حلما سيئا. هذا كل شيء.»

المرأة المسؤولة عن التنظيف التي ناولته الجثة المقطعة الأوصال كانت تنتظره في نفس المكان عندما أعاد الأوكياس. نظرت إليه باستغراب وقالت: «أتحدث العربية؟»

تردد سيف للحظة وأجابها: «بالتأكيد.»

قالت: «قل لصديقك ما زالت هناك خمسة جنيات ناقصة.»

أوما سيف برأسه.

تساءلت: «أنت لست مصرياً، أليس كذلك؟»

«بلى أنا مصري بالطبع.» قال سيف محاولاً ألا يبدو في موقف دفاعي. شعر أن الأعضاء البشرية الملتقة بالفورمالديهايد ثقيلة في يديه. كانت تسحبه بثقلها إلى أسفل. وأراد أن يتخلص منها على نحو عاجل.

قالت بارتياح: «لا أعرف! تبدو خوافة. ربما يوناني أو إيطالي. كنت فيما مضى أعمل لدى واحدة

من هذه العائلات، تعرف؟" أخذت الأكياس من سيف. "خمسة جنيهات أخرى.. " قالت قبل أن تغلق باب المعمل.

"أعطيتها ما اتفقنا عليه.. " قال عمر بعد أن أخبره سيف بطلب سيده التنظيف. "سأتعامل معها. هل قالت شيئاً آخر؟"

"قالت إني أبدو أجنبياً."

تساءل عمر: «أنت لم تبدأ بالحديث، أليس كذلك؟ لست بحاجة لأن تعرف عني أكثر مما هو ضروري إطلاقاً.»

قال سيف: «لا، ناولتها الأكياس فقط.»

قال عمر: «ينبغي أن تهتم بشؤونها فقط. حسنٌ، سترحل أنت في النهاية على أي حال. لا يهم. لن يقتفوا أثرنا أبداً.»

"ليست هناك فرصة."

قال عمر: «ستختفي في أمريكا تلك المفتوحة على اتساعها..»

قال سيف: «بلا أثر.»

الإسكندرية التي تضيع منك

وُلدا في نفس المدينة القديمة. كطبيب شاب يتدرب تحت إشراف سليم، وُلدت هذه الرابطة إحساسا بالمحسوبة كان جوزيف في غنى عنه. سليم متقاعد الآن، ويقسم وقته بين سان فرانسيسكو والإسكندرية. بدأ الليلة مسترخيا، أنيقا في قميصه المنشئ وبنطاله وسترته الخفيفة. كان ما زال رجلا وسيما. طويل وزيتوني البشرة له شعر مجعد قصير وأنف صقر بارز؛ والانتفاخ المحتوم المحيط بوسطه لا ينتقص كثيرا من بنيته المثيرة للإعجاب. كان في الثالثة والسبعين من عمره، لكنه لم يبدو أكبر من الستين طالما أن تمييز التفاصيل كان صعبا في ضوء المطعم الخافت.

عندما سأله جوزيف عن صحته، مال سليم إلى الوراء متتهدا وقال: «رايحة في داهية! للبروستاتا مملكتها الصغيرة الخاصة، وقد فقد الانتصاب معركته منذ فترة، وأمعائي تطلق أصواتا عشوائية كعازف ترومبيت مجنون.» كان مطعما مزدحما، وصوته أعلى من حذره، كما أكدت نظرة حادة من السيدة الجالسة إلى الطاولة المجاورة لهما. في سره، ألقى جوزيف باللوم على كأس السكوتش بالتلج، وكأس النبيذ الذي أعقبه، والشخصية الصاخبة، وسماعات أذن سليم.

«كيف حال الإسكندرية؟» تساءل جوزيف محاولا أن يُبعد الحديث عن التدهور السريع الظاهر لأعضاء سليم الداخلية.

«الإسكندرية عاهرة مسنة متداعية.» قال سليم ومسح فتات الخبز من زاوية فمه، وأخذ رشفة من نبيذ كابرنيه في كأسه. لغته الإنجليزية الزاهية المعتادة، ما زال أثر من لكنة يفضحها. «إنها بالوعة مفتوحة، وعشوائية مزدحمة أسنة. لقد كادت الإسكندرية تختفي في مزبلة التاريخ. بالطبع أقول هذا فقط بكل الحب لهذا المكان البائس. في النهاية، أنا مثلك، ابن بلد.»

أجابه جوزيف: «لديك عادة نسيان أنني رحلت وأنا طفل صغير جدا.»

«وماذا يهم في هذا؟» أجابه سليم بتلويحة رافضة من كف سميحة. لطالما اندهش جوزيف من مقدار ضخامة يديه، وكم كانتا رشيقتين في الجراحة.

قال جوزيف: «أتذكر على نحو غامض مدينة جميلة.» كان ماضيا يبدو دائما أكثر حقيقية في وجود سليم.

«إذا كان جمالها هو ما تفتقده، فدعني أحررك من الوهم... لا شيء منه هناك. الكورنيش يطل على شاطئ مكس بالزبالة، وفي الصيف يكون مزدحما إلى درجة أنك بالكاد يمكنك السير. البحر أكثر ثلوثا من أن تسبح فيه، والشواطئ تقوح بالنماتة في القبط. الفنادق الصيفية تتداعى وبحاجة إلى الترميم - هذا إذا أمكنك أن تميزها وسط حشد البناء الحقير الطافح على كل شبر خالٍ من الأرض.»

اندهش جوزيف من شدة ازدراء سليم. لم يذهب هناك إلا عاما واحدا؛ وعودته عودة اختيارية. تساءل جوزيف: «لمماذا تبقى إذا؟ لديك مكان هنا. هذا بلدك. لم أتمكن قط من تخيل انتقال كهذا. كنت لأفقد الاتجاه.»

«وأنت هنا تجده. عضو في أقلية إثنية تحظى بحب كبير.» مال سليم إلى الوراء في مقعده وصوته

موشى بالسخرية. ثم رفع ذراعيه عاليا وقال مبتسما: "لقد أز عجتك".

هز جوزيف كتفيه وقال: «كان موقفي مختلفا.» قاطع النادل حديثهما بالمقبلات. سلمون أطلنطي فوق طبقة من الأرز والخضروات من أجل جوزيف. وضع مشوي نصف شواء مع بطاطس مقلية من أجل سليم.

ضحك سليم. ثم قال: «والداك لم يعلماك العربية قط وغيرا اسمك بشكل مناسب من يوسف إلى جوزيف.»

«حسنٌ، حاول والداي. الأمر فقط أنه لم يبدُ هناك أي جدوى.»

قال سليم: «لكن الآن تغير كل شيء.»

قال جوزيف: «أحيانا يبدو الأمر على هذا النحو. وفاة والديّ. انتقال أختي إلى تكساس. 11 سبتمبر.»

قال سليم وهو يهز إصبعه: «حتى الاسم ذو الوجود الأمريكي لن يساعدك.»

«زرت أختي في الكريسماس الماضي في مدينة إل باسو. أنت تعرف أننا كنا دائما قريبين أحدا من الآخر، وأنها تلقّت خبر وفاة والديّ بصعوبة شديدة. لذا كان من المريح أن أرى كم بدت الآن راضية مع زوجها وابنتها الرضيعة. من فنائهم الخلفي استطعت رؤية المكسيك. لم أذهب قط إلى المكسيك من قبل، ولذا ذات يوم في نزوة، استعرت سيارتهما وعبرت الحدود إلى مدينة خواريز. قضيت هناك بضع ساعات فقط قبل أن أعود. عند الحدود طلب مني تقديم إثبات مواطنة. أسافر دائما بجواز سفري الآن، لذلك قدمته إلى الضابط. قال إنني لا بد أن أمر عبر إدارة الهجرة.»

قال سليم: «أنت مواطن.»

«قيل لي إن مكان مولدي هو مصر. إن هذا مكتوب في جواز سفري الأمريكي. أخذوا بصمات أصابعي وقاموا بتصويري. سألوا عن طولي ووزني ولون عينيّ. أعطيتهم كل المعلومات التي أرادوها. لم أكن قد ارتكبت أي خطأ، لكنني أعترف أنني كنت متوترا. وضعوا اسمي في قاعدة بيانات ما. ظلت أفكر في قصص الأشخاص الذين اختفوا. بلا محام. بلا قدرة على الوصول إلى أي معلومات ضدك. كانوا جميعا مهذبين جدا، لكن مع ذلك أفقدني هذا أعصابي. لأسابيع بعد ذلك ظلت أتوقع زيارة من مكتب التحقيقات الفيدرالي. فيما بعد عرفت أن قاعدة البيانات تلك هي فقط للأشخاص القادمين من قائمة بلدان معينة ويكونون زائرين للولايات المتحدة.»

قهقهه سليم: «إذا فأنت الآن زائر. هل اتصلت بمحام؟»

«لا. كنت فقط لأضع نفسي عرضة لمزيد من الانتباه غير المرغوب.»

قال سليم: «كان ينبغي أن تكتب خطابا، تقدم شكوى، تفعل شيئا. أنت طبيب في موقع متميز وله حمايته. أي شخص آخر قد لا يكون في موقفك.»

هز جوزيف كتفيه. «على أي حال، فات الوقت الآن.»

قال سليم: «أحيانا أفكر في أنني لم يكن ينبغي قط أن أهاجر إلى هنا.»

«كانت لديك فرصة للدراسة في أمريكا. انتهزتها وأبليت بلاء حسنا.»

قال سليم: «نعم، لكن هناك دائما ثمن تدفعه. لهذا كانت معرفتك هامة جدا بالنسبة إليّ.» ثم أضاف بلمحة من التباهي: «أنت البقية الباقية من نزوحي.»

قال جوزيف مبتسما: «يالك من شاعر!»

أجاب سليم ساخرا: «ياله من عبء عليك أن تحمله!»

في بداية صداقتهما كان يقتبس لجوزيف أمثالا عربية بلا نهاية، مشرّحا معناها، ومتتبعا أصلها من الفصحى إلى العامية. كان والد سليم قبطيا وأمه يهودية، لكنه كان يستطيع أن يتلو على جوزيف -المسلم الأبوين- مقاطع طويلة من القرآن بإحساس حقيقي ويسر.

«في الحقيقة، تطلب الأمر مني الكثير كي أغادر مصر.» قالها سليم وهو يقطع الضلع المشوي في طبقه. «وأكثر بكثير من فرصة تعليمية كي تبقيني بعيدا كل هذه السنين.» صمت للحظة ثم قال: «كانت هناك امرأة تركتها ورائي. فعل عنيف معين غير كل شيء. في النهاية كنت جبانا. هناك أشياء لم أشارك تفاصيلها. ستنتقص من الشكل الذي أود أن أرى نفسي به. الشكل الذي أود أن تراني به.»

قال جوزيف: «كنت متزوجا قبل أن تأتي إلى هنا؟»

«لا. كما تعلم، لقد تزوجت مرة واحدة فقط زيجة بائسة، وحصلت على الطلاق السعيد مرة واحدة.» قال سليم. «هذا الموقف كان مختلفا. كنت طبيبا مقيما في كلية الطب في الإسكندرية عندما قابلتها. كانت متزوجة من ابن عم بعيد لي. رجل ثري غليظ القلب اسمه مروان. قد يقول البعض، وهم مخطئون في ذلك، أنني استغللت وضعا سيئا.»

قال جوزيف: «أمر خطير بالتأكيد، خاصة في تلك الأيام.»

بدا سليم مستمتعا بطريقة غامضة. «كانت الإسكندرية مكانا غريبا وقتها. من ناحية، مدينة مصرية لكنها مأهولة بالأوروبيين الذين تمسكوا، بإصرار عنيد، بصورة للعرب كخدم وبوابين.» مد سليم يده وملا كأس جوزيف بالنبيذ. «كان مروان مصريا مثلي، لكنه في نقطة ما تعود لأجيال عديدة مضت زعم وجود أصل أوروبي ما. ولسوء الحظ كان يصر كلما أمكن على الحديث بإنجليزية مشوهة مع قليل من الفرنسية البائسة. كان رجلا مثيرا للشفقة، وكانت هي بائسة بالطبع.»

تساءل جوزيف: «من كانت هي؟»

«كان اسمها ليلي. أمها كانت يونانية، وأبوها مصري. أعتقد أنها كانت مقبولة ومرحب بها بمودة كافية من الجانب المصري، لكنها وأمها تعرضتا للإهانة غالبا من الجانب الآخر. كانتا دائما في ضائقة مالية، ولم يكن الأمر سهلا بالنسبة لهما.»

«لذا تزوجت من ذلك الرجل الثري المزعج، ابن عمك.»

«ابن عمي من بعيد. بالكاد من العائلة. كنت أراهما أحيانا معا في التجمعات العائلية في المصيف في المنذرة.» أخذ سليم رشفة أخرى من النبيذ. «أنت تعرف المنذرة، أليس كذلك؟»

قال جوزيف: «بلى، وأنا صبي، كان أبي يقضي إجازاته هناك. كان لأسرته بيت على الكورنيش.»
«لا يمكن التعرف عليه الآن. لقد تحولت المنطقة تماما. استغرق الأمر مني ساعات كي أعثر على بيتنا القديم - وهو الآن عمارة من خمسة طوابق. هناك قابلت ليلي لأول مرة.»
«كم كان عمرك؟» تساءل جوزيف، متخيلا للحظة نسخة من سليم أصغر بكثير.

«كنت في الخامسة والعشرين. وكانت هي أكبر مني بضع سنوات. ربما كان هذا جزءا من الانجذاب. كانت ستبدأ في تحضير دبلومة في التاريخ المصري. أذكر أن مروان لم يكن سعيدا. كانا قد تزوجا للتو، وأبدى تعليقا مالي عن كيف أنها تبدو أكثر اهتماما بالموتى من اهتمامها بالأحياء. رددت عليه بأنه بناء على الصحبة قد لا يكون هذا اختيارا سيئا.» قهقهه سليم. «ظننت أنني أظهر مهارتي في المزاح. لكن بعد ذلك أعتقد أنه كان دائما يرمقني بقدر معين من الارتياح كلما تعلق الأمر بزوجه.»

أضاف جوزيف: «وكان محقا في هذا.»

«لا. ليس في البداية. كان الأمر بريئا تماما في البداية. كان هناك انجذاب فعلا، لكنني أعرف بالتأكيد أن أيا منا لم يكن بمقدوره تخيل ما ستسير عليه الأحداث.»

صمت سليم. أطل جوزيف من النافذة على حياة الليل الصاخبة في شارع بوست ستريت. من حيث جلسا كان يملك منظور عين طائر لميدان يونيون سكوير. هذه المنطقة من سان فرانسيسكو بشوارعها الرئيسية المتلاقية حول حديقة مركزية، وأشجار النخيل المرقشة والوارفة الخضرة في ضوء المساء، كانت تثير دائما شيئا مألوفا لدى جوزيف؛ ذكرى غامضة لكنها عنيدة لمكان آخر. محطة الرمل في وسط الإسكندرية، هكذا أعلنها سليم ردا على وصف جوزيف. فندق سيسل. فندق متروبول. مقهى تريانون. كلها في نصف دائرة تطل على ميدان سعد زغلول. نفس الشعور بالتطويق والاكتمال. لا شك في ذلك كما أصر. كان مصرا على رأيه وسط موافقة جوزيف المترددة.

قال سليم: «كما ترى بدأ كل شيء بمناقشة حول مكان دفن الإسكندر الأكبر بالضبط. أتذكر الأمسية. كنا نشرب القهوة في الشرفة المطلة على الشاطئ. كانت ليلي هناك، وكذلك زوجها وبعض الأقارب والضيوف الآخرين. زعم أحدهم، ولا أذكر من كان، أنه لو كانت مقبرة الإسكندر - كما تقول الأسطورة - بالقرب من شارع رشيد القديم المسمى الآن بشارع فؤاد، لاكتشفت منذ زمن بعيد. وأن جثمانه في الحقيقة نُقل عن طريق النيل إلى ممفيس ودُفن هناك.»

«أظن أن ليلي لم توافق على هذا الكلام.»

«بشدة. كانت لديها نظرية قائمة على الطريقة التي أعيد بناء الإسكندرية بها عبر القرون. حيث تستقر أطلال حضارة ما فوق سالفاتها. لا أتذكر التفاصيل، لكنها كانت واثقة من أن مقبرة الإسكندر موجودة في شارع فؤاد. كانت متحمسة بشدة حيال هذه النقطة. في الحقيقة كانت قد خرجت قليلا عن أعصابها. في العادة كانت أكثر تحكما فيها. لكن كانت تلك هي الليلة التي لفتت فيها انتباهي.»

قال جوزيف: «كانت لديها وجهة نظر معقولة. البطالمة والعرب، الأتراك والبريطانيون. تقبع

الإسكندرية الحديثة فوق كل هذا. ولو كانت هناك مقبرة، فمن الصعب إن لم يكن من المستحيل العثور عليها.»

«كانت متمكنة من جغرافية الإسكندرية القديمة، وكانت واثقة من أن المقبرة موجودة في أول طريق رئيسي جرى شقه في المدينة - طريق رشيد. قالت إن الطريق اصطفت على جانبيه فيما مضى أعمدة رخامية. في العصر البطلمي كان يفتح على (بوابة الشمس). أعترف بأنني لم يكن لديّ إلا اهتمام هامشي بمقبرة الإسكندر. بأمانة شديدة لم يكن لديّ أدنى اهتمام بالمكان الذي دُفن فيه ذلك الوغد المقدوني القديم. لكن الإنصات إليها وهي تصد المتكلمين، وتعاني من تعبير الضجر الساخر على وجه ذلك الأحمق زوجها، وتُحول التاريخ البعيد إلى شيء شخصي جدا؛ جعلني أشعر بموجة من المشاعر المندفعة. كانت مؤلمة بدنيا. لقد أخذت تماما بها. ورغم أنني رأيتها عدة مرات من قبل، إلا أنها بدت لي فجأة تلك الليلة كأجمل امرأة رأيتها في حياتي.»

زحف تعبير متأمل فوق وجه سليم. وأخيرا قال: «لا بأس. هذا ما حدث. أنت بمثابة ابن لي، وأنا بحاجة لأن تفهم.»

دفع جوزيف طبقه جانبا واستقر في مقعده. حمل النادل الأطباق وصب القهوة. فيما مضى كانا قد ناقشا خطط سليم في قضاء جزء من فترة تقاعده على الأقل في الإسكندرية. لكن كان هناك إلحاح من أجل هذا الحديث لم يستبته جوزيف من قبل، وكان سليم الآن بعد أن عاد بالفعل، يمكنه أخيرا أن يريح نفسه من جمل قديم.

قال سليم: «قرب نهاية تلك السهرة لحقت بها وحدها لفترة قصيرة. مازحتها بشأن فكرة القيام بعمل تنقيبي بحثا عن المقبرة؛ وسألتها أي بائع مسكين في الشارع أو دار سينما كانت تستهدفهما؟ ضحكت وعرضت أن تريني. قالت مازحة سأقابلك هناك. وقتها لم يكن لك أن تخرج هكذا مع امرأة على الملأ. صحيح أنها كانت أوروبية من جانب وكان هذا يعطيها حرية أكبر، لكن ليست كثيرة، كما أنها كانت بالطبع متزوجة. قد يبدو الأمر سخيًا -فكرة بعيدة المنال- لكن طوال اليوم التالي أو نحو ذلك رسخ في ذهني أن بيننا هذا التقاهم. هل تتذكر الحقائق الموجودة في مدخل شارع فؤاد، تلك التي تضم بقايا الأسوار العربية القديمة للمدينة؟»

لم يتذكرها جوزيف، لكنه أوما برأسه على أي حال.

«كنت أحضر كتابا، وأجلس على دكة خارج حدائق الشلالات. من هناك كان يمكنني رؤية شارع أبو قير إلى يساري حيث كانت جامعتي، وإلى يميني وبامتداد أبعد، كان مدخل شارع فؤاد. لم أكن أعرف ماذا أريد منها، لم أكن قد تبينت الأمور على ذلك النحو. كنت أعرف على وجه التقريب أي موعد ستغادر فيه الجامعة، وهكذا انغرس في مكاني وانتظرت.»

فعلت ذلك لأيام عديدة، وأنا أتفحص بإلحاح الناس العابرين بالحديقة. كنت على وشك أن أقنع نفسي بخيبة مساعي، عندما لمحتها تعبر الشارع وتأتي نحوي. شككت في أنها كانت تراقبني طوال هذا الوقت، والآن فقط سمحت بالكشف عن نفسها. وفتت أمامي. بدت أشبه بالهة في غبشة العصر المنقوعة في الشمس. شرعت في الوقوف وتحيتها، لكنها رفعت يدها بحدة. لذا بقيت حيث كنت. تجاوزتني ودخلت الحديقة، ووقف عندما أصبحت على مسافة بعض الشيء التفتت وراءها نحوي،

وتبعتها.

سرنا إلى محيط الحدائق المعزول، صاعدين قبالة أسوار المدينة القديمة مباشرة. قالت: 'في زمن ما كانت الإسكندرية تنتهي هنا. لا شيء غير البحر وراء تلك الأسوار.'

قلت: 'لم أكن لأعرف.'

قالت: 'هذه المدينة شغفي.' وخطت إلى داخل كوة شكلها تقارب الأسوار. كان تيار المرور الذي لا يهدأ على مبعده أقدام قليلة منا. 'رأيتك تنتظر هناك بالأمس وبعد ذلك اليوم. لماذا؟'

'اهتمامك بهذه المدينة. ربما هي عدوى.'

'لا. ياليتها كانت. هو غالبا ببساطة اهتمام عابر.' وتوقفت قليلا ثم أضافت فجأة: 'هل كنت تعرف أن هناك سر اديب موتى بأسفلنا؟ منذ سنوات سقطت عروس شابة عبر فتحة إلى داخل متاهة من سراييب الموتى. انزلت من بين ذراعي زوجها. ولم يُعثر عليها قط.'

'إلى أسفل هناك مع صديقك: الإسكندر.'

'هناك أقدار أسوأ.'

'من أخبرك بهذه القصة؟'

'أمي، كنت طفلة، لكنها ظلت معي. هناك شيء ما في الاختفاء بهذه الطريقة. السقوط في أطلال متداعية. أعتقد أنه كان إنذارا.'

'بماذا؟'

هزت ليلي كتفيها وقالت: 'ينبغي أن نمضي الآن قبل أن يلاحظنا أحد.' ثم أضافت وكأنها تهدئني: 'كامب شيزار الخميس القادم الساعة الثانية بعد الظهر. مشروع بحثي.' راقبتها وهي تعبر الحديقة، ثم تتعطف إلى شارع أبو قير وتغيب عن الأنظار.

في اليوم الذي حددناه للقاء، في المنطقة المعروفة باسم كامب شيزار، جلست خارج مقهى صغير وراقبتها. كانت تخطر بتقائنية وسط باعة الشارع في السوق المكشوف. وبين الحين والآخر تتوقف كي تتفحص قطعة ثياب أو حلّي وتساوم التاجر. وبين الحين والآخر تلقي بنظرة سريعة في اتجاهي. وعند نقطة ما توقفت قرب فاترينة قريبة من حيث كنت جالسا، وكان بمقدورنا تبادل بضع كلمات.

قالت: 'هل كنت تعرف أن مارك أنطونيو ارتمى هنا على سيفه وقتل نفسه.'

'هنا تماما؟'

'نعم.'

'لماذا؟'

'لأنه فقد كل شيء. المرأة التي أحبها. والمدينة التي أحبها.'

قلت: 'كنت لأفعل مثله.'

أجابتنني: 'أتفعل الآن؟'

تبعتها كظلها في الإسكندرية كلها. إلى حدائق المنتزه، عبر أطلال المقابر البطلمية في الشاطبي، وإلى السلسلة حيث قام قصر كليوباترا ذات يوم. ليلى ومعها كراسة تنشيء فرضية دائمة التحول لتبرير رحلاتها القصيرة، وأنا أتبعها من بعيد وأنجذب إليها على نحو متزايد. كنا نسير منفصلين، لكن تحت أنظار أحدنا الآخر، حول عمود السواري. في لحظة ما التقطت صورة لجمع من السياح قرب العمود. كنت في الصورة بالكاد- في محيط المجموعة السياحية. قلت لها إنها تراوغ القدر. أجابتنني: 'نعم.' عند قايتباي سرت في أثرها وهي تتمشى عبر حجرات تلك القلعة القديمة وكراستها في يدها، ثم وهي تصعد السلالم إلى المشى على السطح. هناك، وقفنا في طرفين متقابلين وأدركنا نظرا نحو امتداد فيروزى من البحر والأفق المناسب. أتصور أننا شعرنا بنفس الشعور في تلك اللحظة - الشعور بأننا نتجول مخاطرين بالقرب من حافة هاوية.»

توقف سليم ونظر إلى جوزيف. «أنت لم تقل كلمة واحدة.»

قال جوزيف: «كنت أنصت.»

قال سليم: «كل هذه الأماكن. هي تاريخك أيضا.»

«هي عالم أعرفه بالكاد.»

قال سليم: «لا يمكنك الهروب من ماضيك بكل هذه السهولة.» وتتهد ثم أضاف: «أحيانا تُظهر نقصا فادحا في الخيال، الرومانسي أو غيره.»

«كيف هذا؟» قال جوزيف، محاولا ألا يبدو في موقف دفاعي.

«ربما فيما بعد، لكن دعني أكمل..» أجابه سليم مع حركة سريعة من راسغه. «جاءت ليلى مع زوجها إلى واحدة من تجمعاتنا الصيفية الأخيرة، وحافظت على مسافتي منها. كان مروان يحوم حولها طوال المساء. أتذكر ذلك بوضوح كبير. بدا لأول مرة ضائعا كلية فيها، إلى حد فناء الذات. كان هناك شيء ما فيه تلك الأمسية اقترب من الجنون.»

كان قد أصبح معروفا أنني ربما أغادر مصر إلى الولايات المتحدة. وفي لحظة ما على العشاء كان هذا هو الموضوع الرئيسي للحديث. ليلى، التي لم تكن قد قالت لي كلمة واحدة حتى ذلك الوقت، تدخلت فجأة في الحديث: 'لا بد أنه من الصعب عليك أن تقرر هذا. كل هؤلاء الناس الذين سنتركهم خلفك.' قالتها وكأنها لا تعني شيئا بالنسبة لها أكثر من ملحوظة مهذبة.

'من يدري؟ ربما سيقدمنا سليم إلى زوجته الأمريكية.' قالها مروان مع نخرة غبية، وبمصاحبة بعض الضحك المتناثر.

تجاهلتنني ليلى لبقية العشاء. تفرق الضيوف في أرجاء البيت. جلس أغلبهم باسترخاء في الشرفة

المطللة على الشاطئ، يرتشفون الشاي ويدخنون السجائر. لاحظت غياب ليلي ومروان عن الأنظار، وهذا ما دفعني إلى التمشية في الحدائق المشذبة بأناقة والتي كانت تزين بيت الشاطئ. رأيتهما في عودتي وهما يظهران فجأة من مدخل مظلم أسفل السلام. قالت ليلي: 'أهلا سليم.' وقد بدت عليها الدهشة.

لاحقا، قرب الغروب، سرنا جميعا إلى الشاطئ للسباحة مرة أخيرة. فجأة شعرت برعشة برد وبقيت على الشاطئ بينما جرى بقية الضيوف دون تردد نحو الماء. راقبت ليلي من الشاطئ، وجسدها هيكل مظلم أمام الشمس الغاربة. سبحت بعيدا عن المجموعة وتتبعتها بعيني. لاحقا فقط لاحظت أن مروان كان ينظر إلي. للحظة قصيرة التقت عيوننا، بعدها لوححت إليه بشكل عفوي وسرت عائدا إلى البيت. غادرت مبكرا بحجة أنني لا أشعر أنني بخير.

بعد بضعة أيام رأيتها مع مروان وراء نافذة مطعم. كان الوقت متأخرا. وكنت قد غادرت المستشفى للتو وأبحث عن مكان أكل فيه. كانا جالسين إلى طاولة في زاوية منغمسين في حديث خاص على وهج الشموع. لا شيء كنت أعرفه عن علاقتهما غير الطريقة التي بدت عليها في تلك اللحظة. وأنا أراقبهما، شعرت وكأنني محتال، تفضحني وتؤنبنني حميميتهما الظاهرة. كان ينبغي أن يكون هذا نهاية الأمر. كان يمكن أن أغادر إلى أمريكا، وألا أنظر ورائي أبدا. لكني كنت قد سقطت في حبها على نحو بانس، وبلا أمل. بالرغم مني بدأت أرسم خططا مختلفة، خالقا إغواء أصبح من المستحيل مقاومته.»

أتى النادل بحسابهما ومد سليم يده بسرعة نحوه. عرض جوزيف أن يدفع، لكن سليم سخر من الفكرة وأسكته بإشارة من يده ثم قال: «وفر مالك، وتعال زرني في الإسكندرية.»

غادرا المطعم وتمشيا عبر شارع بوست ستريت نحو ميدان يونيون سكوير. كان الضوء ما زال يغمر الخارج، لكن رعشة برد زحفت إلى هواء آخر الصيف. تجولا عبر ميدان يونيون سكوير قبل أن يجلسا على دكة حديقة تطل على فندق سانت فرانسيس. أشعل سليم سيجارة وقدم إلى جوزيف واحدة رفضها. فقال سليم ضاحكا: «ولد صالح. أنت بالقطع تليق بأن تكون وسط أهل سان فرانسيسكو الجميلين.»

قال جوزيف: «أكمل قصتك.»

«كانت هناك تلك الكبائن في الجانب الغربي من الإسكندرية، مصفوفة في قوس ينحني حول بضع مئات من الiardات من الشاطئ. في الصيف كان يمكن استئجارها لمدة يوم. وكنت قد فعلت هذا في مناسبات عديدة، وأصبحت معتادا على المنطقة بشكل مريح، كانت بعيدة عن الطريق بعض الشيء، لكنها ما زالت قريبة إلى درجة كافية من وسط المدينة بما يجعل وقت الرحلة إليها معقولا للقيام بسباحة مسائية. وقتها، في موسم الإغلاق، كانت موصدة ومهجورة. وكنت قد أقمت علاقة ودية مع المسؤول عنها - رجل عجوز كان يعيش هناك على مدار العام- عندما انزلق حفيده في الصيف الأسبق على صخرة وجرح قدمه. أخذت الولد إلى عيادة قريبة، ودفعت ثمن إسعافه. لم ينس الرجل العجوز هذه الخدمة قط، لذا عندما فاتحته في أمر مفتاح واحدة من الكبائن مقابل مبلغ صغير من المال، كان سعيدا واستجاب متكتما. وهناك كنا أنا وليلي نقضي لحظتنا المسروقة معا.

كانت الكابينة التي اخترتها هي الأقرب إلى الماء، عند الطرف البعيد من القوس، وأبعد ما تكون عن الكورنيش. كان مكانا بسيطا - حمّام، ومساحة جلوس صغيرة بها زوج من الكراسي الخوص، وسرّاحة بمرآة متشققة، وأريكة. وفي جانب منها مطبخ صغير. كانت الأرضية من بلاط رخيص والجدران من الخرسانة العارية. كان هذا في آخر الخريف، حيث الجو دافئ بما يكفي لأن تأخذ راحتك، لكنه أيضا بارد بعض الشيء على أن يجذب عددا كبيرا من المستحمين.

كانت دائما رابطة الجأش أكثر مني فيما يتعلق بلقاءاتنا السرية، لكن عندما ذكرت لها أمر الكابينة، تراجعت على الفور، وقالت بحدة: 'ينبغي أن نستمر كما نحن، أليس هذا كافيا؟ أن نكون معا هكذا.' ولشهور استمر هذا. كان هذا ما أعيش لأجله كل أسبوع. لكني أيضا كنت أتخيلنا هناك على حافة الماء، في طرف قصي من المدينة. التحرر من كل شيء. لم يكن هناك مكان آخر آمن كهذا. عبرت عن هذه الأفكار لها. وأعتقد أنها ارتعبت من الحماسة التي انتابتني.

استغرق الأمر منها وقتا كي توافق على مقابلاتي هناك. وما زال يدهشني أنها وافقت. بإمكانك تخيل النتائج. التدايعيات الممكنة. لم يبدُ قط أن هناك احتمالا بأن تكون واقعة في حبي أيضا، ولسبب ما ظل هذا احتمالا بعيد المنال في عقلي. ربما بسبب تحفظها، حسبت بحماقة أن هناك آلية ما أخرى تقسر السبب في انجذابها إليّ. وأنه بالنسبة إليها كانت هجرتي المحتملة صمام أمان طبيعي.

تمكنا فقط من قضاء فترات قصيرة معا؛ ساعة أو اثنتان بحد أقصى. عشت في خوف من التغيير غير المتوقع في الخطط. وحيدا في الكابينة، متحرقا وقلقا دون طريقة للاتصال بها، وكل حفيف للرياح على الممشى في الخارج يجعلني أفف منتصبا كقضيب حديدي، منتظرا دقتها المترددة على الباب التي كانت إشارة لوصولها. أسوأ شيء كانت تلك المرات التي فشلت فيها في القوم. لكن مهما كان أثر الألم الذي يسكنني، كان حضورها يجرفه بعيدا. كان دخولها إلى تلك الكابينة الصغيرة شديدة الرطوبة قادرا على تحويل كل شيء بطريقة لم يكن لأي شيء آخر في حياتي أن يفعلها. كان مكاننا السري. عالمنا المحرم. كانت تجلب معها رائحة البحر، وجلدها بارد من الريح بالخارج، وصوت الأمواج خلفها كرسالة خلاص؛ تسلمها الأرض والسماء إليّ. كنت صغيرا. هكذا شعرت. من فضلك، عليك أن تتذكر هذا.

كنت أيضا بلا خبرة، وكانت تضحك بسهولة من محاولاتي المتلثمة في ممارسة الحب.

'دائما متعجل هكذا.. ' قالت ضاحكة، وهي تنزلق من تحتي.

'متى كانت آخر مرة معه؟'

قالت: 'لا ينبغي أن تسأل في هذا.'

'أود أن أعرف.'

'لماذا؟'

'إنه حقي.'

'أنت على حق! يا سليم أحيانا أتساءل لماذا أنا معك.'

‘لماذا أنت معي؟’

ابتعدت عني ببطء، تحررت من ذراعيّ. راقبتها وهي تسير عارية عبر الحجرة وتجلس متكورة في مقعد. تدلى شعرها بحرية فوق وجهها، ولمع على ثدييها العاريين خيط واهن من العرق من أثر ممارستنا للحب.

قالت: ‘لا تجعل الأمر أكثر تعقيدا مما هو بحاجة لأن يكون.’

سألت متhekما: ‘إلى أي حد يمكنه أن يكون أكثر تعقيدا؟’

قالت: ‘ربما صرت أعتقد أنني ببساطة ابنة أُمي. هل تعرف أنها كانت متزوجة قبل أن تقابل أبي؟ رجل يوناني من نفس البلدة الصغيرة جنوب أثينا. عاشا في مصر منذ كانا طفلين، لكنهما ربما كانا يعرفان كلمتين بالعربية فيما بينهما. تعاليا فوق كل هذا؛ المجتمع المصري كله هناك لخدمتهما. لم تكن أسهل شخص يمكن العيش معه. كانت لديهما مشاكل. على أي حال، تركها، وبعد بضع سنوات تزوجت أبي. عولمت كامرأة ساقطة بعد الطلاق، ولذا كان الزواج من عربي هو انتقامها.’

‘وأنتِ تبعت خطاها؟’

ضحكت. ‘لا، كنت دائما ابنة بلد. لكني ارتكبت خطأ مشابها؛ الزواج من الرجل الخطأ لكل الأسباب الخطأ. والآن أنا حبيسة. كل شيء ناقص - نصف زواج، نصف مواطنة، نصفي ساقط في هذا العالم والنصف الآخر في ماضٍ ما منسي. أنت مجرد راحة. هروب من كل هذا.’

قلت: ‘لا أصدق هذا.’

‘آه، لا..’ ونهضت من مقعدها. ‘ماذا تصدق؟’ ركعت أمامي، وأنفاسها الدافئة تلمح بطني، وشفاتها تلمساني.

‘أريد أن أصدق أنك واقعة في حبي.’

ضحكت، واعتصرتني بقبضتها حتى ألمتني. ‘أنت طبيب..’ تمتمت. ‘أنت بحاجة للمساعدة يا طبيب.’

كانت هناك أيام أذهب فيها إلى الكابينة فقط لأستعيد وجودها. لأرى إن كان ما زال يمكنني، في ذلك الهواء المعبق بالبحر، أن ألتقط أو هي نفحة من عطرها. وأحيانا، رغم البرودة البالغة، كنت أسير إلى الشاطئ وأغطس في البحر المزبد، محاطا بالماء، طافيا داخل الحياة وداخل أكثر آمال الخلاص غموضا.

قلت مرة: ‘ينبغي أن تأتي معي إلى أمريكا.’

‘لا أريد الذهاب إلى أمريكا.’

‘يمكننا أن نكون معا.’

‘هل هذا شيء جيد؟’

‘سنكون بعيدين عن كل هذا. كل هذه المشاكل.’

‘ستكون هناك مشاكل أخرى. على أي حال، أنت تدهشني كنموذج للباحث عن المشاكل.’

‘ماذا كنت لتجعلينا نفعل؟’

‘ما نفعله.’

‘إلى الأبد؟’

‘نعم.’

بعد ممارسة الحب تمددت على الأريكة الضيقة التي تقاسمناها للتو وراقبتها وهي تسير عبر الحجرة إلى السراحة الصغيرة. جلست مولية ظهرها العاري إليّ، مشطت شعرها، ووضعت طبقة جديدة من أحمر الشفاه. أحيانا كانت تلمحني محدقا فيها عبر المرأة المكسورة. وكانت دائما تضحك من هذا. قالت: ‘لست متأكدة أيهما تستمتع به أكثر: الفعل أم المشاهدة.’

‘لقد أصبحت أكثر غيرة من الاستمتاع بأيهما.’

جلست على حافة الأريكة وقالت: ‘هو أكثر حبا لنفسه من أن يثير غيرتك. على أي حال، هو ليس سيئا تماما. لديّ استقلالية أكثر من أغلب الأخريات.’

‘بفضل دمه الأوروبي طبعاً.’

‘هل كنت لتمنحني أقل من هذا؟’

‘حسبما يكون.’

قالت: ‘ونعم الرجال المتنورون!’

حين أتطلع إلى الوراء الآن، أدرك كم كان العالم الذي عشنا فيه ضيقا. لكن مع الوقت صرنا أكثر ارتياحا مع حدوده، ومع قدرتنا الخاصة على الهروب من الاكتشاف. كنا غير حريصين، وكان الاكتشاف حتميا. تناولنا الطعام بضع مرات في مطاعم صغيرة على أطراف المدينة. وتمشينا معا مرة على شاطئ مهجور. لكن إلى يومنا هذا لست متأكدا من وشى بنا. كانت هذه التفاصيل الصغيرة ذات أهمية قصوى بالنسبة لي وقتها؛ كل شيء آخر ينهار.

لم أقلق إلى حد كبير ذات يوم عندما لم تظهر في موعدنا في الكابينة. كما قلت، حدث هذا من قبل، تغير غير متوقع في الخطط. لكن غيابها مرة أخرى في الأسبوع التالي لم يعد شيئا يمكنني تفسيره.

كانت المشكلة أنني لا أملك طريقة شرعية للاتصال بها. تسكعت حول مكان لقائنا الأول قرب شارع فواد. لكنها لم تأت قط. سرت قرب قسمها في الجامعة، في ممرات عشوائية، لكنني لم أرها قط. حاولت توجيه أسئلة ماكرة إلى معارف مشتركين، لكنها لم تكن على صلة وثيقة بأي شخص أعرفه، ولم يكن من غير المعتاد أنهم لم يسمعوا عنها.

كنت أزداد يأسا. لم أستطع تصديق أنها قد تقطع كل شيء دون إنذار، ولا تقوم بأي جهد للاتصال بي. تخيلت كل أنواع الأشياء؛ أنها وجدنتي فجأة غيبا بشكل يثير الشفقة، أنها أشعلت جذوة حبها لزوجها

من جديد، أنها حتى قد ارتبطت برجل آخر. في النهاية، وعبر لقاء بالصدفة مع صديق من أيام البيت الصيفي، اكتشفت أنها قد تركت مروان، وانتقلت للعيش مع أمها. لم تكن هناك أي تفاصيل أخرى. لم أكن واثقا فِيم أفكر. كان جزء مني منتشيا. انفصال تام. يمكننا أن نكون معا الآن إلى الأبد. لكنني بعد ذلك كنت أشعر أيضا بعدم الارتياح، مشغول البال بنذير شر مستمر.

في النهاية، قررت أن أبحث عنها. أخذت الترام إلى الحي المتداعي في الإسكندرية حيث كانت تعيش أمها لسنوات، وحيث قضت ليلي طفولتها. كانت تمطر، والشوارع المتربة تتحول إلى أنهار من الماء وإلى أخاديد مفتوحة الأفواه. كانت السماء ملبدة، وبرودة شتاء البحر المتوسط المطير تتخر عظامي. كان بيت أمها شقة في الطابق الأرضي في نهاية زقاق ضيق. وثمة امرأة عجوز لها شعر أشيب ملموم في كعكة كانت تراقبني من نافذة مفتوحة.

«أنا هنا لأرى ليلي.» قلت وذكرت لها اسمي.

اتسعت عيناها، وبعد ذلك مالت من النافذة وبدأت تسبني: «وغدا!» صاحت. «أنت وغد قدر!»
قبل أن أتمكن من تمالك نفسي، أغلقت النافذة وأنزلت الستائر.

طرقت على الباب لكنني لم أتلق ردا. ناديت على ليلي لكن أحدا لم يأت إلى النافذة. أدركت أنني كنت أثير فضيحة، وأني جذبت انتباه قلة من المارة. لكنني لم أبال. كنت واثقا أن شيئا فظيحا قد حدث. ظللت أصرخ باسمها، حتى سمعت صوت ليلي من خلف الباب المغلق.

‘سليم. لا بأس. كل شيء بخير. ينبغي أن تذهب الآن.’

‘أريد أن أراك.’ توصلت، ووجهي منضغط على الخشب الخشن للباب الأمامي.

‘ليس الآن.’

‘متى إذاً!.’

‘لا أعرف.’

‘لن يجدي هذا.’

صمتت للحظة، وهكذا بدأت في الطرق بقوة على الباب.

‘خلال بضعة أسابيع. سأكتب لك خطابا. أعدك.’

‘ماذا حدث يا ليلي؟’

‘سأكتب لك خطابا وأرتب الأمور. سأراك في خلال بضعة أسابيع. عليك أن تذهب الآن. من فضلك.’

أخبرتني ذات مرة أنها مع نشأتها في تلك المنطقة المتداعية في الإسكندرية إلا أنها تتذكر بالفعل طفولة سعيدة. حتى الآن كانت تحس بارتباط بمتاهة الشوارع والأزقة المتربة، وصيحات الأطفال في اللعب، ونداءات الباعة في الشارع بجبالهم من الفواكه والخضروات وبضائعهم المضروبة. كل هذا بمثابة هجوم مستمر على الحواس كانت الوحدة تغدو أمامه أكثر صعوبة، واليأس مثل الرائحة

اللاذعة من البالوعات المفتوحة في مقابل روائح الطبخ المنبعثة- على الأقل مسألة إدراك في جزء منه. حاولت أن أتصورها في جمع من الفتيات الصغيرات في حوش مدرسة، أو تسير عائدة إلى البيت ذات ظهيرة، شعرها مربوط على هيئة ذيل حصان، وحقبتها المدرسية تتأرجح بدعة إلى جانبها. لكن الصورة كانت تخيب دائما؛ فليلي التي اعتدت على معرفتها أوضح بطريقة ما من أن تختفي بسهولة في نشاز الأصوات والأضواء.

خلال تلك الأسابيع القليلة التي انتظرت فيها خطابها، بدا كل شيء يلتئم ويفترق في نفس الوقت. في البداية كان هناك إحساس بأقصى اضطراب في التوازن، وكأن أي حدث يمكنه أن يقلب موازين مسار حياتي إلى دوامة مهلكة. ستكون معي، وسنغادر إلى أمريكا ونبدأ حياة جديدة معا. أو سأكون وحيدا، مرفوضا منها وراحلا عن المكان الوحيد في العالم الذي أعرفه حق المعرفة. تقلبت جيئة وذهابا بلا رحمة بين هذين القطبين. لكن قرب هذا الوقت أيضا تلقيت الإخطار الرسمي بأني قد قبلت في منحة بحثية بكلية للطب قرب سان فرانسيسكو، وأصبح هذا هو الثقل الذي كنت في أشد الحاجة إليه. قرأت كل شيء أمكنني العثور عليه عن المدينة. اكتشفت حقول كرمها وشواطئها. تخيلت جسر جولدن جيت، والخطوط المناسبة لجبل ماونت تامالبيس، وألكاتراز في الظلال، وميدان جيرارديلي متوهجا في الأضواء، وشارع لومبارد يتلوى كتعبان. تطلعت إلى صور من الزلزال الكبير، وقضيت لحظة متوترة متسائلا بقلق متى سيضرب الزلزال التالي. لم أكن قد غادرت مصر من قبل قط وكل ما كنت أعرفه بالفعل كانت الإسكندرية، لكن في ذهني حاولت أن أجعل هذا المكان في الطرف الآخر من العالم وطني الجديد. وفي النهاية بدا كوطن -مدينة مدهونة بالجير الأبيض على الماء، بوابة لعالم جديد، منقوعة في نور الشمس الدافئ، رغم اعترافي بأني لم أكن محقا تماما في تلك النقطة الأخيرة. في النهاية، أقتعت نفسي أنه من المقدر لي أنا وليلي أن نصل إلى هنا. أننا سنخرج متحررين من الأطلال المحطمة لحياتينا في مدينة عتيقة، إلى شيء فسيح وجديد. سرعان ما أصبحت واثقا من هذا، وعندما تلقيت أخيرا خطابها الذي حدد بالتفصيل الموعد والمكان الذي سنلتقي فيه، كنت بحاجة فقط إلى الفرصة لوصف هذه الرؤيا لها وجعلها تتضم إلي.

كان الخطاب نفسه مختصرا ومحددا. كتبت أن مروان اكتشف خيانتها. طالب بأن يعرف هوية عشيقها، لكنها رفضت أن تخبره حتى بعد أن استشاط غضبا. تركت البيت وفي النهاية انتقلت للعيش مع أمها. كتبت أنه بعد ما فعله بها، لن يجرؤ على الاقتراب منها مرة أخرى. كان هذا السطر، بالإضافة إلى إيجاز ونبرة الخطاب ما ولد في البداية قدرا ما من القلق من جانبي. لكن كما قلت، كنت عندئذ ممثلنا بالحماس نحو الحياة التي سننتشركها، وأي كانت المخاوف العابرة التي خطرت على بالي فإنها تبددت سريعا.

طلبت مني أن أقابلها في مكان يدعى راس التين، في مطعم صغير على الشاطئ كنا قد اكتشفناه سويا. كانت بقعة منعزلة. كان المطعم، الذي يتردد عليه بالأساس الأهالي، مكانا رثا، لكن كانت له باحة في الهواء الطلق تؤدي مباشرة إلى حافة الماء، حيث وضعت بضع طاولات للأكل.

كنت لم أرها منذ ثلاثة شهور تقريبا. ولم تكن راس التين وقتها أكثر من قرية صيد ناعسة، في أقصى الطرف الغربي من الإسكندرية. أنزلتني سيارة الأجرة على مبعدة بضع مربعات سكنية من المطعم. كان هذا الطلب من جانبي أثرا من زمننا في التحايل والمناورة، بقدر ما كان أيضا رغبة في لملمة

أفكاري وتهدئة نفسي في هدأة الليل المحيطة. ما زلت أذكر المسيرة القصيرة قاطعا الشوارع المتربة، وأعمدة الإنارة القليلة التي كانت تلقي بالظلال، والسماء بظلامها الدامس. بين لحظة وأخرى كنت أسمع صرخة طفل، أو عواء كلاب يقطع صمت الليل. غريباً كم يمكن لهذه اللحظات أن تبقى في ذهنك، وكأنك تعرف بالفعل أنك ستضطر إلى تذكر هذا؛ وكأن المستقبل يلح بقلبه الوشيك لحظة كان يمكن أن تكون عادية.

كانت تجلس وحدها في الباحة. ورغم أنها كانت تجلس إلى طاولة على الحافة الخافتة لبركة من الضوء، إلا أنني ميزت صورتها الجانبية على الفور، والطريقة التي كانت تحافظ بها على اعتدالها. قلت: 'ليلي!' لكنها لم تنهض لتحسيني. التفت وجهها نصف النقطة في اتجاهي. وعندما اندفعت إلى جانبها رفعت ذراعها، لا لتحضنني، بل لتبقي مسافة بيننا. لا يمكنني البدء في وصف كيف كان شعوري في تلك اللحظة؛ كل شيء ينهار متحطماً، وأسوأ المخاوف تتحقق. كانت ترتدي معطف مطر أسود وترتدي نظارة شمسية، وهو ما بدا لي شيئاً سخيفاً. بدا أن جسدها بأكمله ينكص متراجعا عني. قلت: 'ما الخطب يا ليلي؟'

طلبت مني أن أجلس. كانت قد رتبت مكان المقعد الباقي بحيث أجد مكاني على مسافة منها. سألتني: 'كيف كانت أحوالك؟'

أذكر أنني بدأت أضحك. 'كيف تعتقدين أنني كنت؟ لماذا تتصرفين على هذا النحو؟' عندئذ بدا أن جسدها بأكمله يتداعى. قفزت ناهضاً وحاولت أن أدير وجهها إليّ. 'ماذا فعل بك؟'

تراجعت برأسها قبل أن تتطلع إليّ أخيراً. سألتني: 'أتريد أن ترى؟' كان وجهها قد بدا فجأة في ضوء القمر، في ومضة الضوء الذي تراقص منعكسا من الماء. 'تريد فعلاً أن ترى؟' حتى قبل أن تطلع نظارتها تمكنت من رؤية الندبة. حمراء. رفيعة. غاضبة. تمتد أسفل وجنتها إلى زاوية فمها المنحوت بجمال.

صرخت باكيا: 'أه يا ليلي! يا ليلاي الجميلة.' خرجت الكلمات مني في شهقات قصيرة مروعة. ثم خلعت النظارة السوداء، ورأيت عينا مفقودة، لحم مشوه مغلق قسراً.

سقطت على ركبتيّ أمامها. احتضنت ساقها ونهنت كطفل. وربتت على رأسي. هدأتني. «

مال سليم إلى الخلف ومد ساقه أمامه. ثبتت عيناه على عينيّ جوزيف وكأنه يحاول أن يقرأ أي أفكار ربما تعبر بهما مندفة. قال سليم: «انتهى كل شيء بسرعة إلى حد ما. توسلت إليها كي تجيء معي إلى أمريكا. لكنها كانت مقتنعة بأن حياتها انتهت. قالت إنها دُمرت، وأنها فقط ستسحبني إلى أسفل. وكلما زدت في توسلي إليها، كلما ازداد يقينها بأن رد فعلي نابع فقط من الشعور بالذنب أو الشفقة. أصبح الأمر جحيماً خالصاً. أردت الخروج من الإسكندرية. الخروج من مصر. كنت يائساً، غارقاً في ذلك الواقع الناقص لحم سيء، مجاهداً كي أخرج إلى السطح وأستنشق الهواء.»

قال جوزيف: «لكني لا يمكنني تخيل أنها أرادت البقاء في الإسكندرية؟»

«لم تكن لديها أي خطط. لقد تحطم كل شيء بالنسبة لها. كانت دائما تشعر أنها مهمشة، لكن الآن صار مستقبلها في الإسكندرية لا يمكن تصوره. أما بالنسبة لي، فقد ظللت أفكر في سان فرانسيسكو. كان بمقدوري أن أشم رائحة المكان. جدّته. نسيم مطهر سيغسلني تماما. وهنا كنا في ذلك الكابوس؛ عالمان من المستحيل التوفيق بينهما. بعد فترة كان كل ما أريده هو الهروب. ربما أحست بهذا. لا يمكنني تخيل أنها فعلت. لكن ربما.»

تجهم سليم. «عليك أن تصدقني..» أضافها بسرعة وصوته مشحون بالعاطفة. «أردت أن تكون معي. طلبت منها مائة مرة. لم يكن هناك شيء أكثر من ذلك يمكنني أن أفعله. أنا واثق من هذا.»

«وهكذا جئت إلى سان فرانسيسكو.»

أخذ نفسا عميقا وأوما برأسه. «نعم. وحيدا. سقطت داخل عالمي الجديد. بشكل منقطع في البداية، لكن بعد ذلك ومع الوقت سقطت تماما. ومع ذلك هناك حادثان أخلا بتوازي. موت أمي بعد عام تقريبا من وصولي. وبعد ذلك بثلاث سنوات، رسالة من ليلي. لم يكن لدي أي اتصال بها. لفترة كنت أكتب لها لكنها لم ترد قط. كتبت لتبلغني بأنها ستغادر مصر وتنتقل إلى أثينا؛ كان لها ابن عم يعيش هناك وعرض عليها مكانا لتقيم فيه. تركت لي عنوانا في أثينا حيث يمكنني الوصول إليها. وتمنت أن أكون بخير.»

تساءل جوزيف: «هل اتصلت بها؟»

«لا. كانت هناك مرات كثيرة أردت فيها أن أفعل ذلك. كنت أحلم بالطيران إليها. والظهور فجأة عند بابها. لكنني كنت خائفا، ومع كل شهر يمر كان الماضي يبدو أقل واقعية بالنسبة لي. كنت بحاجة إليه على هذا النحو. ساعدني ذلك على البقاء حيا.»

دعك سليم عينيه. كان ميدان يونيون سكوير خاليا. مرقت بضع سيارات مارة بهما في شارع ستوكتون، وثمة ظلال قاتمة على خلفية الهالات الصفراء المنبعثة من واجهات المحلات وأعمدة الإنارة. عامل الاستقبال بزيه الرسمي خارج فندق سانت فرانسيس أدخل نزيلا مترنحا في سيارة أجرة منتظرة.

قال سليم: «بدأت أشعر شعورا مختلفا مع تقديمي في العمر. بدا ماضيّ أشبه كثيرا بزجاج محطم. لذا فكرت أنني بعودتي سأغلق الدائرة الكاملة، وأجعل للأمر كله منطقا. لكنني فقط أخرج ليلا عندما أكون هناك. الأمر مؤلم إلى حد لا يُحتمل في نور الشمس، وكل شيء يتداعى ويتحلل. في الثانية أو الثالثة صباحا، تكون المدينة بأكملها نائمة، وكل ذلك الخراب متوار في الظلام. ولفترة قصيرة، تتبثق الإسكندرية من جديد. صوت الأمواج المتكسرة على حافة شاطئ معتمة أشبه بصدى منبعث. وكأن المدينة العجوز ما زالت تتنفس. يمكنك الشعور بها تتحرك من خلالك. وعندئذ أكون سعيدا بالفعل لأنني هناك.»

بعد ذلك بقليل ودع أحدهما الآخر. كان سليم سيعود إلى الإسكندرية في غضون أيام قليلة، ولن يراه جوزيف مرة أخرى في هذه الرحلة.

قال سليم: «بالرغم من كل شيء لا بد أن تزورني. ربما بالغت في افتراضاتي أكثر من اللازم، لكنك لن تصدق ما آلت إليه الأمور، حتى تلك التي يمكنك أن تتذكرها.»

قاد جوزيف سيارته عبر جسر جولدن جيت، فوق المياه السوداء المتلاطمة لخليج سان فرانسيسكو، مارا بالجرم الهائل المنعزل لألكاتراز. بعد بضع دقائق، ولج المجمع العقاري الذي كان يعيش فيه؛ عنقود من القرميد الإسباني والجص المزخرف، ومساحات العشب المشذب، والشوارع المسيجة بأشجار البلوط والتي تنتهي بأسوار عازلة للصوت تخفي هدير الطرق السريعة. كان الليل قد هبط، المنطقة هادئة دائما لكنها الآن صامتة، تبدو كأنها فضاء متخيل منحوت من العدم. أوقف سيارته في الممر الخاص به، وجلس هناك لفترة، مرثيا بالكاد في الهالة الصفراء لعمود الإنارة.

التابوت

على فراش موت أبي، حدثته أمي عن الله والنبي محمد، وهمست في أذنه بآيات من القرآن. رقد جامدا في السرير، متعاملا معها بإذعان أكبر من أي فترة كنت شاهدا عليها خلال زواجهما الذي امتد أربعة عقود.

أدارت أسطوانات أدعية إسلامية كانت قد اشترتها عبر الإنترنت عندما جرى تشخيصه لأول مرة كمريض بالسرطان، وبعد ذلك جرى شراء بضع أسطوانات أخرى عندما ساءت حالته الصحية، وانسابت النغمات المهيبة من حجرة نومه عبر الطرقة القصيرة إلى داخل حجرة الطعام، متسربة عبر حجرة المعيشة، والمطبخ، والبيت بأكمله، حتى بدا أننا جميعا منسحقون تحت وقارها الجليل.

لم يكن أبي رجلا متدينا بعمق. في نهاية اليوم الثالث بلغ احتمالاه مده على ما يبدو، فأشار إليّ وقال: «لخاطر الله، قل لها هذا يكفي حاليا.»

اعترضت أمي: «لكن يا هشام، إنها كلمات من الكتاب.»

أجابها بهدوء: «رائعة. جليلة. وأنا كتبت كتابين.»

وهو ما كان صحيحا حين يتعلق الأمر بالدقة العددية، لكنه لم يفلح كثيرا في تهدئة هياج أمي الروحي المكتسب حديثا.

رغم أنهما عاشا في نفس البلدة شمالي كاليفورنيا لأكثر من عقد، ولم يحضرا مرة واحدة قط صلاة الجمعة في مسجد، ناهيك عن إثارة التساؤل أصلا عن وجود المسجد المذكور أو اتجاهات الوصول بالسيارة إليه، إلا أن أمي أصرت أنها متيقنة من رغبة أبي في جنازة إسلامية صحيحة.

“يمكنك دائما أن تسأليه..” هكذا اقترحت عندما أصبح واضحا أن في ذهنها اعتقادا بأن من مسؤوليتي اتخاذ جميع الترتيبات.

قالت موبخة: «علي! أي سؤال! هذا واجب علينا. إنه شيء هام. وأيضا ماذا سيقول حبايبنا في الوطن لو فشلنا بهذه الطريقة؟»

كان الوطن يبعد عنا مسافة نصف الكوكب. مصر. مكان تركه أبي بأكمله ليهرب من هؤلاء الحبايب.

تصادف أن يكون أقرب مسجد في بلدة أخرى، وله موقع إلكتروني نشط جدا. على الشاشة، كان الخط العربي يوظف صورة لمسجد مدهون بالجير الأبيض الزاهي وله قبة زرقاء لامعة. وكان مسؤول الاتصال الأساسي هو د. كريم سفير.

اتصلت بالدكتور سفير - وجاء الصوت على الطرف الآخر من الخط أجش بلكنة ثقيلة، متجاوب بطريقة بالغة الاختزال.

“أتصل من أجل التجهيز لموت أبي الوشيك.”

“نعم. الاسم؟”

“اسم أبي أم اسمي؟”

“نعم.”

“هشام. اسم أبي بروفيسور هشام غانم..” ثم أضفت بسرعة تحسبا لأي شيء: “اسمي علي غانم.”
سمعت خبطة باب ينصفق مغلقا، وصوت أقدام ثقيلة، مبتلة ومحتكة بالأرض، على طريق غير ممهد.

“إسبله من فضلك.»

تهجيت اسم أبي. «نود أن نحظى بصلاة جنازة إسلامية. هل يمكنك أن تساعدنا؟»

“إممم.»

فهمتها على أنها نعم. «ماذا ينبغي أن أفعل؟»

“أتصل عندما يموت.”

“أتصل بمن؟”

“بي.”

“أي رقم؟”

“هذا الرقم..» بدا صوته مشددا أكثر بعض الشيء، وكأنه يتحدث إلى شخص بطيء الفهم على نحو لا يُصدق.

“هاتفك الخلوي؟”

“إممم.»

“متى؟”

“عندما يموت.”

“الثانية صباحا. الثالثة صباحا. فقط أتصل بهاتفك الخلوي.”

“إممم.»

“هل تحتاج إلى أي معلومات أخرى؟”

توقف د. سفير قليلا. وتناهى عبر الهاتف ما خلته صوت هواء يُشْفط عبر أسنان مصبوغة بالتبغ.
وأخيرا قال: «العنوان. رقم الهاتف.»

أعطيتهما له. «أي شيء آخر؟»

وقفه أخرى قصيرة. وهذه المرة صوت هواء منفوخ ببطء. «أي دار جنازات سيُدفن بها؟»

زودته بهذه المعلومة كذلك. «لا شيء آخر؟»

“جيد جدا.”

شكرته وأغلقت الهاتف. بعد بضع دقائق رن الهاتف الخلوي. كان د. سفير.

قال: «أسف. ما هي طريقة الدفع؟»

“هل تقبل شيكا؟”

“جيد جدا.”

“إذا كم ستتكلف من أجل كل شيء؟”

“كل شيء؟” “تساءل، وتغيّر نبرة صوته يتخذ تصاعدا سريعا. «كل شيء. الحمل. الغسل. الكفن.

النعش. الصلاة. كل شيء؟” “توقف قليلا. “ستمائة وتسعة وخمسون دولار وتسع سنتات.”

قلت: «رائع..»

“إممم» ثم صمت.

“طيب. شكرا. سأتصل بك عندما يحين الوقت.”

أبي، الابن الأكبر في أسرة من تسعة أبناء، وُلد وتربى في إسكندرية لم يعد يعرفها، وانتَهز أول فرصة استطاع أن يجدها كي يخرج. كان في الخامسة والأربعين، ما زال شابا، وكان ذلك في العام 1979. أستاذ جامعي بدوام ثابت في جامعة كبرى بمصر، قبل وظيفة مؤقتة كمساعد بحث في كلية في مانهاتن الأخرى في السهول الأمريكية العظمى. وبهذا الانتقال استبدل شقة فاخرة في حي راق في الإسكندرية بيدروم مؤجر في شارع لا معالم له بضاحية في كانساس.

“نمزق شبكات العنكبوت يا حنان!” قالها لأمي ردا على تساؤلاتها وشكاواها. رحل إلى أمريكا قبلنا، وانضمنا إليه أنا وأمي وأختي الأكبر سونيا بعد بضعة شهور.

في المطار بمدينة كانساس قفز في مكانه ولوّح لنا متحمسا بينما كنا نسير داخلين البوابة. كان يرتدي معطفا أسود فضفاضا لم أتعرف عليه، وأسفله بدلة رمادية ورابطة عنق، تعرفت عليهما. جرينا جميعا إليه وارتمى فوقنا بالبسمات والأحضان. وانطلق في مونولوج محموم حول كم تحمل هذه اللحظة من وعد عظيم بينما كنا منطلقين بالسيارة عبر أميال من خلاء قاحل متجمد، وبعد ذلك إلى داخل البلدة؛ الثلج الذي لم نكن نعرفه إلا من التليفزيون، ملطخ بالوحل، متكوم عاليا على جانب الطريق. في الخلف جلسنا أنا وأختي ضاغطين وجهينا على الزجاج، متطلعين إلى الشوارع العريضة الممهدة بطريقة لا تشوبها شائبة، قليلة المارة، والأرصفة السليمة، الخالية من ضغط

الحشود المحموم، والكلاب الضالة، والعربات التي تجرها الحمير. جلست أمي بجمود في مقعدها كملكة مخلوعة في طريقها إلى الإعدام، تحرق في نور الشمس البارد الهزيل، وهي تومئ برأسها بطريقة ملطفة بالكاد وغير ملزمة تماما بينما أبي يشير بحماس إلى كل شيء نمر به تقريبا - مساحة صف سيارات مهجورة، صف مرتب من المتاجر جيدة الإضاءة، مكتبة بلدية ساحرة ومشيدة بالطوب الأحمر، مدرسة ابتدائية ظريفة وثمة بركة جميلة أمامها بالخارج.

قال لها: «انظري يا حنان! انظري! نظام! شكل! بناء! خط مستقيم من النقطة أ إلى النقطة ب - ببساطة. وليس من النقطة أ إلى النقطة و، عودة إلى النقطة د، والانتقال إلى النقطة م، ودفع إتاة لبلطجي عند النقطة ل، والهرولة حول معتوه عند النقطة ن، فقط للوصول إلى النقطة ب.»

استمر على هذا المنوال طوال الرحلة، حتى انعطف بالسيارة أخيرا في زقاق مسيح بالأشجار، وتوقف قرب بيت جميل من طابق واحد. انسكب ضوء دافئ من نافذة حجرة المعيشة، التي انزاحت ستائرهما، وبدا وهج مدفأة بالداخل، وتصاعد الدخان من مدخنة بدا أنها تفتت البرد الجامد إلى شذرات من غشاوة ضبابية معتدلة.

خرجت أمي من السيارة، وخطت مترنحة فوق الممشى المكسو ثلجا بحذائها ذي الكعب العالي المنحوت بأناقة ومعطفها الشتوي القصير، ذي الذوق العالي، الأزرق كمياه البحر الأبيض المتوسط؛ نحو الباب الأمامي لما يمكن أنها اعتقدته بيتهما الجديد، ولها العذر في ذلك. في هذه اللحظة قفز أبي خارجا واندفع وراءها، منزلقا في طريقه بين لحظة وأخرى على الجليد، مع ابتسامة كبيرة و «أه-أه-أه»؛ وصوت يشبه قرقرة متوترة، وقادها برفق بدلا من ذلك نحو الناحية الخلفية من البيت، ملوحا لي أنا وسونيا كي نتبعهما. وهو ما فعلناه هابطين مجموعة درجات خرسانية ضيقة إلى مسكننا الحقيقي الجديد الوثير في البدروم، وطوال هذا الوقت كان يشرح بطريقة صبورة أنه لا بد من وجود غاية لكبح المرء، هيكل أساسي من النزاهة، إطار عمل لتحقيق أهداف لها معنى.

وعندما تجمعنا كلنا على سجادة مبقعة مصفرة في مساحة المعيشة المؤقتة، والضوء الواهن لبقايا النهار الشتوي يترشح من نافذة أشبه بشق في الطرف البعيد من جدار، وقف أبي أمامنا بذراعين مفرودين في وضع تراوح بين الترحيب والصلب.

وأعلنها مدوية: «ها نحن ذا! نحن هنا!»

الكلمات الهزيلة والمتبددة، ارتدت واهنة من المقعد الكبير الرث ذي الذراعين في ركن الحجرة، ومن المقاعد المعدنية الأربعة المطوية حول طاولة لعب ورق معدنية، تحولت إلى مائدة طعام، في وسط الحجرة. ها. نحن. هنا.

هتف باقتناع كبير: «ما زال بإمكان شقة في البدروم أن تكون بيتا لطيفا. بيت لطيف جدا جدا.» مال جسده نحونا في شبه توسل، لكن ما عاد في وضعية الصلب. «طيب، طيب!» أضاف ردا على نظراتي أنا وسونيا التي أشحنا بها بعيدا، وعلى نظرة أمي الجامدة. «بالطبع كان يمكننا أن نظل ببساطة في بيتنا الفاخر في الإسكندرية..» وألقى بيديه في الهواء، مؤديا بأصابعه حركة مرفرفة. «وماذا بعد ذلك. وماذا بعد ذلك؟ سأقول لكم ماذا.» قال مجيبا نفسه: «كنا سنعلق في همود التحلل البائس. البطيء والمميت. أو كان بمقدورنا أن نرحل كما فعلت بكل هذه الشجاعة والنبيل والأثرة يا

حنان - وأنت امرأة ذات رؤية عظيمة بالفعل- إلى هذا العالم الجديد من الفرص والتكنولوجيا والعلم والجدارة. ماذا كان يمكن لأي شخص أن يختار في المقام الأخير؟»

خلعت أُمي معطفها، وألقت به فوق واحد من المقاعد المعدنية، والذي مال مترنحا إلى جانب من ثقل الصدمة، قبل أن يعتدل. استدارت ومشت نحو النافذة الضيقة، وباعدت بين أصابعها فوق حافة النافذة المغبرة، متوازنة على أصابع قدميها وهي تطل خارجا نحو الضوء الواهي.

أوصلت أُمي بالسيارة كي ترى المسجد. كانت ظهيرة يوم أحد وانسكبت أشعة شمس كاليفورنيا دافئة على جادة ميشن التي اصطفت على جانبيها أشجار النخيل. بقيت سونيا لتسهر على أبي. جذبت أُمي فتحة سقف سيارتي الفولكس فاجن جيئا، ورفعت وجهها إلى نور الشمس، وتنفست بعمق.

“من كان يظن أن تنتهي رحلته هنا؟” قالت متأملة، وعيناها مغلقتان في وجه النسيم. “كنت حتى لم أسمع قط بكاليفورنيا.”

هناك صورة لها في سيارة مكشوفة أثناء شهر عسلها، في شارع ما بالإسكندرية، صورة جانبية لوجهها. حتى الآن كانت ما زالت امرأة جميلة.

تذكرت كانساس. قلت: «لقد قطعنا طريقا طويلا يا بيبي.» رنت إلي بنظرة خالية من التعبير - كانت التعبيرات الأمريكية ما زالت عصية عليها.

كان المسجد يقع على حافة البلدة. ومتاجر الحي الصغيرة الأقدم، والتي جار عليها الزمان، متناثرة في شارع مليء بالحفر: مجموعة من محلات إصلاح السيارات، مطاعم مكسيكية، محلات سوبر ماركت أفغانية، صيدلية بحروف فارسية مرشوشة على واجهتها الزجاجية. خلف بوابة من الحديد المشغول، تقع على مسافة من الطريق، كان المسجد، وواجهته الخارجية زاهية في نور الشمس. أوقفت السيارة وحاولت مع البوابة لكنها كانت موصدة. فكرت في الاتصال بدكتور سفير كي يقوم معنا بجولة، لكنني قررت ألا أفعل وعدت متقافزا إلى داخل السيارة.

قالت أُمي: «خير؟»

“البوابة موصدة. يجب أن نأتي في منتصف الأسبوع. والأفضل يوم الجمعة.”

قالت أُمي: «يبدو لطيفا بما فيه الكفاية.»

استدرت بالسيارة وبدأت طريق العودة إلى البيت. قلت: «يمكننا المرور على دار الجنازات. يمكنني أن أريك موقع القبر الذي اخترناه.» كنت قد انتقيت الموقع مع (لي)؛ زوج أختي، قبل أسبوع.

قالت: «في القسم المسلم، صحيح؟»

“نعم. في القسم المسلم يا ماما.”

كان القسم المسلم خلف صف من أشجار البلوط، خال في أغلبه، ومن السهل بما فيه الكفاية العثور على قطعة أرض خالية. «هنا..» أشرت بعد أن توقفنا خارج المكتب الأمامي، ومشينا عبر مساحة

صف السيارات بين أشجار البلوط إلى امتداد مُعشِب خارج صف الأشجار تماما.

أومأت أمي برأسها. فحصت شواهد القبور القليلة التي تناثرت على نحو عشوائي في الفضاء المفتوح. تمتت: «الجو هادئ هنا. سيعجبه هذا الهدوء.» ثم بدأت تبكي، وقالت وهي تنشج: «سيكون وحيدا تماما يا علي.»

ضممتها وقلت محتجا: «لا لن يكون. سنزوره طوال الوقت، كل عطلة نهاية أسبوع.» أسفل قدمي كان العشب متناثرا على الأرض السوداء. فكرت في المطر في الشتاء، وقد استحالت الأرض طينا. في الإسكندرية، كانت هناك مقبرة العائلة، والأجساد لا تلتف بشيء غير أكفان بيضاء وتوضع واحدا فوق الآخر في العمق على طبقة مستوية من التراب. قلت: «سأبحث له عن تابوت مدهش.» كان في ذهني تابوت برونزي مزخرف رأيتَه في قاعة العرض الملحقة بدار الجنازات في وقت سابق مع (لي). رائع. محفور بخيوط من ذهب.

توقفت أمي عن البكاء. وهتفت عندما وصفته لها: «تلك ليست طريقتنا يا علي! مافيش تابوت!» مثل اليهود نقوم بالدفن في خلال أربع وعشرين ساعة من الوفاة، الصحراء والتحلل لا يرحمان، ولا شيء ثابت بين الجنان والأرض. من التراب وإلى التراب.

قلت: «إنها أمريكا يا ماما. لا بد أن يكون لديك تابوت. شيء له علاقة بتلوث المياه.» في الحقيقة لم أكن متأكدا تماما مما كنت أجزم به، رغم أنه بدا صحيحا على نحو مبهم.

«إذا صندوق خشبي بسيط يا علي.»

لم أتمكن من الاستقاضة في الحديث وقتها، ولم أحاول، لكنني كنت أعلم أن هذا لم يكن ما أراده. أخيرا قلت: «لن يكون مرتاحا في مجرد شال وصندوق خشبي. سيرغب في شيء آخر.» توقفت قليلا، باحثا بعناء عن الكلمة.

تساءلت: «أنت أم هو يا علي؟»

قلت: «شيء أكثر أمانا.»

قالت أمي: «إنه ليس فرعونا.»

لم يتدهور الحال بأبي طوال الوقت. كان ينهض من الفراش في الخامسة صباحا، يستحم، يخلق ذقنه، يرتدي الخُلل وربطات العنق القادمة من مصر، ثم عندما صارت بوضوح بالية أكثر مما يمكن لارتدائها، أصبح يرتدي تلك المشتراة في الأوكازيونات من المنافذ المحلية. لكن دائما بالقميص المنشي وكولونيا (أولد سبايس). وقبل السادسة صباحا يكون جالسا إلى مكتبه يكتب، مجموعة مدوخة من المعادلات التي لا يمكن فك رموزها -انتقلت مهارته في الرياضيات والعلوم إلى أختي، وتجاوزتني فيما كان بإمكانه فقط أن يصفه بتنافر القوى المغناطيسية المتشابهة- ثم يخرج من الباب قبل الساعة صباحا إلى مقره الصغير دائما، في أحد الوظائف الجامعية المؤقتة دائما.

لحظة الوصول الجلييلة، والسنوات العديدة التي أعقبتها، ستظل نقطة مؤلمة بين والديّ، وبالأخص مع تعثر مسيرة أبي الأكاديمية الأمريكية طوال عقد أو نحو ذلك فوق الصخور الخشنة لوضعه كشخص لا يحمل أوراق هجرة رسمية؛ عاما بعد عام من التأشيرات المؤقتة ووظائف التدريس المؤقتة، وطوابير طويلة أمام مكاتب هجرة لا نهائية في قائمة طويلة من مدن أمريكية مجهولة الهوية.

كان لديه رباط خاص بأختي، حب متبادل للفكر، موهبة متعلقة بالرياضيات والألعاب المنطقية. عندما قررت أن تتزوج أمريكيا، كاثوليكيًا، ناقشا الأمر بتجرد على طاولة مطبخنا الصغيرة في بوسطن. أخرج لوحة ملاحظات صفراء كبيرة، ورسم خطا رأسيًا في المنتصف. في أحد العمودين كانت الإيجابيات، وفي الآخر السلبيات. في جانب الإيجابيات كان (لي) شخصا لطيفا، متعلما (دكتوراه في الهندسة)، سيكون أبا جيدا، وزوجا لائقا. أغلب هذه النقاط رسمت أختي علامة صح إلى جوارها. وعبر هو عن رأيه بعلامة صح إلى جوار علاماتها، وهو ما يعني بوضوح أنهما كانا متفقين حول هذه النقاط. في الجانب السلبي - وهو الذي وضع أغلبه - كانت هناك بنود مثل وضعنا المتقلقل في البلد (الخلفية الدرامية: لا يلوح في الأفق أن أي جامعة ستضمن لنا البطاقة الخضراء)، عدم قابلية الزواج في أمريكا للتنبؤ، عواقب زواج فاشل في حالة اضطرارنا للرجوع إلى مصر، مسائل ثقافية ودينية لا حصر لها، مرة أخرى وضعنا المتقلقل في البلد (الخلفية الدرامية: لا يلوح في الأفق حتى وظيفة ثابتة في كلية)، خسارة فترة تعارف عاطفي أطول، التشتيت عن برنامج دراستها للتخرج، مرة أخيرة وضعنا المتقلقل في البلد (الخلفية الدرامية: ليس من الواضح كم يمكن أن تستمر التأشيرة السنوية لوقت أطول). وضع علامة صح إلى جوار كل نقطة من هذه النقاط، وناول أختي القلم الرصاص، وأشار إلى الورقة. وضعت القلم الرصاص على الطاولة، وأومات برأسها.

قالت: «سأتروجه.»

جلا حلقه، والتقط القلم الرصاص، وشطب على كل واحدة من النقاط السلبية، وأجابها: «لم تعد للنقاط السلبية صلة بالموضوع. لك مباركتي.»

جرى كل شيء بطريقة متحضرة جدا ومنطقية ومبنية على معادلات رياضية. جرى تجنب كلمة الحب بشكل استراتيجي. حاول التواصل على هذا النحو معي في أوقات مختلفة من حياتي، وكانت النتيجة عادة شعورا مذعورا بالحيرة والتساؤل كيف أمكن أصلا أن أكون نطفة خرجت من حقويه. ذات مرة خلال درس رياضيات بسيط وأنا طفل بدالي من غير المفهوم تماما أن 2 زائد 2 و 2 مضروبة في 2 تساوي 4، لكن 3 زائد 3 و 3 مضروبة في 3 لا يساويان 6. تراجع إلى الوراء في جلسته، وعلى وجهه تعبير مذعور بينما أجادل بأن هذا ببساطة ليس صحيحا.

تساءل بشفتين مزومتين: «ماذا تعني بقولك ليس صحيحا؟»

“ليس عادلا. خطأ.”

“ليس عادلا؟ ليس عادلا؟” نهض، والتقط كتاب الرياضيات، وتأمل فيه، وتطلع إليّ، وقد حل محل الذعر الآن شيء آخر، لكنه يساويه تماما في الانزعاج والتنافر. عادت نظرته إلى المسائل الحسابية، وبعد ذلك ببطء شديد أعاد الكتاب على المنضدة وخرج من الحجرة.

وذات مرة، عندما استمنيت لأول مرة وبلغت الذروة، ثم شعرت برغبة ملحة في الاستمناء بقوة في كل فرصة للاهتياج، حتى تورمت من الاحتكاك المستمر، واعترفت له أن شيئاً خاطئاً فظيماً قد جرى، استخدم مرة أخرى مقاربة الورقة والقلم الرصاص. خرجت لوحة الملاحظات ورسم هذه المرة رسماً بيانياً له محوران: س وص، ووضعت السنوات على محور، والتكرار على الآخر، زيادة ثابتة في التكرار، تعني انحداراً حاداً في عمري، مع خطوط منقطة أخرى تشير إلى العواقب المتوقعة إذا لم يكن هذا الانحدار قريباً؛ وتشمل العمى والتأخر العقلي والتثدي.

قلت: «ليس عادلاً.»

أجابني: «نعم بالفعل.»

قضيت الليالي القليلة الأخيرة في السرير إلى جواره. كان ما زال متماسكاً، لكنه يطوف سائحاً في مرامي الوعي الغائمة، ويفيق كل بضع ساعات ليلتفت إليّ ويقول بالعربية: «ياللاً يا علي.» والتي يقصد بها أن مثانته قد امتلأت.

كنت أمسك بالمبولة البلاستيكية بين ساقيه، وأرشده إلى داخل فمها المفتوح وأنتظر حتى يبدأ تدفق البول. عادةً مجرد قطرات، لونها يزداد غمقة مع فشل كليتيه وكبدته. وكل مرة تنتهي بإيماءة سريعة وعبرة: «أشكرك يا علي.»

“ينبغي أن تكون في عملك..” كان يتمم وأنا أمسح قضيبه بقطعة قماش صحية، وأعيده منزلقاً إلى داخل بنطال بيجامته.

قلت: «الساعة الثانية صباحاً يا بابا.»

قال: «العمل يا علي، العمل. لا بد أن نعمل كي نبقى على قيد الحياة.»

قلت: «تمام يا بابا.»

“شيء آخر يا علي.”

“نعم؟”

“لا طقوس عزاء، ولا خُطب.”

“لماذا يا بابا؟”

“عملي يتحدث عن نفسه.”

“تمام.”

“وأيضاً يا علي..”

“نعم.”

“لا أحد غيرنا في الدفن. فاهم.”

“بالتأكيد.”

“نحن فقط يا علي. هؤلاء الذين قاموا بالرحلة حول العالم.”

قلت: «و(لي).»

“نعم. و(لي).”

حدث تدهور مفاجئ في حالته، ازداد معه عدم انتظام تنفسه، ثم توقف حاد وغير مفهوم دون تنفس محسوس. تجمعنا حول فراشه، كمتفرجين واقفين عند المحيط الساكن وراء الدوامة. أمي تتمتم بالدعوات بطريقة محمومة في سرها، وأختي تنتشج بهدوء، ولي يعبث في ساعة يده قلقاً.

عاد تنفس أبي، خشنا ومصحوباً بشخير. أطرق لي واضعاً رأسه بين يديه، ومسّد صدغيه، رفعت أمي رأسها محدقة في السماء، ومسحت أختي دموعها. واحداً واحداً نهضنا، ومشينا متتافلين مرتبكين خارجين من الحجرة، وكانت أمي آخر من غادر، محدقة في وجه أبي، وكأنها تتأكد من علامات الحياة.

في المرة الثالثة التي اقترب فيها من الهاوية، وانحرف بمحاذاة حافتها المسنونة -واندفعنا كلنا مرة أخرى داخلين، حابسين أنفاسنا معه، متنفسين الصعداء مع العودة المفاجئة لحركة صدره، ثم خارجين من الحجرة في طابور واحد- بدأت في الضحك. كنت واثقاً أنه يتلاعب بنا، بالدعوات التي لا تنقطع.

في النهاية، حسنا، فاتتنا النهاية تقريباً. تغير في نغمة تنفسه المخشخش أيقظني وأنا نائم إلى جواره. اندفعت أمي أيضاً إلى داخل الحجرة، فقط فيما بعد أدركت أنني كنت قد ناديتها. اهتز صدره بعنف، ثم اهتز مرة أخرى. استحال جلده الشاحب إلى لون رمادي. والضوء الخافت في عينيه خبا أكثر قليلاً، ثم انطفأ بالكلية. اتصلت بسونيا ولي في البيت. اتصلت أمي بأعز الحبايب في مصر. اتصلت بدكتور سفير.

اخترتُ النعش البرونزي -أفضل نعش ثنائي التحصين ماركة ويلبرت تريون، له درع لامع، برونز وخرسانة عالية التحمل، الجزء الداخلي مبطن بالذهب ويتوهج حتى في ضوء الفلورسنت بقاعة العرض. اخترت أيضاً التابوت الفاخر -48 أوقية من البرونز، المكسو بطبقة من الأبنوس ذي التدرجات اللونية الطبيعية، وباطنه مخمل (أربرتروس مايفيلد). لم تكن لدي أي فكرة عما يعنيه أي من هذا. أعجبنى المنظر، ووقع الكلمات.

“هل هذه أشياء جيدة؟” تساءل لي وهو يقرأ الأوصاف، ويرمق بطاقة السعر.

تساءلت: «جيدة؟»

«أقصد ضرورية.»

قلت: «نعم.»

د. سفير -متوسط الطول، مدكوك البنية، بصدر قوي وخوذة من شعر أسود فاحم- قابلني عند بوابة المسجد. كان يرتدي بنطالا أزرق، أضيق من اللازم بعض الشيء حول الفخذين والخصر، وقميصا أبيض بسيطاً، انطوى كماه ليكشف ذراعين مشعرين.

أشار على نحو مبهم نحو المسجد، وقال فجأة: «نغسله سريعاً.»

سألني من سيساعد في الغسل، قائلاً إنه من الطبيعي أن يكون أحد الأقرباء -ابن عم، عم- وليس ابناً في الغالب.

قلت: «سأكون هناك..» وأنا أدرك أن لي سيعاني من ألم ساحق قاتل لو تطوع لأداء المهمة، وأنه لا أمي ولا أختي سيجري اعتبارهما مناسبتين.

هز رأسه وقال: «سأتي بمساعد من المسجد.»

قلت: «لن يكون هذا ضرورياً.»

هز د. سفير كتفيه، وأخبرني أين أقبله. في الموعد المحدد، قبل صلاة الظهر بقليل، درت منتاقلاً إلى ظهر المسجد، عبر ممر مفروش بالحصى إلى منزل متنقل أبيض وأصفر على مبعده حوالي 30 ياردة. بدا أن المنزل المتنقل وُضع على نحو عشوائي في حقل مفتوح من التراب المتكسر ويقع العشب. وثمة ممشى خشبي انحنى صاعداً إلى الباب الأمامي. حياني د. سفير، في رداء مطاطي وقفاز مطاطي في يد واحدة. تأمل وجودي للحظة، ثم أشار لي بالدخول بإيماءة سريعة من رأسه.

تمدد جثمان أبي على نقالة في منتصف حجرة عارية، وثمة حوض معدني كبير في الجانب البعيد، وانحدار خفيف في الأرضية المكسوة بالبلاط يؤدي إلى البوابة قرب الجدار البعيد. ثمة منشفة بيضاء غطت وسطه. أمسك د. سفير بمنشفة أخرى في يده، وغمسها في دلو معدني، ثم ربت بها على جبهة أبي؛ ماسحاً وجهه بخفة، ثم عنقه. كان يتمتم بسيل ثابت من الأذكار والأدعية وهو يمرر المنشفة على صدر أبي في حركة دائرية، ثم يرفع ذراعه اليسرى أولاً، ويمسح اليد ثم يتابع المسح بطول الذراع، والجلد المترهل، أسفل الإبط، هابطاً إلى الخاصرة اليسرى. تكررت العملية في الجانب الأيمن، ثم هبط إلى الجزء الأسفل من الجسد حتى القدمين. تقاطر الماء من حافة النقالة، مشكلاً جداول صغيرة انسابت نحو البوابة.

قال لي: «نحن بحاجة للمساعدة.»

كنت واقفاً عند الطرف البعيد من الحجرة قرب الباب. تقدمت نحو النقالة، ووضعت يدي على الجلد البارد الرطب لكتفي أبي، الصغيرين بعظامهما النائنة، وتجاويف عميقة في الشقوق الموجودة عند قاعدة رقبته حيث تشكلت برك صغيرة من الماء.

قال سفير لي: «البس رداء أفضل..»

هزرت رأسي. أدت أبي نحوي، وأسندت جسده عليّ، وقد استقر رأسه على صدري، وتخلل البلل قميصي، بينما كان جسده يهتز في استناده عليّ وسفير يغسل ما بين ألواح كتفيه الضيقين، هابطاً إلى ظهره.

قابلت (لي) خارج المدخل المؤدي إلى المسجد. بدا محرجاً ببنتاله الجينز الليفايز المقاوم للتغضن، وقميصه الأزرق ذي الكمين، وحذائه البني الواطئ دون رباط. كان شعره البني المصفر مبلولاً، وممشطاً بدقة إلى جانب. كان واقفاً في نصف الظلال داخل تجويف صغير قرب الباب المقوس للمسجد، محاولاً أن يبدو متوارياً. اندفع نحوي عندما رأني أقترّب.

قال: «أين كنت؟»

أجبته: «أغسل أبي.»

بدا مرتبكاً، وتغضن جبينه بينما ينبش شاردة بثرة على جانب رقبتة. «كنا ننتظرك. سونيا ووالدتك في الداخل بالفعل. في الطابق العلوي.»

تركنا حذائنا على حافة كومة فوضوية من الصنادل والشباشب والأحذية الرياضية عند المدخل المؤدي إلى المصلّى، ووجدنا مساحة خالية في الخلف، وجلسنا القرفصاء على الأرضية المكسوة بالسجاد. كانت قاعة الصلاة ممتلئة، صفوف من الرجال جالسين كتفاً إلى كتف. زينت الكتابة الإسلامية الحوائط الملونة بلون القشدة دون بقعة واحدة، وتدفق نور النهار من نوافذ عالية على جانب القاعة التي كانت تواجه تلال الخليج الشرقي. داخل القاعة كان الهواء خانقاً، مثقلاً برائحة الكولونيا الرخيصة والجوارب المتعرقّة ومعطرات الجسد. ارتقى الإمام بقفطانه الغامق وطاقيته- درجات المنبر المرتفع عند رأس القاعة. وقف للحظة عند قمة المنبر ذي الشكل البرجي متأملاً جماعة المصلين. سعل برفق مرة أو مرتين في الميكروفون، وجلى حلقه.

«السلام عليكم ورحمة الله..» قالها بالعربية في الميكروفون. وترددت أصداً المهمة بالرد عليه من الحشد.

بطرف عيني لاحظت (لي) ينظر إليّ نظرات متكررة. كنا جاثين جنباً إلى جنب مع المصلين، وعندما بدأت الصلاة قام بتقليد حركاتي بينما كنت أقلد هؤلاء المحيطين بي. شعرت بالتعاطف معه - كان الأمر سيغدو أبسط بكثير على دكة في كنيسة. لكنه لم يكن قط بالشخص الشكّاء. وقفنا، وركعنا، وجثونا، ولمست جباهنا الأرض. وطوال الوقت كان (لي) يلوك شفته العلوية، ورأسه نصف مائلة في اتجاهي.

مررنا بهذا الأمر مرة من قبل عندما تزوج أختي. قبل المراسم توضحاً سويًا في ميضأة المسجد. «ماذا أفعل الآن؟» ظل يسألني متوتراً، وشفته العلوية ترتعش ثم تثبت مزومة على التوالي. وعندما وصل إلى الجزء الذي كان عليه فيه أن يتمضمض ويصق ثلاث مرات، كان يُخرج الماء من فمه

متدفقا في تيار مثالي على نحو غريب ينحني إلى أعلى قبل أن يتناثر داخل الحوض.

“كيف تفعل هذا؟” مازحته محاولاً أن أخفف قلقه. كان قد وافق على تغيير دينه لغرض وحيد هو الزواج من سونيا - احتراما للمعتقد الديني، ولأمي، ولأعز الحبايب.

قال: «أسف، لست متأكدا بالفعل.»

في الطابق الثاني من المسجد المطل على قاعة الصلاة الرئيسية، هناك إلى يميني وخلف نافذة مستطيلة شبكية، كان قسم النساء. عدة مرات أثناء الصلاة نظرت إلى أعلى بسرعة في ذلك الاتجاه؛ متسائلا إن كانت أمي وأختي تطلان علينا.

انتهت الصلاة بالتحيات الواجبة لهؤلاء المحيطين بك. صافح (لي) يد الرجل الجالس على الأرض إلى يساره - رجل مسن متهالك إلى جانبه عصا سير خشبية مليئة بالعقد. «أهلا، أنا لي. كيف حالك؟» فأوماً الرجل إليه برأسه صامتا.

سرنا خلف الحشد نحو المدخل. على مبعده بضع أقدام منا، رأيت سفير مع الإمام. قال له بضع كلمات، وبعد ذلك أشار إليّ. عن قرب أكبر تمكنت من رؤية أن الإمام شاب في الثلاثينات من عمره، له لحية سوداء مشدبة بعناية على بشرة شاحبة وله عيان خضراوان. تطلع إليّ الإمام قليلا، ثم التفت عائداً وأوسع خطاه نحو ميكروفون عند قاعدة المنبر. قال شيئا بلغة البشتو بينما كان الحشد يتقاطر أفراداً خارجين من المسجد ملتقطين أحذيتهم قرب المدخل.

تساءل لي: «ماذا قال؟»

أجبت: «لست متأكدا. لم يكن حديثه بالعربية. ربما دعاء أخير.»

تجمعنا كلنا في النور الرمادي خارج المسجد حيث وُضع صندوق من الورق المقوى وجثمان أبي بداخله، مستقرا على نقالة معدنية. رأيت أمي وأختي تخرجان في شرفة صغيرة فوقنا مباشرة، ثم تهبطان درجا مكشوفاً، وتقفان مع حفنة من النساء على مبعده بضع أقدام من جماعة المصلين الذكور الأساسية. غطت أمي وأختي وكل النساء شعورهن بالطرح.

ظهر الإمام فجأة ووقف إلى جوار الصندوق. أمسك بقماش مزخرف في يده وتساءل: «الرأس في أي اتجاه؟»

لم تكن لدي أي فكرة. ولم يكن سفير موجوداً في أي مكان. كان أحد طرفي الصندوق يواجه التلال الخضراء المكتسية بسحب واطئة، والطرف الآخر يواجه مساحة صف السيارات.

“هناك. هذا الطرف.” قلت مشيراً إلى الطرف الأقرب للتلال.

أوماً الإمام برأسه، وغطى بالقماش الطرف الذي كنت قد أشرت إليه، وبدأ الصلاة محنياً رأسه بلغة عربية ذات لكمة ثقيلة، بينما بدأ فوج صغير من الرجال الأفغان يتجمعون حول النعش. رجال بقمصان وسراويل بلون واحد، ووجوه برونزية محفورة، وأيدي خشنة، ما زالت الغربية المحيطة بهم صارخة؛ فهم جميعاً جيل أول من المهاجرين. كان للنزوح نصيب في هذه اللحظة من الصلاة.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم..

وقفنا برؤوس منحنية محاطين بهذا الجمع من الغرباء المتعاطفين الذين كانوا يُصلون معنا من أجل رجل لم يعرفوه قط. وقف السيد العجوز المتهالك الذي كان في قاعة الصلاة إلى جوار (لي). مال جانبا مستندا على عصا سيره، وهو يتطلع بفضول في وجه (لي). ثمّة مراهق يرتدي حذاء رياضيا باليا ماركة نايكي وتيشرتا أسود تمددت على واجهته بحروف حمراء عبارة: «Hard Rock Café»، انحشر بيننا، ورفع يدا إلى شفتيه، ثم لمس النعش بأطراف أصابعه.

بعد لحظات انفض جمع الرجال من حولنا، متفرقين في أنحاء الساحة.

سرت نحو أمي وأختي، وإلى جانبي (لي).

قالت أختي: «استطعنا رؤيتكما بالأسفل من مصلانا. يا لي المسكين! بدوت غريبا عن المكان تماما.»

قال (لي) مرة أخرى: «هل هذا كل شيء؟ هل انتهينا؟» وكأنه كان يهبي نفسه لسلسلة طقوس عجيبة صاخبة نسينا أن نوضحها له.

قالت أمي: «انتهى كل شيء.»

كان ما زال علينا أن ننقل بابا إلى دار الجنازات، وننقله من الصندوق الورقي إلى التابوت الجديد. وكان هذا يعني أن عليّ التعامل مع المسألة الشائكة المتعلقة بإبعاد الإمام كي لا يصطحبنا إلى المدفن.

كان الإمام واقفا قرب مدخل المسجد يتحدث مع شخص صارم الهيئة يرتدي قفطانا أبيض وشبشا وله لحية سوداء كثيفة. بدا الإمام شاردا إن لم يكن ضجرا تماما - ومن وقت لآخر يلقي نظرة في اتجاهي، ويومئ برأسه على نحو آلي مؤمنا على كل ما يقوله الرجل ذو القفطان الأبيض.

بحثت حولي عن د. سفير، فقط لأراه يقترب وهو يقود عربة نقل موتى سوداء قديمة جدا ومضعضة تماما. توقف حيث كنا وانزلق خارجا من السيارة.

قلت: «أنا بحاجة لتبادل كلمات قليلة معك.»

أوما برأسه وتقدمته ملتقا حول جانب المسجد إلى مكان منعزل. قلت: «لقد كنت رائعا. وقدمت لنا عونا كبيرا. أعتقد أننا سنكون بخير دون الإمام في المدفن.»

نظر د. سفير إليّ متسائلا.

«نريد أن يكون هذا شأنا خاصا جدا. سنتلو صلواتنا بأنفسنا.»

تساءل سفير: «هل السعر أكبر من اللازم؟»

«السعر؟»

«سعر الإمام مصدق. ثلاثمائة دولار. لو الأمر هكذا، أتحدث إليه. أجعله يخفضه. ربما مجانا.»

ضحكت وقالت: «لا. لا. إطلاقاً. هذا لطف بالغ منك. نحن فقط نريد الأمر خاصاً.»

أوماً د. سفير بطريقة متشككة، ثم أضاف: «التابوت. في أمريكا لا يمكننا الدفن بكفن فقط. لكن لدينا صندوق من الورق المقوى أكبر وألطف.» أشار إلى حيث كان جثمان أبي يرقد في الصندوق المصنوع من الورق المقوى. من التراب إلى التراب.

«لا بأس. لديّ تابوت في دار الجنازات.»

صمت سفير قليلاً، ونظر إليّ بارتياح. «ولماذا دار الجنازات؟ مكلفة جداً. لدينا هنا.»

«لا بأس..» قلت متمنياً أن أكون قد أفلتتُ من موضوع التابوت تماماً. «كل شيء معمول حسابه.» مددت يدي داخل سترتي وأخرجت الشيك الذي كنت قد أعددتَه وسلمته إليه. ثم ملأت بسرعة شيكا آخر بقيمة ثلاثمائة دولار. «أيضاً - تبرع للمسجد.»

أخذ د. سفير الشيك الثاني مني. تفحصه. وأوماً برأسه. «إمم.»

ركبت إلى دار الجنازات في عربة نقل الموتى مع سفير، وجثمان أبي في الخلف. اصطحب (لي) أمي وأختي في سيارته التويوتا كورولا. انطلق سفير بعربة نقل الموتى من بوابات المسجد الحديدية، وانضم إلى حركة المرور المتدفقة. انحرف بحدة عند منعطف طريق وقفزنا في مقاعدنا عندما ارتطمت السيارة بالأسفلت غير المستوي، والأخاديد الضحلة التي تناثرت على وجه الطريق الرئيسي.

التقت إليه وسألته: «أنت طبيب؟»

أوماً برأسه. «هناك في الوطن. كابول. ليس هنا.»

«لماذا ليس هنا؟»

«الامتحانات. صعبة.»

عند الحدائق المشذبة بعناية التي أحاطت بالمشى خارج دار الجنازات، صافحت سفير ونزلت من عربة نقل الموتى. رأيت (لي) وأمي وأختي أمامي يسيرون عبر المدخل الأمامي.

فتح سفير ظهر عربة نقل الموتى. عندما وصلت المدخل رأيتَه واقفاً وحده على الأسفلت الرمادي للمشى، وأمامه النقالة المعدنية وعليها التابوت الورقي. كانت في يده مسبحة لم أكن قد لاحظتها من قبل، وكانت رأسه مطرقة. تحرك فمه بصلاة صامتة. رفع رأسه فجأة والتقت عيوننا. تأمل أحداً الآخر لحظة ثم التفت ودخلت.

تبعنا عائلتي داخل الصالة المفروشة لتضاهي الأجواء المتسامية لفندق فاخر - أرضيات من الرخام، ثريات، مناضد قهوة من خشب الورد. لم تكن هناك رموز دينية في أي مكان، ولا صلبان عليها مسيح دام. تداعى (لي) على مقعد فخم المنظر في ركن هادئ من القاعة. وجلست أمي وأختي بأيدٍ مضمومة على مقعد مزدوج قبالتها، وثمة أباجورة فوق منضدة قهوة تسكب ضوءها الأصفر فوقهما.

سرت إلى المكتب الرئيسي، وأعطيتهم اسمي. بعد بضع دقائق، خرجت امرأة من مكان ما في مكتب خلفي متوار، ووجهها مضبوط على تعبير تعاطف مناسب. كانت ترتدي سترة و تنورة أبيضين بلون أزرق غامق، في مسافة ما بين زي العمل وزي رسمي. على بطاقة اسمها قرأت سوزان رالي. خمنت أنها في منتصف الأربعينات من عمرها، ليست بدينة إلى حد كبير، لها شعر بني كستنائي، مقصوص بطريقة لطيفة، وثمة لمسة خفيفة من الماكياج.

«أسفة جدا على خسارتك..» قالت وهي تصافح يدي اليمنى بيديها الاثنتين.

وقفنا صامتين أمام أحدنا الآخر للحظة، ثم أضافت: «عائلتك؟»

أشرت إلى أمي وسونيا و(لي) الذين كانوا يراقبوننا من مقاعدهم.

قالت: «يمكنني اصطحابكم إلى حجرة العائلات الآن إذا أردتم.»

لوحث إليهم وتبعنا السيدة رالي إلى حجرة هادئة في الناحية الخلفية من دار الجنازات، المزدانة بنفس المفروشات المزخرفة.

عندما تجمعنا هناك قالت: «هناك قهوة وشاي في الخلف.» وأشارت إلى نضد جرائتي عليه صف من التوابل.

عندما صرنا وحدنا، جلسنا لدقائق قليلة نحدق في بعضنا البعض. بدأت تتناوبني أفكار أخرى حول قرار عدم دعوة أي من أصدقائنا أو معارفنا، ألا يكون هناك أحد عند الدفن. الخصوصية طيبة، ورغبته يجب احترامها، لكن هذا كان يقارب العيب.

نهض (لي) وسار نحو مكان القهوة. صب لنفسه فنجانا، قهوة سادة. سار الهوينى عائدا إلى مقعده، وشرع في تناول رشفة، وعندئذ توقف لحظة و الفنجان في منتصف الطريق وكأنه يتأمل إلى أي حد سيبدو قراره مناسباً.

جلست سونيا إلى جوار أمي ممسكة بيديها. كانت أمي تحدق بنظرة خاوية في البلاط أمامها. سرت نحو النضد، وصببت لنفسي فنجانا كذلك. رمقني (لي)، وأنزل القهوة، ثم بعد بضع دقائق عاد من أجل المزيد. كان يشرب أباريق منها يوميا، بلا سكر، بلا قشدة. فسر ذلك بأنها عادة من الغرب الأوسط.

دخلت السيدة رالي وهي تطرقع بحدائنها ذي الكعب العالي. ابتسمت لنا بعدوبة، وبعد ذلك نظرت إليّ. «هل يمكنني الحديث معك قليلاً؟»

«بالتأكيد.»

تبعته إلى داخل قاعة صغيرة خارج الحجرة.

«نحن نعد كل شيء من أجل الدفن.»

قلت: «شكرا لكم.»

«هناك شخص يُدعى د. سفير في الخارج. يريد أن يصاحب جثمان أبيك إلى الداخل. ويبدو مصرا

على ذلك بعض الشيء. يقول شيئاً عن التأكد من أنه لدينا التابوت الصحيح. هل توافق على وجوده هناك عندما ننقل أباك إلى داخل التابوت الجديد؟»

«لا. أفضل ألا يكون موجوداً. من فضلك اشكريه على خدماته. أبلغيه شكرنا على كل شيء وأنه يمكنه المغادرة الآن.»

أومأت السيدة رالي برأسها. «صديق للعائلة؟»

«لا. ليس بالفعل. هو فقط متعاون أكثر من اللازم.»

قالت: «أرى ذلك. شيء آخر. لأننا ننقل أباك من تابوت إلى آخر، هل تمنع في إعادة التعرف على هويته؟ بعد الانتقال، أقصد. إنه القانون.»

قالت سونيا: «أين ستذهب الآن؟»

أجبتها: «سأخرج فقط لاستنشاق بعض الهواء النقي.»

قالت ساخرة: «لقد وصلنا هنا للتوّ. ألا تعتقد أننا ينبغي على الأقل أن نكون معاً؟»

قلت: «سأخذ لحظة واحدة فقط.»

كان في التابوت، جثمانه مغطى بنفس الشال الأبيض الذي لفته د. سفير حوله بعد الغسل، وتحيط به فرشاة مبطنة من المخمل. التابوت مزخرف، من البرونز المحفور والمسبوك، ومقابض مطلية بالذهب، مذهل كما رأيته أول مرة.

بدا وديعاً الآن. تخيلت نصف ابتسامة. وقفت إلى جانبه لدقائق قليلة، مطلاً داخل النعش، وثمة شذرات من مشاعر مرتبكة، متباينة وعابرة. كانت لديّ مشكلة مع الرياضيات. كانت لديّ مشكلة مع القراءة. كنت أتلثم طوال مرحلة الدراسة الابتدائية. كنت في الرابعة عشر من عمري وكنا واقفين في طابور طويل من المتقدمين المهاجرين في مبنى فيدرالي بوسط المدينة في بوسطن. كان بابا محافظاً على وقتته مستقيماً، برابطة العنق والبدلة، ومعطف المطر، وقبعة رمادية، ممسكاً بيدي، نقدم أوراقتنا. شاعراً بقلقي، ضغط يدي بإحكام أكبر، وابتسم لي.

في الطابور، خطا قبل الأوان فوق الخط الأصفر السميك على البلاط، ذلك الخط الذي يفصل ضابط الهجرة في المقصورة الزجاجية عن الجماهير الملوثة.

«ارجع وراء الخط الأصفر. الآن!» زعق الضابط فيه.

عاد أبي وراء الخط مفزوعاً قليلاً بينما انكششت إلى جوارهِ. استعاد رباطة جأشه، وهمس بغضب ناظراً إليّ: «ارفع ذقنك إلى أعلى يا علي! قف معتدلاً يا بني!»

فكرت في مد يدي للمسّه، وعندئذ فعلتها، ممرراً إصبعين ببطء عبر وجنة باردة، ناطقاً بالوداع. همست: «سأحميك من العالم.»

سمعت طريقة رقيقة على الباب. وعندما فتحتّه، كانت السيدة رالي واقفة أمامي.

“أسفة على المقاطعة.”

قلت: «ليس هناك ما تقاطعينه.»

“هل أنت مستعد للتوقيع إذا؟”

“بالطبع.” دون قراءة، وقعت الورقة التي أمسكتها أمامي.

قالت: «سنكون مستعدين قريباً. ستأخذ عربة نقل الموتى أباك إلى الواجهة الخارجية. ربما يمكننا أن نلتقي جميعاً هناك في غضون بضع دقائق.»

سرنا نحن الأربعة بمحاذاة عربة نقل سوداء لامعة بينما كانت تزحف نحو مقابر المسلمين على مبعدة بضع مئات من الأقدام، لي وسونيا على جانب، وأنا وأمي على الآخر. بقي غطاء الغيم، رغم أن مزيداً من ضوء الشمس كان يتخلله. توقفت عربة نقل الموتى على الطريق المفروش بالحصى عند حافة المقابر. وفي وقت واحد خرج السائق ورفيقه بحلتيهما السوداوين. أوماً السائق نحوي، وفتح باب عربة نقل الموتى الخلفي. جذب رافعة، فارتفع التابوت، وانزلق إلى الخلف، ثم خرج ببسر من عربة نقل الموتى على حامل معدني بعجلات. قمنا نحن الأربعة - أنا ولي والسائق ورفيقه بحلتيهما السوداوين، واسميها المجهولين، برفع التابوت عن حامله وسرنا عبر الأرض الرطبة إلى المساحة المظلمة المميزة لموقع القبر.

على مبعدة بضعة أقدام وقفت رافعة آلية صغيرة تنتظر، إلى جوارها ثلاثة حفاري قبور من أصول إسبانية. سرنا ببطء نحو موقع القبر. وقفت أمي مع سونيا عند طرف القبر تطل داخل المساحة الداخلية الذهبية للتابوت، وعلى وجهها تعبير متحير. في ضوء الشمس المكسور، بريق ذهبي، لمعان مطلق، كان يتكسر ويتشكل من جديد، ويفيض صاعداً وخارجاً من التابوت.

تراجعت أمي وصاحت باكية: “علي! يا إلهي! ما هذا؟ ماذا فعلت؟”

شكر وتقدير

أود أن أشكر إيمي سوزان ويلسون، الناشرة في دار (ريد ديرت بريس) على وقتها ومهارتها المكرسين للتطوير والتحرير، والشكر لجوليا كاردون، وكيستي، على كل جهودها في هذه المجموعة، ومارسيا ويستبي على سنواتها الكثيرة من النصح والإرشاد، وعائتي وأصدقائي في الولايات المتحدة ومصر على دعمهم وتشجيعهم الثابتين.

عن قصص ياسر السيد

“تُظهر مجموعة (الإسكندرية التي تضيع منك) صوتاً أصيلاً بالفعل وخيالاً بارعاً. يلتقط ياسر السيد بحيوية ودهشة وفطنة ما يعنيه أن تكون حياً وبشرياً. كل قصة جوهرة، متسامية بذاتها في إطار فريد لتقتنص ضوءها الخاص. لكن الثيمة المشتركة هي مؤلف يساعدنا في الاتصال بما هو عالمي، بلغز كوننا بشراً، وطرقنا في معاناة هذا. اقتصد في قراءتك لأن هذه المأدبة اللذيذة تنتهي أسرع من اللازم.”

أبراهام فيرجيزي

مؤلف رواية Cutting for Stone (شق الصخر أو إزالة الحصوات)، قائمة نيويورك تايمز لأفضل المبيعات

.....

“ثمة نثر شعري جميل يملأ صفحات (الإسكندرية التي تضيع منك) حيث تبحث الأرواح الضائعة عن وطن، عن مكان تنتمي إليه. سلسلة من القصص القصيرة تأخذك حول العالم، مستكشفة الرغبات العالمية للبشر في أن يحبوا ويجدوا من يحبهم، في التثبث بالماضي بينما المستقبل يجذبنا إلى الأمام أبداً. تتجرف شخصيات ياسر السيد دون أن يوقفهم مرسى الوطن، لكن دفئهم وإنسانيتهم وهم يتعثرون من أجل موطنٍ قدم يجذبك إليهم. ستغلق الكتاب شاعراً وكأنك عقدت للتو صداقات جديدة.”

لارا برنهارت

مؤلفة رواية Shadow of the Taj (ظل تاج محل)

“ (الإسكندرية التي تضيع منك) مجموعة قصصية فائقة الجمال تموج بإنسانية مشتركة تتسامى بموضوعات قصصها المتعلقة بالصدام الثقافي والنزوح الجارف. إن قدرة ياسر السيد على توصيل أصوات من جغرافيات وخلفيات مغايرة -من جمال الإسكندرية المتداعي إلى زمهرير شتاء وپسكونسن المتجمد- قدرة فريدة؛ فهو داهية في الملاحظة، لكنه ليس متسرعاً في إطلاق الأحكام، وأنعم عليه بحس فكا هي شريير. كانت الشخصيات حية جداً وحاضرة حتى أنني استنشقت رائحتهم، وأردت العيش في قصصهم.»

ديفيد مادسين

كاتب سيناريو Copycat (المقلد)

.....

“بإدراك حاد ولا يتزعزع، يقتنص ياسر السيد خبرة العيش في مكان غريب. بعض من ينزحون يجدون التكيف صعباً، ويجري استكشاف ديناميات الأسرة، المعقدة والمتصارعة أحياناً، بدقة وصراحة. لن يُترك القارئ ليحس بعدم الرضا في قصص هذه المجموعة القوية. بأسلوب يُذكرنا

بأنطون تشيخوف، هذا هو الكتاب المناسب في الوقت المناسب.»

جوليا نونالي دونكان

مؤلفة كتاب A Place That Was Home (مكان كان وطننا) وديوان A Part of Me (جزء مني)

«الإسكندرية التي تضيع منك) إضافة شديدة القوة لهيكل الأدب المتنامي والمكتوب بالإنجليزية مركزاً على المكان والنزوح والعلاقات المعقدة بين الشخصيات ذات الروابط والهويات الشرقية والغربية المزدوجة. يحكي لنا ياسر السيد، وهو طبيب شهير، القصة بدقة الجراح، مانحا صوتاً لمشاعر الفقد والحنين.»

ألان ميندنهول

محرر مجلة ساوثرن ليتراري ريفيو

«الإسكندرية التي تضيع منك) مجموعة جميلة من قصص مؤثرة، تقرير من أرض غريبة، مليء بالتفاصيل النابضة بالحياة وأجواء الذكرى، المشحونة أحياناً، والمؤثرة غالباً، والفاتنة دائماً. قرأت هذه القصص شاعراً بالإثارة والمتعة، لأسباب ليس أقلها أن ياسر السيد يعرف كيف يجد القلب حتى عندما تلوح الأزمان هناك عند الأفق تماماً.»

بيل رورباخ

مؤلف روايتي Life Among Giants (الحياة وسط العمالقة)، The Remedy for Love (علاج الحب)، والمجموعة القصصية The Girl of the Lake (فتاة البحيرة)

«ستحمل هذه القصص في قلبك، كما أحملها. إن حضور ياسر السيد الهادئ يجلب لنا شخصيات تصنع حياتها في الهوة الكائنة بين ثقافات شمال أفريقيا التقليدية والحياة الأمريكية المقتلعة من جذورها. تلقي القصة بالضوء على الصراعات الثقافية بوضوح وإنسانية، مع دقة وفروق بسيطة. إذا كنت قد استمتعت بالحرفة المعقدة والرنانة لكاتب مثل ريموند كارفر، فستبتهج بهذه القصص المصقولة والبارعة.»

كلاي لويس

مؤلف كتاب Battlegrounds of Memory (ساحات معارك الذاكرة)